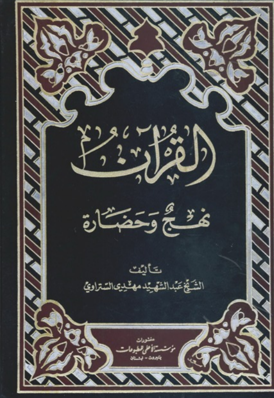
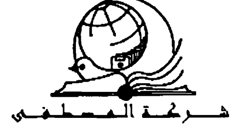

القرآن
نهج وحضارة
تأليف
الشيخ عبد الشهيد مهدي الستراوي
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان


القرآن
نهج وحضارة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م



للتوزيع والخدمات الثقافية

ص - ب 3022 المنامة - دولة البحرين هاتف 554115 - فاكس 554116



نهج وحضارة

تأليف

الشيخ عبد الشهيد مهدي الستراوي

شركة المصطفى

للتوزيع والخدمات الثقافية



﴿ أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾

سورة النحل آية ١٢٥

المقدمة

القرآن نهج ... وحضارة.

لماذا هذا العنوان الثلاثي؟

لماذا نهج و لماذا حضارة؟

القرآن كتاب الله، كما هو كتاب للإنسان، كتاب السماء إلى الأرض التي يعيش عليها الإنسان.

كتاب النور الإلهي الفياض على خلقه، بالبرامج و الرؤى والبصائر. ففيه ما يحقق كل آمال هذا المخلوق، و طموحاته في الحياة الدنيا، وفق فطرته التي فطره الله عليها.

كتاب جاء لبناء الإنسان في عملية مبرمجة لتقنين حياته للتوجه إلى عبادة الله، و صرفه عن عبادة المخلوقين.

أراد القرآن بذلك أن يكون نهجاً ومنهجاً و طريقاً قويماً، لإعطاء صورة غير مادية بلغة مادية، و أشخاص ماديين﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم و

يبشر المؤمنين﴾. إنه المصداق الوحيد في الحياة للإنسان، في مواقفه ـ أقواله و أفعاله ـ سكناته و حركاته.

فالعادات و التقاليد و الأفكار التجارية التي يروجها سماسرة الأديان و سدنة المعابد، ما هي إلا من ضرب الخيال، و لاتمت إلى الواقع بصلة، فالقرآن هو الملجأ الوحيد لأنه النهج الصادق في بناء الإنسان. فهو ليس كتاب فلسفة أو كتاب معجزة أو كتاب أفكاره تبحث عن موضوع يختص بالسياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو التربية أو العسكرية، و إنما هو كتاب فوق هذا جميعا.

فهو نهج لأنه دستور للحياة، فإذا كان الدستور هو الصيغة القانونية لإرادة شعب، فالقرآن تعبير عن إرادة الله الجامعة لمصلحة الدارين الدنيا و الآخرة، نهج لأنه يشتمل على نظام كامل لهذا الإنسان بجوانبه العديدة، التي منها الجانب القانوني لتنظيم حياته الشخصية و الاجتماعية.

فهو لا يكسب شرعيته من موافقة شعب، و إنما تنبع شرعيته من إرادة الله و واقعية القرآن.

فالنهج لا يكون نهجاً كاملاً و شاملاً إلا إذا كان من مصدر هذا الكون خالق البشرية، فيكون كتاباً كونياً، يعطي الإنسان بكل أبعاده أسس الحياة لبناء الحضارة المنشودة التي يريدها الله أن تكون سائدة على كل الأمم و الحضارات.

إذاً القرآن نهج، لأنه يهدف اللى بناء حضارة، ترتقي لتكون فوق مستوى الحضارات، ليس بالسيادة فقط، بل رائدة عليها، و متقدمة في كل أبعاد الحياة و نواحيها، تطورها إلى الأحسن، ليسعد فيها تحت ظل نظام إلهي يتواكب مع

الإنسان في أدوار حياته و مراحله التي يمر فيها، وفق برامج سماوية جاء بها الوحي عبر الأنبياء.

فالقرآن ليس نهجاً فقط بل هو حضارة، فهو امتداد عبر الزمن، و عبر البشر ليس لبناء هذا الصرح الإنساني فقط، و إنما لبقائه خالداً بعمله وفق برامج السماء. فهو كتاب جاء ليصنع للإنسان برنامجاً عملياً لكل جانب من جوانب حياته، و يرسم له تصوراً خاصاً و شاملاً لغرض بقاء النوع الإنساني من أجل بناء المجتمع الإسلامي القويم، و وضع اللبنات الرصينة لقيام الحضارة ذات المجتمعات المتكاملة المنطلقة من خلال الرؤية القرآنية الواضحة، فكان شعاره في ذلك ﴿ و لتكن منكم أمة ﴾ تتجاوز كل العقبات عن طريق اتخاذ القرآن برنامجاً ثابتاً يتقدم بها إلى الأمام، وفق ذلك الخط السليم الذي رسمه القرآن لهذه الأمة، فتكون انطلاقتهامن نقطة مركزية و محددة ذات أهداف مرسومة و منهجية واضحة، تتلقى التوجيه من الله عبر كتابه المجيد، و على ضوء قاعدة التوحيد.

و تجاوز العقبات يتم بتحويل الفهم القشري إلى فهم شمولي، لكل أبعاد القرآن في المجال التطبيقي للحياة دون الاقتصار على مجالات محددة، لأنه كتاب الإنسان و الحياة، فلا معنى أن نحصر القرآن في زاوية عبادية أو علمية معينة أو نقتصر على تلاوته فقط دون فهمه كبرنامج عمل و منهج حياة.

إذاً القرآن نهج و حضارة، نهج لأنه يريد بناء الإنسان القادر على إدارة الحياة وفق ما يمليه عليه. و حضارة لأنها تتشكل من ذلك الإنسان و تلك القيم فهي ليست حضارة المادة أو حضارة الشيء.

فالقرآن نهج و حضارة لأنه اعتمد القيم الربانية أساساً و مرتكزاً،

فتميزت حضارة المسلمين حينما التزموا بتلك القيم فكانوا سادة ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ فتعالوا معاً لنتصفح كتاب الله العزيز، لنجد أنه يتحدث من أول سورة نزلت على محمد (ص) و هي العلق إلى آخر سورة وهي النصر عن النهج والحضارة عن القيم والإنسان عن البرنامج و الأمة.

و هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ العزيز يتحدث عن أمرين:

أولاً: عن القرآن المنهج المتمثل في البرامج و الرؤى و البصائر، التي يتخذها الإنسان نهجاً و طريقاً في الحياة.

ثانياً: عن التطبيق العملي لهذا القرآن المنهج لبناء صرح الحضارة.

و نحن اليوم أحوج ما نكون إلى أن نقف أمام التيارات الجارفة و الأعاصير الشديدة و الهزات القوية موقف الصامد أمامها، متسلحين بمنهج رباني، نعيش من خلاله و تحيا قلوبنا عليه و ترتفع رايتنا به. فقد حاولت أن أستوضح ذلك المنهج من خلال آيات الكتاب العزيز، و تلك الرؤى و البصائر على اننا بحاجة إلى تطبيق ما في هذا المنهج لبناء الحضارة التي أكد عليها القرآن. فجاءت هذه الدراسة المختصرة لبيان هذين الجانبين لتكون إشارات مضيئة، لمن يريد أن يفهم كتاب الله على أنه نهج و حضارة.

عبد الشهيد مهدي الستراوي

١/ رجب /١٤١٧هـ



١

القرآن دعوة إلى الحياة

* المشروع الدائم للحياة
* إنطلاقتان
* برمجة القلب



المشروع الدائم للحياة

العنصر الأكثر إثارة وقوة في الوجود في هذا الكون هو الإنسان، يجب أن يوجد شاء أم أبى، ويجب عليه أن يحيا. أجل إنها الحياة، ذلك هو السر في بقائه على مر العصور و الأزمان، مهما طالت أيدي بعضنا بعضا، ومهما حاولت فئة أو طائفة أن تبيد الأخرى. إن الإنسان سوف يبقى إلى أن يأذن الله سبحانه له بأن يرحل من هذا الوجود.

الحياة إذا لفظة تعني الاستمرارية و البقاء و الحركة. وهي ضد الموت، لأنها مركز وجود الإنسان، الذي هو أحد الأحياء الموجودة و المتنوعة و المختلفة، ولكنه أعظمها، لهذا نراه يسعى دائما إلى الرقي، و إلى الكمال، و الذي يوصله إلى ذلك طموحه، و إيمانه الجبار بطاقاته و إمكانياته الكبيرة التي مازالت ولا تزال تنمو وتكبر إلى أن خرق الأرض، و اخرج كنوزها، وجاب البحار وعرف أسرارها، و ارتفع إلى المجرات و الكواكب ووصل إلى أبعدها، وذلك لم يتم لولا فضله ورحمته علينا كما في قوله تعالى: **﴿يا معشر الجن و الإنس إن استطعتم إن تنفذوا من أقطار السماوات الأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾**.[1]

مع كل ذلك و لكي يحيا الإنسان حياة طيبة - تغمرها السعادة ويحدوها الأمل المشرق -- لتحقيق طموحاته، فهو بحاجة إلى مشروع دائم، يتوافق مع هذه الحياة في كل مراحلها، باعتبارها لا تنتهي، فهي تمتد من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة. فليس الإنسان مجرد مادة أوجدت على هذه الكرة الأرضية وتنتهي بانتهائها بل خلقه الله عز وجل ليتجاوز مرحلة الدنيا إلى الآخرة

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٣

وكلاهما حياة بالنسبة إليه.

إنطلاقتان:

البعض من البشر يجعل عامل الزمن و اختزاله هو الركيزة الأساسية في الوصول إلى الهدف، أي بعبارة أخرى أي الطرق أسرع فهو الأسلم و المتّبع، دون النظر إلى عواقبه، مادامت ثماره الدنيوية و البسيطة قد حصلوا عليها. وهذه هي الانطلاقة المادية التي تربط الإنسان، وتشده إلى الأرض، وحب ما فيها، و التعلق بشهواتها، كما في قوله تعالى: ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار﴾.[1]

أما الانطلاقة الثانية وهي المعنوية و التي ترتفع بروح الإنسان لا بجسده إلى السماء، وتعرج به في آفاق الكون الرحب، ليكتشف حقائقه من مادية ومعنوية، وفي ذلك قوله عز وجل ﴿و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾[2] وهذه الانطلاقة المعنوية هي التي يجب أن تكون الحاكمة في حياة الإنسان، وهي تمثل الجانب المضيء للحياة المرجوة، فلابد أن تتوافق مع المشروع الدائم الذي يتواكب معها يغذيها وينميها، وفق برامج معدة لكل مرحلة زمنية يمر فيها الإنسان. و القرآن الكريم هو مشروع الحياة للإنسان، فهو مشروع ودعوة للحياة مادام الإنسان حياً يعيش عليها فهو بحاجة إليه.

وهذه الحياة التي يدعو إليها القرآن الحياة الممتدة المتصلة، الدنيا بالآخرة

---

(١) سورة يونس آية ٧

(٢) سورة القصص آية٧٧

ضمن مساحة، واسعة لا تكـون إلا بمقـدار الاستجابة لله، ولدعوتـه ولطاعـة القيادة المتمثلة في النبي (ص) في تطبيق برنـامج السـماء، و أحكـام الشـريعة، و النظم الإسلامية، فيقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعـاكم لما يحييكم﴾ [1] فما هي هذه الحياة التي يدعونا إليها القران؟

جاء في التفاسير لهذه الآية احتمالات [2]:

١- الحياة: هي الدعوة إلى الإيمان أي يحييكم بالإيمان.

٢- الحياة: هي الدعوة إلى الجهاد أي يحييكم بالجهاد.

٣- الحياة: هي الدعوة إلى الجنة أي يحييكم بالجنة.

٤- الحياة: هي الدعوة إلى الولاية أي يحييكم بالولاية.

٥- الحياة: هي الدعوة إلى القرآن أي يحييكم بالقرآن.

فلو افترضنا صحة أحد هذه الاحتمالات الخمسة كل على حدة، حيث لا تكون الحياة إلا بالإيمان، ذلك النور الإلهي الـذي يضـيء القلـب، فهـو ركيزة وبرنامج اتضحت معالمه من خلال القران.

أما الجهاد فالإيمان به يشكل أحد الفروع التي يؤمـن بهـا الإنسـان، وهـو يمثل جانب البذل، و التضحية بالمال و النفس التي دعا إليها القران.

و الجنة فإنما هي ثمـرة يقتطفهـا المؤمـن، ويحصـل عليهـا مـن خـلال إيمانـه وعمله الصالح، ولا ننسى ذكر الولاية الـتي أشـارت إليهـا التفاسـير علـى أنهـا الأساس لذلك الإيمان فبدونها لا يتم ذلك الإيمان.

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤

(٢) مجمع البيان (ج٤) ص ٨٢٠

بعد هذه المقدمة تبيّن لنا أن أي واحد من هذه الأمور لا يمكن أن يكون بمفرده هو المعنى الوحيد، و الأصيل للحياة، وجميعها وجدناها ترجع بالنتيجة إلى القرآن. فالقرآن وحده مصدر الحياة العملية حينما يتبع الإنسان برنامجه ويهتدي إلى نوره، ويقف عند أوامره، فيطبقها، ويمر على نواهيه فيبتعد عنها.

إذن الحياة في نظر القرآن ابعد من مجموعة ارتباطات مادية محدودة بحدود الأرض، و إنما هي حياة يكون من ضمنها البقاء في الأرض. فالقرآن لا يلغي الحياة في الأرض، فهي واقع بيّنه القرآن و أوضح كيفية الاستفادة منها و التكيّف وفق طبيعتها، بشرط أن لا يفقد الإنسان إنسانيته، وينزل إلى الحيوانية، وذلك من خلال المشروع الدائم للإنسان الموجود في القران الكريم.

فدعوة القرآن إلى الحياة قائمة على الإيمان وعلى العلم و العمل، وبهذه يحيا الإنسان وبدونها يموت. فالقرآن يحي قلب الإنسان ويغمره بالإيمان، باعتباره مركز الحياة، فحياته بحياة قلبه، جاء في نهج البلاغة **﴿إن الله لم يعظ أحداً بمثل هذا القران وفيه ربيع القلب وينابيع العلم﴾**[1]

فموت الإنسان ليس بجسده و إنما بقلبه، فالميت قلبا في الحياة لا ذكر له حتى قبل موت الجسد، و الحي قلبا في الحياة فانه يبقى رمزا حتى بعد فناء جسده، لان الذي يخلد ويبقى هو عمل الإنسان، جاء هذا الحديث عن الرسول (ص) ليؤكد هذه الفكرة فقال: **﴿إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له﴾**[2] الإنسان يسمو بقلبه وروحه و الجسد يسمو بسموهما فلا قدسية للجسد ولا قيمة له إلا

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٧٦

(٢) ميزان الحكمة (ج٧) ص١٤

بسمو وصلاح القلب و الروح و إذا تطبع القلب بمعالم القرآن تميّز و انبعثت منه الحيوية و الحركة في الحياة.

و الآية الكريمة الآتية هي خير دليل على ما ذكرنا، قال ربنا سبحانه ﴿كيف تكفرون با لله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾.[1]

بدون القرآن وبدون البرنامج السماوي لا حياة للإنسان، فالكفر موت بطيء له، وهو تجسيد لكل معاني الجهل و الظلام و الخرافة، وهو انحراف حقيقي عن المعنى الواضح للحياة، و الخط الأصيل للقرآن، الذي لا يتحقق إلا بالعلم و الإيمان، يُتوّجهما العمل الصالح الدؤوب، و الحياة المستمرة في الدنيا و الآخرة، كما أشار ربنا سبحانه بالنسبة إلى الذين يُقتلون في سبيله، بأن هذا الموت لهم حياة بقوله تعالى:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل ا لله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ﴾.[2]

فهؤلاء أحياء بقلوبهم الحية حين الجهاد، ومواصلة الدعوة في سبيله، فهم لا يفرقون بين هذه الحياة الدنيا و الحياة الآخرة، فكلاهما حياة بالنسبة إليهم، وما الموت إلا مرحلة انتقالية من الأولى إلى الأخرى، وهذه الأخيرة حياة لهم، لأنهم يبقون بها بقلوبهم وعملهم، وذكرهم خالد مادام الزمن ينقل آثارهم إلى الأجيال القادمة.

حتى في حين ارتكاب الجريمة التي يترتب عليها القتل، فيكون العلاج هو القصاص، وفيه تكون الحياة، حيث يقول سبحانه ﴿ولكم في القصاص حياة يا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩

أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ [1] حياة لأهل الحق، وحياة للمجرمين كي لا يكرروا إجرامهم. فالحياة تكون في كف المعتدي عن جريمته ساعة الإقدام عليها، فمن يعرف أن مصيره القتل كم سيتروى ويفكر ويتردد، فيرتد عن جريمته ويرتدع، كي لا تكون حياته ثمنا لحياة من يقتله ظلماً وعدواناً.

فهو حياة للمظلوم حيث يؤخذ حقه، وتعيش من بعده عائلته مطمئنة. وحياة للظالم فانه يؤخذ العقاب منه في الدنيا، ويحيا في الآخرة، حين يرتفع عنه العذاب، وقد ذكر ربنا في كتابه، إن القصاص شرّع لاحترام الحياة، فقال: **﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾.** [2]

برمجة القلب:

إذا الحياة بالقرآن ومركز الحياة هو القلب، فإذا مرض القلب اختلت الحياة **﴿ في قلوبهم مرض ﴾** [3] فمتى مازال هذا المرض، يحيا الإنسان، فحياة الإنسان تتمحور بكل أبعادها حول كتاب الله المجيد، عندما يكون قلبه في مأمن من ضغوط الأهواء و الشهوات النفسية، التي طالما كانت السبب في انحراف البشرية عن الطريق السليم.

فبرمجة القلب بالقران هي الدعامة الرئيسية في حفظه وجعله صلبا، كما في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (ع): **﴿ المؤمن أشد من زبر الحديد، إن زبر الحديد إذا دخل النار تغير، و أن المؤمن لو قتل ثم نشر ثم قتل لم يتغير قلبه ﴾.** [4]

---

(١) سورة البقرة أية ١٧٩
(٢) سورة المائدة آية ٣٢
(٣) سورة البقرة آية ١٠
(٤) بحار الأنوار (ج٧٦) ص٣٠٤

فقلب المؤمن خالي من الأمراض و الأوبئة النفسية، لهذا نراه كما في الحديث الشريف يصفه قائلا ﴿المؤمن بشره في وجهه﴾[1] أي دائما مستبشر بنور الإيمان، و الحب لله وفي الله يكون حبه للناس جميعا، بعيدا عن كل الأحقاد و الضغائن المفسدة للقلب،و لم يكن له ذلك لولا التأييد الإلهي له كما في قوله تعالى: ﴿و اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾[2] وذلك لكي يثبته على الإيمان، بعدما رأى منه ذلك الإصرار العنيد في السير قدما لتحقيق الإيمان القلبي.

فإذا أراد الإنسان أن يحيا قلبه، و أن يكون مركزا لحياته، التي هي هدف القرآن، فعليه أن يقوم بإعطائه دوره الحقيقي في تحويل تلك الرؤى و البصائر و الأفكار التي نتعلمها من واقع النظرية المجردة و القانون المجرد إلى تفاعل نفسي يتحول إلى عمل يتحرك مع الإنسان في حياته اليومية.

إذا علينا بالقرآن ثم القرآن لكي نحيا به، ولن نصل إلى ذلك إلا بعد دراسة ما فيه من قوانين دراسة معمقة، حتى نستطيع أن نميز بينها وبين قوانين البشر، لا أن ندرسها كتُراث خلّفه لنا التاريخ لترضية الترف الفكري.

و أن نلاحظ روح القانون، فالباعث على الإلزام ليس هو القوة أو الإجبار القهري، و إنما روح القانون، و فهم العقل، و إدراك الإنسان بوعي تام وضمير حي، كل ذلك هو الذي يجعل الإنسان يلتزم بالقانون دون جبر أو إكراه ﴿ لا إكراه في الدين ﴾[3] بعد أن تبين للإنسان ﴿الرشد من الغي﴾[4]

و من الأدوار التي يجب أن يتقمصها القرآن، أن يجعله المسلم إماما وقائدا

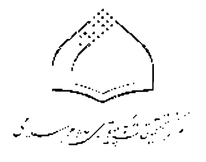
---

(١) بحار الأنوار (ج٧٩) ص٤١١

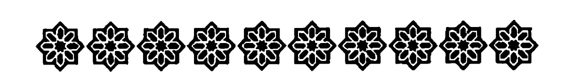
(٢) سورة الأنفال آية ٢٤

(٣-٤) سورة البقرة آية ٢٥٦

وحاكما له على كل تصرفاته الفردية و الاجتماعية و الشخصية و العائلية. فيكون حينها قدوة، ومثلا يحتذى به، وحينما يكون القرآن كذلك، يكون سكنا نأوي إليه، لكي لا يتحول إلى مجرد اثر جاء به محمد (ص) و وضع في بيوتنا، فلا نعرفه إلا إذا ألّمت بنا مصيبة، اتجهنا لنفض الغبار الذي علق به، و أن يتخذ الإنسان القرآن سكنا، يتحصن به من البرد و الحر ومن الأخطار المحدقة به، فإذا جعلنا القران سكنا فانه يحمينا من كل الأخطار المخبّئة لنا، دون أن يكون موضعا لحالات الطوارئ فقط.



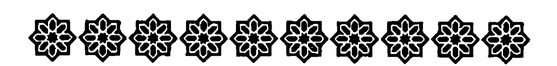




٢

القرآن في القرآن

* رسالة السماء
* الجاهلية الأولى
* الجاهلية الثانية
* الرسالة الخالدة



رسالة السماء:

ما هو القران ؟ وماذا فيه ؟ وما هو التحدي الذي اعجز البشر عن الإحاطة بأبعاده !؟

كان ومازال القرآن الكريم وكأنه حديثٌ جديدٌ ومثيرٌ رغم مرور الزمن، بل نراه يتجدد كل يوم، ليتواكب مع الإنسان في حاضره الجديد المتطور، ومستقبله المرتقب. لكن مع ذلك هذه الرسالة واجهت تحديا كبيرا بشتى أصنافه و أشكاله وجميع فنونه، وهذا ما عاصره النبي محمد (ص) و العهد القريب بالرسالة وهو ما يسمّى بالجاهلية الأُولى.

وتحدي الجاهلية الثانية التي تمثلت بالمستشرقين و المغتربين ممن اغترّ بالثقافة الغربية.

الجاهلية الأولى:

تمثّل تحدي الجاهلية الأولى في استخدام ابشع الوسائل على الصعيد الإعلامي، لغرض إيقاف تأثير القرآن على قلوب الناس، بعد عجزهم من المواجهة البلاغية، أو الإتيان بسورة واحدة.

وكانت وسيلة السحر التي توسلوا بها، و استخدموها، باعتبارها شائعة في ذلك العصر لم تنفعهم، فالوليد بن المغيرة وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله (ص)، وكان رسول الله يقعد في الحجرة ويقرأ القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة، وقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد، اشعر أم كهانه أم خطب!؟

فقال لهم: دعوني اسمع كلامه، فدنا من الرسول (ص) فقال: يا محمد

أنشدني من شعرك.

قال: ما هو شعر، ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته و أنبيائه ورسله.

فقال: اتل عليّ منه شيئا.

فقرأ رسول الله (ص) حم السجدة، فلما بلغ قوله ﴿فأعرضوا﴾ يا محمد اعني قريشا ﴿فقل لهم أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾.

قال فاقشعر الوليد، وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ومرّ إلى بيته، و لم يرجع إلى قريش من ذلك فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد، أما تراه لم يرجع إلينا.

فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال له: يا عم نكسّت رؤوسنا وفضحتنا، فقال: ما صبوت إلى دينه، ولكن سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود.

فقال أبو جهل اخطب هو !

قال: لا، إن الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضا.

قال: أفشعر هو !

قال: لا، إما أني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها (يقصد هنا بحور الشعر) وما هو بشعر.

قال: فما هو !

قال: دعني أفكر فيه.

فلما كان الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه.

قال: قولوا: هو سحر فانه اخذ بقلوب الناس.[١]

فنزلت هذه الآية ﴿ **فقال إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾.[٢]

بهذه الكيفية تحدّت الجاهلية الأولى القرآن؛ كي تبعد الناس عنه، حينما صوّرت لهم القران انه سحر، ولا فرق بين عمل السحر وتأثيره، وتأثير القرآن وعمله، متجاهلين حقيقة السحر أنه من الباطل، حيث انه يعمي عن الحقيقة التي يكتشفها العقل، لان من ميزاته انه يرهب ويأخذ العين على غرة ﴿ **فلما القوا سحروا أعين الناس و استرهبوهم و جاءوا بسحر عظيم** ﴾[٣] وهو اقرب إلى الخيال من الحقيقة، ولا يتخطى ذلك الخيال إلى العقل ﴿**فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾.[٤]

" ألم يقل الوليد انه سحر ما رأيتموه، يفرق بين الرجل و أهله وولده و مواليه"[٥] ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه**﴾.[٦]

إن القرآن آيات معجزة، لأنها مبصرة مبينة، لا تخفى على أصحاب العقول النيرة، وذات تأثير يأخذ القلوب بأزمتها، و تباشر مخاطبة العقل و الفطرة و الفكر بالبرهان القائم على العلم، فليس ذلك سحر.

وفي بعض الأحيان نجد التحدي للقرآن العظيم في صور أخرى و محاولات يائسة شتى، كلفّت قريش و من والاها ثمنا باهظا، يتمثل في عنادهم و

---

(١) تفسير القمي (ج٢) ص٣٩٣
(٢) سورة المائدة آية ٢٤
(٣) سورة الأعراف آية ١١٦
(٤) سورة طه آية ٦٦
(٥) تفسير كنز الدقائق (ج١٤) ص٢٠
(٦) سورة البقرة آية ١٠٢

استعلائهم على الإيمان بكتاب الله عز و جل، فعجزوا على أن يأتوا بسورة واحدة فقط، و لم يستطيعوا أن يبرزوا عيبا واحدا في آياته، لذلك عجزوا عن القول بأنه غير متناسق، و فيه تناقض، و كل محاولاتهم وتحدياتهم باءت بالفشل الذريع السريع، وهذه نتيجة حتمية لكل من تسوّل له نفسه بتحدي آيات السماء الخالدة.

الجاهلية الثانية:

لقد تغيّرت تلك الصور و الأشكال التي تحدت بها القرآن، و حاولت أن تطعن في كتاب الله بطريقة أخرى، وهي التشكيك فيه بالمقارنة بين ما جاء به وبين متطلبات العصر الحديث، وراحت تقول! إن كتاب الله ليس نصا ثابتا لا يتغير، و أنكرت المصدر الإلهي، و أن وجوده أزلي في اللوح المحفوظ، ما هي إلا أسطورة فأنكرت الغيب، و انه من شروط الإيمان[١]

وكل ذلك نتيجة الانبهار بالتقنية الحديثة و الانهزامية النفسية، ولعدم فهم كتاب الله، وكذلك نتيجة التخلف المتوارث في الأمة الإسلامية، و ابتعادها عن القيم الحقة. استطاع المستعمر عن طريق بعض المستشرقين و المنبهرين بالثقافة الغربية من أبناء الأمة الإسلامية، أن يدخل هذه الأفكار الغريبة و الخطرة، ليؤكد على أن القرآن لا يلائم العصر وهو السبب في تأخر المسلمين.

إذا هذه الفئة تحدت القرآن، بإيراد إشكالات في ثوب جديد، تسعى من خلاله إلى تضليل المسلمين.

ولكن بقي القرآن أصلا ونصا ورسما، كما هو على مر الزمن ﴿إنا نحن نزلنا

(١.)نجد هذه الأفكار في كتاب نقد الخطاب الديني لمؤلفه نصر حامد أبو زيد

الذكر و إنا له لحافظون﴾.[1]

الرسالة الخالدة:

القران كتاب السماء، لم ينزل لجيل واحد، ولا لمجموعة بشرية محدودة، ولا لزمن معين، ولمكان فقط. فقد تجاوز هذه الحدود الزمنية و المكانية فالكتاب له امتدادان:

أما الأول: فلأنه خطاب الله الذي امتد مع الزمن، منذ أن أنشأه الله إلى يوم يبعثون، فهو امتداد عبر الزمن.

أما الثاني: فقد امتد مع البشر، عندما نزل على النبي (محمد بن عبد الله (ص)) لتكمل به رسالات الله، وليكن خاتما إلى يوم يبعثون. فهو كتاب البشرية جمعاء، ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

سئل الإمام الصادق (ع) ﴿ ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس الاغضا ؟

فقال: لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة ﴾.[2]

وما تلك الرسالات السماوية التي جاءت قبل رسالة النبي (ص)إلا وتصب في هذا المجال، كي تصل البشرية إلى مرحلة النضج العقلي، حيث أن العقل عاجز عن الإحاطة بأسرار الوجود ومعرفة ما فيه. فكلما توغل في أعماق هذا الكون، كلما تفتحت له آفاق جديدة من العلوم و المعرفة، وتكون كل مكتشفاته ومخترعاته ما هي إلا جزء بسيط، فهو بحاجة إلى أن يكون بجانب

---

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) بحار الأنوار (ج٢) ص ٢٨٠

القرآن ليفتح له أبواب المعرفة الأصيلة. و الذي يرفع العجز عن حجب المعرفة، هو السير قدما في آفاق المعرفة القرآنية، وتلك ضرورة تفرضها علينا حقيقة هذه الرسالة.

حيث أن القران رسالة السماء إلى الأرض، فهي ليست نتاج بشري، ولا من بنات صناع الفكر البشري، فليس هو كتاب سياسي يعالج مشاكل إدارية ويحل قضايا شعبية بين حاكم ومحكوم، ولا كتاب اقتصادي يتعرض لأزمات اقتصادية ويضع الحلول لها، وليس كتابا أخلاقيا يتحدث حول النفس وعلاج مشاكلها، ولا كتاب فلسفة أو قصص تاريخية وعبر وحكم.

فالقران هو كل ذلك وفق ما تبين، لأنه رسالة جاءت إلى الإنسان لإخراجه من الظلمات إلى النور.

فالقران و النبي يعلن صراحة وعلى الملأ انه كتاب جاء من السماء، و أن منشأ القرآن هو (الله) جل وعلا، وقد نزل به جبرئيل بإذن من الله، وقال ربنا سبحانه وتعالى: **﴿و إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين﴾**.[1]

ويقول ربنا مخاطبا النبي: **﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء﴾**[2] ويقول أيضا: **﴿و ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾**[3] وهذه دلالة واضحة على أن القرآن ليس من نتاج النبي ولا من نتاج البشر و إنما هو رسالة سماوية إلى الأرض، رسالة التغيير و التطور للتقدم بالإنسان إلى الأمام.

---

(١) سورة الشعراء آية (١٩٢-١٩٣)

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٨

رسالة التغيير بمعنى أن القرآن يصنع النقلة من حالة إلى أخرى، و القرآن ينقل الإنسان من حالة الحضيض إلى حالة ارفع و أرقى، من الجهل إلى القيم، ومن الفوضى إلى القانون ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾.[1] من يرتبط بالدين يرتفع بتلك القيم لان هذه القيم هي التي تصنع هذه النقلة عند الإنسان.

أما رسالة التطوير فلأن الدين لا يريد منّا بأن نبقى على حالة معينة قال الإمام الصادق (ع): ﴿ **من استوى يوماه فهو مغبون**﴾[2] ، و إنما يجب أن نتقدم إلى الأمام بعد أن نتغير من حالة إلى احسن دائما على كل الأصعدة و المجالات في الحياة.

وهذا عجز البشر عن الإحاطة بأبعاده لأنه فوق مستوى العقل البشري لا مستوى الفهم، وهنا يوجد فرق بين العبارتين.

أما بالنسبة للعبارة الثانية فبما أن القرآن جاء من السماء إلى أهل الأرض، فلابد أن يكون في مستوى الفهم البشري. فليس من الحكمة له سبحانه أن ينزّل كتابا معقدا لا يفهمه الإنسان ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر**﴾.[3] ومادامت هذه الرسالة جاءت إلى العبد فلابد أن يفهمها حسب مستواه، نعم للفهم درجات ومستويات، وكما أن العلماء يتفاضلون فيما بينهم بالعلم، كذلك العوام تختلف مستوياتهم في الفهم، وحينما لا يفهم الإنسان أمرا فما عليه إلا أن يرجع إلى أهل الذكر حتى يسأل منهم مالا يعلم

---

(١) سورة التين آية (٤-٦)
(٢) بحار الأنوار (ج٧١) ص١٧٣
(٣) سورة القمر آية ٤٠

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾.[1] وعلى هذا الأساس وبهذا المفهوم وهذه الرؤية حول القرآن سيضل المعجزة الباقية الدائمة في الأفكار و المحتوى و اللفظ و المضمون، فقد جاء النبي (ص) بمعجزة خالدة للبشرية كانت وما تزال قائمة بالتحدي و التفوق العلمي، ولعل ابرز ما يمثله القرآن تطابقه لحقائق الماضي و الحاضر و المستقبل المتوافقة مع الفطرة و العقل و العلم و المنطق.

القران يعرّف نفسه:

لا نستطيع أن نتعرف على شيء ما من خلال شيء آخر خارجي و إنما بذات الشيء تتم المعرفة، وكذلك القرآن لا يمكننا التعرف عليه إلا من خلال القرآن نفسه، ففيه توجد آيات عدة تعرف القرآن، وما علينا إلا أن نفتحه ونقرأ هذه الآيات.

يقول ربّنا عز وجل: ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾[2] . من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن الخرافة و الأسطورة إلى الحقيقة و الإدراك.

" الظلمات هي الحالة الأولى التي كان البشر فيها على حالة من العجز و النقص، وغلظة الروح، و انغلاق النفس و الجهل، وبتعبير آخر: إنها حالة العدمية المحيطة بالخلق من قبل أن يرش عليها ربنا من نوره خلقا و إنشاءً وقوةً وعلما".[3]

وقد قصد ربنا بالظلمات كل جهل يحيط بالإنسان، فالجهل الاجتماعي

---

(١) سورة الأنبياء آية ٧

(٢) سورة إبراهيم آية ١

(٣) من هدى القرآن (ج٥) ص ٣٧٣

و الأخلاقي و السياسي و الاقتصادي كل ذلك ظلمات، فالقرآن جاء ليخرج الإنسان من كل هذه الظلمات المختلفة الأبعاد إلى واقع الحياة السليمة بعيدا عن الأمراض و العقد و السلبيات المضلة عن جادة الصواب.

ويمكن أن يعّرف القرآن بالميثاق بين الله و العبد بدون واسطة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾.(١)

ويقول ابن حزم: "القرآن هو عهد الله إلينا الذي الزمنا الإقرار به".(٢)

لكن لهذا الميثاق أو العهد مواصفات، فما هي هذه المواصفات ؟ وكيف يصف القرآن نفسه ؟

هناك أكثر من مائة آيه تبين خصائص القرآن غير الآيات التي تتحدث عن الشؤون المختلفة في القرآن.

تعالوا نقرأ هذه الآيات في وصف القرآن لنفسه.

يقول ربنّا: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.(٣)

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾.(٤)

﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾.(٥)

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٧
(٢) القرآن ـ أنور الجندي ـ ص١١
(٣) سورة المائدة آية (١٥-١٦)
(٤) سورة آل عمران آية ١٣٨
(٥) سورة الأنبياء آية ٨

﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾.[1]

القرآن نور وكتاب مبين، سلام وصراط مستقيم و هدى و بصيرة و تذكرة وضياء. هكذا نعت القرآن نفسه، وبيّن انه الطريق الوحيد لنجاة و صلاح الناس.



(١) سورة ق آية ٨



القرآن في منظار السنة

* علاقة مقدسة
* حديث هام
* أصلان .. عدلان .. ثقلان
* كيف تصف السنة القرآن





-علاقة مقدسة:

قد بيّن القرآن نفسه من خلال آياته، وتحدثت هذه الآيات عن مواصفات هذا الكتاب، ولكن بقي هناك عدة أسئلة عن القرآن، وكيف تنظر إليه السنة، وما هي العلاقة بينهما ؟

الحديث عن السنة نقصد به روايات النبي (ص) و أهل بيته التي تعتبر شارحة وموضحة لكتاب الله عزّ وجل.

وهي بمثابة المفسرة لآيات الذكر الحكيم، فجاءت هذه الأحاديث التي وردت عنهم (ع) في صفة القرآن وبيان معالمه و أهدافه و أسباب نزول الآيات وبيان المحكم و المتشابه و الناسخ و المنسوخ.

يقول أبو عبد الله (ع): **﴿ انهم ضربوا القرآن بعضه ببعض و احتجّوا بالمنسوخ وهم يظنونه الناسخ و احتجّوا بالخاص وهم يظنون انه العام و احتجّوا بالآية وتركوا السنة في تأويلها ولم ينظروا إلى ما يفتح به الكلام و إلى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلوا و أضلوا﴾**[1]

وكما أن رواياتهم رفعت اللبس عن القرآن، وبيّنت دوره في صياغة شخصية الإنسان، وبناء المجتمع وبيان الأحكام و التشريعات و النظم الإسلامية و القوانين الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية.

في مرسلة شبيب بن انس عن أبي عبد الله عليه السلام انه قال لأبي حنيفة: **﴿أنت فقيه العراق. قال نعم قال: فبأي شيء تفتيهم ؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و آله قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال نعم. قال عليه السلام: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علما ويلك**

---

(١) فرائد الأصول (ج١) ص ٥٨

ما جعل ا لله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين انزل عليهم ويلك وما هو إلا عند الخاصة من ذرية نبينا صلى ا لله عليه و آله وما ورثك ا لله من كتابه حرفا﴾[1].

فما هي حقيقة القرآن في السنة ؟

لعلنا لا نبالغ أبدا إذا قلنا أن السنة – وهي أقوال العترة الطاهرة – عدل القرآن و الثقل الأكبر – كما وصفها النبي (ص) – وهي موازية للقرآن و الثقل المقابل له.

فيا ترى ماذا يحدث لو ألغينا أقوال النبي (ص) و أهل البيت عليهم السلام فهل نبلغ مراد القرآن بصورة كاملة وافية ؟ وهل يمكن لنا أن نستفيد منه بالشكل المطلوب ؟!

ربما نقع في كثير من الأخطاء، فمن اللازم أن نضم العترة إلى كتاب ا لله عز وجل وبهما يتكامل الفهم للقرآن، وتتضح الرؤية، ونصل إلى معاني ومقاصد كتاب اللّه العزيز.

ولا شك أن السنة القطعية الصدور عن النبي و أهل البيت هي عدل القرآن في شرح كلياته وتفصيل مجملاته، إلا انه يجب الحيطة في دراسة مصدرها وسندها و التثبت من صحتها وصدورها، لان الكذّابة كثرت على الرسول و أهل بيته، فالتحرز في ذلك طريق الاطمئنان و الاحتياط سبيل النجاة[2] فالسنة المطهرة هي المصدر الأول لفهم كتاب ا لله وهي الشارحة و المبينة له و الموضحة لغوامضه، ولذا ورد عن النبي (ص) **﴿الا و اني أوتيت القران و مثله معه﴾**[3]

(١) فرائد الأصول (ج١) ص٥٧

(٢) دراسات قرآنية ص٤٨

(٣) الإتقان في علوم القرآن.

وعن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين ﴿قال: إن الله طهّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن و القرآن معنا لا نفارقه ولا يفارقنا﴾[1]. وعليه فليس بيانهم للأحكام هو من قبل رواية للسنة أو حكايتها، ولا هي من نوع الاجتهاد في الرأي و الاستنباط من مصادر التشريع، بل هم أنفسهم مصدر التشريع، فقولهم سنة لا حكاية السنة.

قال الطوسي: "و اعلم أن الرواية ظاهرة في أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه و آله وعن الأئمة عليهم السلام الذين قولهم حجّة كقول النبي (ص) و إن القول بالرأي لا يجوز."[2]

وعن سدير عن أبي عبد الله في حديث ﴿و الله عندنا علم الكتاب و الله عندنا﴾.[3]

حديث هام:

أهل البيت عليهم السلام هم عدل القرآن برواية النبي (ص)، وهم أدرى بالكتاب من غيرهم، وقد اخرج ذلك الترمذي و أورده ابن الأثير وغيره من الرواة في كتبهم.

و أصرح هذه الروايات، رواية زيد بن أرقم قال: ﴿قال رسول الله (ص): إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى

---

(١) الوسائل (ج١٨) ص١٣٢
(٢) التبيان (ج١) ص٤
(٣) الوسائل (ج١٨) ص١٣٤

يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما﴾[1].

هذه الرواية أجمع عليها الشيعة و السنة، ومن خلال النظرة الخاطفة لها تبيّن لنا ارتباط الكتاب بالسنة، و إن أئمة أهل البيت قولهم هو قول النبي، ولا يوجد فرق بين قوله وقولهم، و انهم معصومون عن الخطأ ومؤيدون بأمر السماء.

ولكن عند التمعن و التدبر في هذا الحديث الشريف المبارك نستنتج عدة أمور وهي[2] :

أولاً: إن النبي قرنهم بالقرآن، وقد صرح من خلالها بعدم افتراقهم عن الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، وصدور آية مخالفة من الأئمة للكتاب تعد افتراقا عنه عمداً أم سهوا أم غفلة، و الحديث صريح بعدم الافتراق.

ثانياً: لو جاز افتراقهم عن الكتاب يعد مخالفة صريحة للقرآن، وعندها يكون صدور الذنب عنهم جائز، ولهذا جاز الكذب و العياذ بالله على رسول الله (ص) الذي اخبر عن الله سبحانه وتعالى بعدم افتراقهما.

وذلك مناف لشخص النبي (ص)، وتجويز الكذب متعمدا في مقام التبليغ هو مخل بالعصمة.

ثالثاً: قد صرح النبي (ص) كذلك إن التمسك بهم عاصم من الضلالة دائما و أبدا، وهو ما تفيده كلمة لن التأبيديه.

---

(١) جامع الأصول لإبن أثير (ج١) ص١٧٨

(٢) أسانيد هذه الرواية تجدها في المراجعات ص(٢٠-٢١)

رابعاً: إن التمسك بأحدهما لا يغني عن الآخر، و المنع من الضلالة لا يتحقق بتعاليم أهل البيت، و السير على هداهم و اقتفاء أثرهم، و السر في ذلك انهما معا. أي الكتاب و العترة يشكلان وحدة واحدة.

خامساً: يدلك الحديث على تميز أهل البيت عن غيرهم بالعلم بالشريعة وما يتصل بها، ففيهم نزل القرآن وفي بيتهم نزل الوحي فقرنهم النبي (ص) به ولقوله (ص): **﴿لا تعلموهم فانهم أعلم منكم﴾**[1].

سادساً: ملازمة العترة إلى جنب الكتاب إلى يوم يبعثون، فانهما مرتبطان في كل زمن إلى قيام الساعة، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض.

أصلان. .عدلان. . ثقلان:

ما في السنة هو بيان وشرح وافي لما في القرآن، وما فيهما جميعا ما هو إلا تلك النظم و الأحكام في المجالات المختلفة، التي تنظم حياة الإنسان مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه، ومجموع هذه العلائق تبينها السنة المطهرة من خلال كتاب الله عز وجل.

وهناك أحاديث مستفيضة تدلل على أن كل ما يقوله الأئمة عليهم السلام فإنما هو في الكتاب أو السنة. فعن سماعه عن أبي الحسن (ع) قال: قلت له كل شيء تقول به في كتاب وسنة أو تقول برأيكم قال: **﴿بل كل ما نقوله في كتاب و سنة﴾**[2].

و السنة لم تقتصر على بيان الأحكام و الشريعة و النظم الاجتماعية، بل

---

(۱) الصواعق المحرقة ص١٤٨

(٢) الإختصاص ص١٠

ذهبت إلى بيان الفلسفة و العلة و الحكمة لكل تشريع ولكل حكم، بل وذكرت التفاصيل و الشواهد لكل قصة وحدث ورد في القرآن.

فالكتاب هو أصل التشريع في الحياة، و الدستور الأوحد. الجامع لخير الدنيا و الآخرة، وهو القانون الذي ينظم العلاقة بين الله و الإنسان و الإنسان و المجتمع الذي يعيش فيه.

و السنة هي الأصل الثاني وعدل القرآن أو الثقل المقابل له، وهي التي أعطيت تلك الأهمية و الأولوية من قبل النبي (ص). بناءً على ذلك يمكن أن نوجز علاقة السنة بالكتاب من خلال النقاط التالية:-

أولاً:

أن تكون السنة موافقة لما ورد في كتاب الله عز وجل من كل وجه، ونعني بذلك أن تتفق مع الخط العام للقرآن، و القواعد الأساسية التي تحدث عنها، ومراجعة هذه الروايات من حيث الصحة سندا ومتنا، ومراعاة الظروف التاريخية التي مرت فيها الرواية.

ثانياً:

أن تكون السنة بيانا لما أريد بالقرآن، وتفسيرا له وشارحة وموضحة لمعانيه في بيان المجمل، كبيان مواقيت الصلاة وعدد ركعاتها وكيفية ركوعها وسجودها، وغير ذلك من العبادات و المعاملات و الأحكام الشرعية الأخرى التي ترتبط بالجانب الفردي أو الجانب الاجتماعي.

كما أن هناك في القرآن محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وعام وخاص، وكل ذلك بحاجة إلى بيان وتوضيح من قبل النبي (ص) و أهل بيته.

فعن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبي الحسن بمكة فقال له قائل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع.

فقال: ﴿علينا نزل قبل الناس ولنا فسر قبل أن يفسر في الناس فنحن نعلم حلاله و حرامه وناسخه و منسوخه و متفرقه و خطيره وفي أي ليلة نزلت من آية وفي مَنْ نزلت، فنحن حكماء الله في أرضه﴾[1]

ثالثاً:

السنة هي التي سمحت لنا بالاقتراب من القرآن، و أجازت لنا فهم القرآن من خلال الظواهر و التدبر فيه، ناهيك عن الآيات التي حثّت على دراسة القران لفهم آياته ﴿ لقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مّدكر﴾.[2]

﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾.[3]

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.[4]

ومن هنا وردت عند علماء الفقه و الأصول مسألة حجّية ظواهر الكتاب في أنها حجة أم لا؟ وقد بحثوها من خلال العقل، وتأييد روايات أهل البيت. لذلك فهي واضحة مادام البشر جميعهم قد تعارفوا عليها، وجرت معاملاتهم على الأخذ بظواهر الكلام، وترتيب الآثار و اللوازم عليه، فلو تخلى الناس عن ذلك لما استقام لهم التفاهم بحال، وما استطاعوا أن يتعايشوا مع بعضهم البعض.

وعصر النبي (ص) لم يكن يختلف عن بقية العصور التي سبقته حتى تكون

---

(١) الوسائل (ج١٨) ص١٤٥
(٢) سورة القمر آية ١٧
(٣) سورة الدخان آية ٥٨
(٤) سورة محمد آية ٢٤

فيه أساليب خاصة ومعقدة وبعيدة عن الافهام، و لم تكن لهم طريقة خاصة في التفاهم انفردوا بها.

ولذا نزل القرآن الكريم بلغة العرب الفصحى، وعلى طريقتهم في عرض تلك المفاهيم و الأفكار، لكي يفهمونه ويسيرون على وفقه.

و السنة حينما سمحت لنا بالاقتراب من القرآن و التدبر فيه وفهمه، اشترطت أن لا يكون بالرأي، وتحميل القرآن ما لم ينطق به، و لم يقله، و إليك هذه الروايات:

عن سليم الفرا عن رجل عن أبي عبد الله (ع) قال: ﴿ **ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن أو يكون في تعلمه**﴾.[1]

وقال رسول الله (ص): ﴿ **لا يعذّب الله قلبا وعى القرآن** ﴾.[2]

وعن النعمان بن سعد بن علي (ع) أن النبي (ص) قال: ﴿**خياركم من تعلم القرآن وعلمه** ﴾[3]

وعن الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): ﴿ **تعلموا القرآن فانه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له، أنا القرآن الذي كنت أسهرت ليلك و أظمأت هواجرك و أجففت ريقك و أسلت دمعتك ... إلى أن قال فابشر فيؤتى بتاج فيوضع على راسه ويعطى الأمان بيمينه و الخلد في الجنان يساره ويكسا حلتين ثم يقال له اقرأ و أرقا فكلما قرا آية صعد درجة ويكسا أبواه حلتان إن كانا مؤمنين لهما هذا لما علمتماه من**

---

(١) أصول الكافي (ج٢) ص ١٠٦

(٢) أمالي الطوسي (ج١) ص٥

(٣) أمالي الطوسي (ج١) ص٣٧٦

القرآن﴾.[1]

رابعاً:

الآيات القرآنية نزلت لهداية الناس للخير و الصلاح، وفي بعض الأحيان كانت للعبرة و النصيحة، كما في القصص التاريخية التي وردت في القرآن الكريم، وفي بعض الأحيان كانت أسباب خاصة لنزولها، فجاءت السنة المطهرة موضحة لها، ومبيّنة مدى ارتباطها بما جرى في عصر النبي (ص) بحادثة معينة أو جواب لسؤال ما، أو هناك أسباب أخرى، وهذا ما نسميه بأسباب النزول.

و لم نكن نستطيع أن نستفيد حق الاستفادة من معرفة حدود وطبيعة الآية وبيان مدلولها ومفهومها، خاصة إذا عرف الزمان و المكان وسائر الظروف المحيطة بالآية، لم يكن كل ذلك لولا السنة الشريفة التي بيّنت لنا هذه العلاقة بين الآية وسبب النزول.

قال ابن تيمية: " معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب" [2]

ومعرفة سبب النزول تعني الكشف عن الأحداث التاريخية، و الوقائع التي كانت سببا لنزول النص القرآني، فهناك من الآيات التي سبقت الحدث، و آيات نزلت بعد حصول الحدث التاريخي، وكان بعضها يجيب عن الملابسات ويفصح عن الأسباب. ولهذه المعرفة دور مؤثر في بيان مراد الآية وما تضمنته من أبعاد و أغراض.

---

(١) أصول الكافي (ج٢) ص٦٠٣

(٢) مباحث في علوم القرآن ص١٣٠

لنقرّب الفكرة إلى الأذهان من خلال مثال من آي الذكر الحكيم، كما في قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾**[1] إن كل شيء حلال تناوله، وهو ما احتجّ به عثمان بن مظعون وعمر بن معد يكرب حيث كانا يقولان: أن الخمر مباحة، و استندوا إلى هذه الآية، وخفي عليهما سبب النزول. في حين أن معرفة سبب النزول هو الحل الحاسم في تفسير هذه الآية، فقد جاءت جوابا لسؤال عندما حرّم اللّه الخمر هو: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم (أي الخمر)[2]. ولولا بيان سبب النزول لظل الناس يبيحون شرب الخمور، آخذين بظاهر هذه الآية، دون أن يعرفوا أنها نزلت في أولئك الذين ماتوا و لم يصلهم حكم حرمة الخمر.

فالسنة جاءت مبيّنة ورافعة للإبهام وسوء الفهم، خصوصا بعدما بعد الزمان بنا، وجهل الناس بأسباب النزول، الذي أوقعهم في الغلط وهذا الجهل.

وفي كثير من الأحيان تقوم السنة ببيان الحكمة الباعثة على تشريع ذلك الحكم من خلالها، وتوسيع دائرة الآية في كيفية تطبيقها على عصرنا الحاضر، فالاستفادة من روايات أهل البيت (ع) الصحيحة، هي التي تجعلنا نهتدي إلى معرفة الواقع، و البحث عن مصاديق لهذه الآيات، و الوقوف على المعنى المراد، وحينها نستطيع أن نطبقها على أنفسنا، ومجتمعنا، ولو أحصرت هذه الآيات في سبب النزول فقط فإنها ستموت، كما ورد في الحديث عن الإمام الباقر (ع): **﴿ ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقى من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوله على آخره مادامت السماوات و الأرض**

---

(١) سورة المائدة آية ٩٣

(٢) رالبرهان (ج١) ص٢٨

ولكل قوم يتلونها هم منها من خير أو شر﴾[1]

كيف تصف السنة القرآن:

كلام أئمة أهل البيت أبلغ أثرا و أوضح عبارة من كلامنا في وصف القرآن الكريم، فإننا مهما حاولنا أن نصف هذا الكتاب فإننا لن نرقى إلى ما وصفوه به، فانهم أهل القرآن وعندهم نزل، فهم أدرى بما فيه، فتعالوا لنرى كيف تصف العترة الطاهرة هذا الكتاب السماوي ؟

فعن النبي (ص) قال: **﴿إن أردتم عيش السعداء و موت الشهداء و النجاة يوم الحسرة و الظل يوم الحرور و الهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان ﴾.**[2]

وعنه أيضا **﴿إن هذا القرآن هو النور المبين و الحبل المتين و العروة الوثقى و الدرجة العليا و الشفاء الأشفى﴾.**[3]

وعن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام: **﴿ لله فيكم عهد قدمه إليكم وبقية استخلفها عليكم كتاب الله بينة بصائره منكشفة سرائره وبرهان متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان أتباعه ومؤيد إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج الله المنيرة ومحارمه المحرمة وفضائله المدونة وجمله الكافية و رخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة وبيناته الجليلة. ففرض الإيمان تطهيرا من الشرك و الصلاة تنزيها عن الكبر و الزكاة زيادة في الرزق و الصيام تثبيتا للإخلاص و الحج تسنية للدين و العدل تسكينا للقلوب و الطاعة نظاما للملة و الإمامة من الفرقة و الجهاد عزا للإسلام و الصبر معونة على الاستيجاب و الأمر بالمعروف مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية عن السخط وصلة الأرحام منجاة للعدد و القصاص حقنا للدماء و الوفاء للنذر تعرضا للمغفرة وتوفية**

---

(١) تفسير العياشي (ج١) ض١٠

(٢) البحار (ج٩٢) ص١٩

(٣) البحار (ج٩٢) ص ٣١

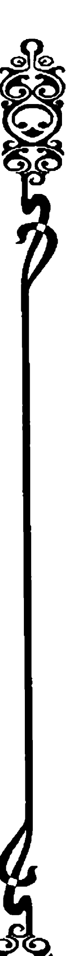
المكاييل و الموازين تغيير للبخسة و اجتناب قذف المحصنات حجبا عن اللعنة ومجانبة السرقة إيجابا للعفة و أكل أموال اليتامى إجازة من الظلم و العدل في الأحكام إيناسا للرعية وحرم الله عز وجل الشرك إخلاصا للربوبية فاتقوا الله فيما أمركم به و انتهوا عما نهاكم عنه﴾[1].

وعن مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال:﴿ ثم انزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه وسراجا لا يخبو توقده وبحرا لا يدرك قعره ومنهاجا لا يضل نهجه وشعاعا لا يظلم ضوءه وفرقانا لا يخمد برهانه وتبيانا لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشى أسقامه وعزا لا تهزم أنصاره وحقا لا تخذل أعوانه فهو معدن الإيمان وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه و أثافي الإسلام وبنيانه و أودية الحق وغيطانه وبحر لا ينزفه المستنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون ومناهل لا يغيضها الواردون ومنازل لا يضل نهجها المسافرون و أعلام لا يعمى عنها السائرون و آكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريا لعطش العلماء وربيعا لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء ونورا ليس معه ظلمة وحبلا وثيقا عروته ومعقلا منيعا ذروته وعزا لمن تولاه وسلما لمن دخله وهدى لمن ائتم به وعذرا لمن انتحله وبرهانا لمن تكلم به وشاهدا لمن خاصم به وفلجا لمن حاج به وحاملا لمن حمله ومطية لمن اعمله و آية لمن توسم وجنة لمن استلام وعلما لمن وعى وحديثا لمن روى وحاكما لمن قضى﴾.[2]

---

(١) علل الشرائع ص٢٤٨

(٢) نهج البلاغة خطبة (١٩٨) ص٣١٥



٤

القرآن سلوك يومي

* جذور المعرفة
* ممارسات وحاجات



جذور المعرفة:

يحتاج كل إنسان في الوجود إلى دعائم وركائز، لكي يستند عليها في أفكاره التي ستصبح أفعاله فيما بعد، فإن كانت هذه المرتكزات و الدعائم منذ وضع أول لبنة لحجر الأساس متينة، كانت كل أفكاره سليمة طبعاً يتبعها الأعمال، و العكس هو الصحيح.

لهذا كان حري على كل مسلم أن تنمو جذور شجرة أفكاره من القرآن، لكي تينع وتثمر في مجالها الصحيح، لأن أساسها سليم ومتين، ولا يستطيع أحد أن يقف بوجهه ويعاتبه على قول أو عمل، إلا الذين ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا**﴾[1] أو في بعض الأحيان الجهل و القصور في عدم فهم الآخرين هو السبب وراء معاداتهم و تكذيبهم للقرآن كما في قوله ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾[2] وفي الحديث الشريف ﴿**من قصر عن معرفة شيء عابه**﴾[3] و ﴿**من جهل شيئاً عابه**﴾[4] من هنا تبين لنا بأن صياغة الحياة وفق نظم عادلة ومقبولة مهمة صعبة لا يقوم بها إلا القرآن الكريم لأن هذه الصياغة لابد و أن تكون وفق قيم تتأقلم مع طبيعة الإنسان، نابعة من تلك التشريعات الصادرة من خالق هذه الطبيعة.

فالتعرف على القرآن الكريم يختلف عن التعرف على أي كتاب آخر.

معرفة العبرة هي التي يستفيد منها الإنسان، ليتدارك بها اللحظة الراهنة التي يعيشها، ويخطط من خلالها للمستقبل، ومعرفة العبرة هي التي يتحدث

---

(١)سورة البقرة آية ١٠
(٢)سورة يونس آية ٣٩
(٣) بحار الأنوار (ج٧٧) ص٤٢٠
(٤) بحار الأنوار (ج٧٨) ص٧٩

عنها القرآن، ويحرضنا على أن نعتبر من الماضي، لكي نبصر المستقبل، فهي من المسائل المهمة جداً في حركة الحياة لديموميتها وفق أطر صحيحة.

﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.[1]

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾.[2]

﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾.[3]

﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾.[4]

و أن نتعلم من القرآن لنكتشف الداء، و مواضع الخطأ، ونقاط الضعف من نقاط القوة، و أن نسد الثغرات التي خلفتها الثقافات الدخيلة و المستوردة من هنا وهناك على مجتمعنا الإسلامي عبر العقول الملوثة بتلك الأفكار السوداء.

فالارتشاف من القرآن في هذا المجال يعني أن نسد الأبواب في وجه الثقافة المنحرفة و التبريرية، التي تبعد الإنسان عن مسؤوليته، وتسلخه من دينه، وتصبغ فطرته النظيفة بألوان داكنة شتى.

فعلينا أن نتثقف بثقافة القرآن، لكشف تلك الأقنعة الزائفة المستترة تحت شعارات براقة، و أسلحة عصرية، تريد أن تمزق جسد الأمة إلى أحزاب، وقوميات و أقاليم وثقافات منحرفة، ولا يمكن ذلك إلا بعد أن نتتلمذ على ضوء القرآن، حتى يعطينا تلك المناهج و البرامج التي تترجم إلى واقع حي، لتتحول إلى حركة اجتماعية و اقتصادية وسياسية وتربوية سليمة تقودنا إلى بر

---

(١) سورة الحشر آية ٢

(٢) سورة يوسف آية ١١١

(٣) سورة النور آية ٤٤

(٤) سورة النازعات آية ٢٦

الأمان.

من منطلق العبرة و العلم نستطيع أن نجد نــوع المعرفـة، لأن القـرآن ليـس كتاباً اقتصاديا لكيفية الحصول على الثروة مثلاً، وليس كتاباً سياسـياً للوصـول عن طريقه إلى سدة الحكم أو المنصب، بل هو كتاب العبرة و العلم و العمل.

فيعتبر الإنسان لكي يصون مستقبله من الأخطاء، ويتعلم منه لكـي يحفـظ إنسانيته، ويعيش مدركـاً للأمـور في الحيـاة، بـبرامج القـرآن، وبصـائره النـيرة، وعطائه الفياض.

ويعمل به لكي يحقق كل طموحاته و آماله التي يصبو إليها.

ممارسات وحاجات:

كلما طال الزمن وبعدت بنا المسافات عن زمن النزول، كلما احتجنا إلى الكنز الإلهي اكثر، و اصبح ما وصل إلينا من نوره بصيصا ضئيلا من إشراقة الأمل، التي يجب أن تنير قلوبنا، و أن تثمر بها نفوسنا من الحب و الخير، وتتوج بمجتمعاتنا و أجيالنا القادمة بذلك النور الإلهي الوهاج.

فحاجتنا إليه لا تقتصر في أن نُودع القرآن الكريم في بيوتنا لحفظنا من الشر وجلب الخير لنا، أو نقرأه على موتانا لينوّر قبورهم، ويجلب لهم الحظ السعيد في الآخرة فقط، بل إن هذا ما هو إلا قطرة من فيض النور الإلهي.

فاحتياج البشر إليه كحاجته إلى الطعام و الشراب لديمومة حياته، بل أشد من ذلك، فالبشر إذا كانت حاجتهم إلى الطعام المادي دون الفكري الذي يغذي العقل و الروح فهم طبقا للمثال الذي يضربه سبحانه وتعالى في كتابه ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[1].

حيث لا فرق بيننا وبينهم و السبب هو الإنسان نفسه وطريقة تفكيره ومنهجه في الحياة لعدم الاستفادة من القرآن.

وهنا سؤال يطرح نفسه، ما هي نوع الحاجة ؟

و إذا كنا فعلا نحتاج للقرآن. فهل القرآن يُقوّم ممارساتنا الحياتية ويضبطها؟!

للإجابة على هذا السؤال نقول:

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٤

أولاً:

منذ أن خلق اللّه سبحانه وتعالى أبانا آدم و أمنا حواء، أعطى لهم الحرية في تناول ما لذ وطاب باستثناء شجرة واحدة، وهذا يعني، ينبغي عليهم الالتزام بالقانون الإلهي، و لم يفرض عليهم مجموعة من القوانين، بل اكتفى بقانون واحد ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ [1]. ولكن بعد خطيئته ونزوله إلى الأرض، وبتوالد البشر وتكاثرهم عبر الدهور، تعقّدت حياتهم، و اصبح لزاما على الإنسان أن يكون جماعات ومن ثم مجتمعات و أمم، ولابد من وجود ضوابط وقوانين، تحمي حقوقهم، وترتب عليهم واجبات تجاه أنفسهم وتجاه المجتمعات الأخرى.

ولهذا لم يترك الله عز وجل البشر يتخبطون فيما بينهم بالنظم الوضعية، بل توالت الكتب السماوية عليهم، و انزل الأنبياء و الرسل (ع)، وكان آخرهم القرآن الكريم على خاتم الأنبياء محمد (ص).

لأنه مهما حاول الإنسان أن يستخدم كل طاقاته الفكرية و إمكانياته المادية فلن يستطيع أن يتوصل إلى ذرة من الفيض الإلهي.

فلقد مرّت البشرية بمراحل متعددة وهي في كل يوم تطالعنا بقانون جديد، الهدف من ذلك هو ضبط الإنسان، سلوكا ومنهجا، فردا ومجتمعا في قنوات معينة، وعبر قوانين محدودة، و لم تكن تنجح إلا في حدود ما وافق الشريعة السماوية، أو ما كان مستلهما من رؤى الدين وبصائره، وموافقا هدى العقل.

فعلاً الدين رسالة السماء، لا تلغي كل قانون يضعه الإنسان فيما إذا كان

---

(١) سورة البقرة آية ٣٥

موافقا للعقل، و الشرائع السماوية، ولا يجوز تشريع قانون إن لم يكن موافقا لشريعة اللّه.

إذا لا بد من قانون ولن يكون إلا من القرآن الكريم. وهل هناك أفضل من قانون الله وبرنامجه ؟!

أليس خالق البشر اعرف بما يصلح للبشر ؟!

"ثم أن كل قانون عدا قوانين الله سبحانه ليس صالحا، إذ القانون يجب أن يكون ملائما للإنسان، ولا يتمكن من وضع القوانين الملائمة للإنسان، إلا من عرف الإنسان و البشر، ومن لم يعرف الإنسان لا يتمكن أن يضع قانونا ملائما له"[1].

خالق الإنسان هو الله سبحانه وتعالى، وقد أودعه فطرة، و أعطاه عقلا، ومنحه إرادة، ثم جعله خليفة على الأرض بدلا من الملائكة التي اعترضت عليه، و هل يعقل أن يكون هذا القلق على الأرض من قبل الملائكة دون أن يبعث اللّه قانونا يتمثل في الرسول و الكتاب.

كما انه لا يعقل لهذا المخلوق الضعيف ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾[2] أن يصنع من ضعفه قانونا لضعيف مثله ذا ميول وهوى ورغبات.

لأن الإنسان المقنن مهما كان عالما، وذا خبرة ونزيها، وحرا في تصرفاته، فانه لا يستطيع أن يخرج من الظروف المحيطة به، و التقاليد الموروثة، و العادات المتعارفة، و الأهواء التي تضغط عليه من الداخل، فقانونه قد يكون خاص به فقط.

---

(١) الفقه حول القرآن الكريم (ج٩٨) ص١١٠

(٢) سورة الروم آية ٥٤

وكيف يمكن أن يجبر الإنسان أخاه الإنسان على الالـتزام بمـا يرتضيـه هـو لغيره، باعتبار انه مخلوق مثله ؟

إذا لا يستطيع هذا الإنسان أن يلزم غيره بالمواثيق، والعهـود الـتي يأخذهـا على نفسه بهذا الاعتبار، فلا تنتظم الحيـاة، وبالتـالي لا يرتقـي المجتمـع لفقـدان الضوابط، و القوانين الملزمة له.

ثانياً:

لقد اختلف البشر في الحاجـة إلى القـانون، و أهميـة تطبيقـه فيمـا بينهـم، فمنهم من تشدد في فرضه عنوة على الناس، ومثال ذلك الملك حمورابي المتمثل قانونه في شريعته المسماة بشريعة حمورابي. ومنهم من تجـاهل دور القـانون إلى درجة اصبح قـانون الغـاب هـو الحـاكم بينهـم، كمـا في عـرب الجاهليـة قبـل الإسلام، حيث كانت لديهم حـروب كثـيرة تـأكل أبنـاءهم، كمـا في حـرب داحس و الغبراء وحرب البسوس و... الخ. فلو كانوا يعرفون القـانون السـليم لما نسف بعضهم بعضا.

"ولقد اهتم العلماء في تعريف القانون، بأنه انعكاس من التجارب منطلقين من مدرسة التجربة.

ومنهم من قال: إن مستند القانون شئ من العدالة و التجربة.

أما القسم الآخر عرّف القوانـين انعكـاس عـن العـرف و العـادة منطلقـين مـن مدرسة الاجتماع" (١)

و نحن نعرّفه بإسـلوب ابسـط و اشمـل، بأنـه نـوع مـن الإلـزام. و الإلـزام

---

(١) راجع الفقه الحقوق للإمام الشيرازي ص٢٢

وحده لا يكفي دون أن تكون له خلفية وبرنامج وخطة، ترشد الإنسان وتوجهه في الحياة، وتبين له الهدف من وجوده، وما هو مصيره، وذلك ما تكفلت به برامج السماء عبر الكتاب كتاب الله المجيد.

قوانين الدين و الشريعة التي جاء بها القرآن، وشرحتها روايات أهل البيت، هي ليست قوانين مجردة جوفاء لا روح فيها، فهي تتحرك مع الفرد حينما ينقاد لها ويتبع القرآن، فلا يكون كالأعمى حيث يقاد إلى أمر دون أن يبصره، وقد يكون فيه حتفه.

فهناك ثقافة خاصة للقانون قد تكفل القران بها. فعلى المسلم أن يؤمن بكتاب الله حتى يستطيع أن يطبق ما فيه، و أن يتعرف على مدى أهمية الالتزام به كي لا يتهرب منه.

فالدين حينما يضع قانونا للجريمة، فهو إنما يمنع الجريمة قبل وقوعها ببرنامج معد سلفا، فلا يتفاجأ الإنسان حين تنفيذ القانون. ولذا نلاحظ أن كثير من الحدود تُدرأ بالشبهات، التي تأسست عليها قاعدة يُعمل بها في القضاء الإسلامي، وهي قاعدة ((الحدود تدرأ بالشبهات)). فبمجرد الشُبه يتوقف التنفيذ للقانون، فكيف إذا لم يكن لديه معرفة بالقانون، أو بالحكم، و لم يستطع أن يطلع عليه إما قاصراً أو مقصراً، على تفصيل عند الفقهاء في ذلك لسنا بصدده (تراجع في ذلك الكتب المختصة بالموضوع)، ولكن يمكن أن ندلل على ما نقول بالرواية التالية: عن أبي عبد الله (ع) قال: ((شرب رجل على عهد أبي بكر خمرا فرفع إلى أبي بكر فقال: له أشربت خمرا ؟

قال: نعم

قال: لِمَ وهي محرمة ؟

قال: فقال له الرجل إني أسلمت وحسن إسلامي ومنزلي بين ظهراني قوم يشربون الخمر ويستحلون ولو علمت إنها حرام اجتنبتها. فالتفت أبو بكر إلى عمر فقال: ما تقول في أمر هذا الرجل ؟

قال عمر: معضلة ليس لها إلا أبو الحسن.

فقال أبو بكر: ادع لنا علياً.

فقال عمر: يؤتى الحكم في بيته فقاما، و الرجل معهما، ومن حضرهما من الناس، حتى أتوا أمير المؤمنين (ع) فاخبراه بقصة الرجل وقص الرجل قصته.

فقال (ع): ابعثوا معه من يدور به على مجالس المهاجرين و الأنصار من كان تلا عليه آية التحريم فليشهد عليه.

ففعلوا ذلك فلم يشهد عليه أحد قرا عليه آية التحريم.

فخلى عنه وقال له: إن شربت بعدها أقمنا عليك الحد[1].

العقوبات و أحكامها هي جزء من النظام الاجتماعي الذي يسود الناس، حتى يأمنوا من خلاله على أنفسهم و أرواحهم، وتتوفر لهم الحرية و الاستقرار من جرّاء تطبيقه، فهي ليست بمجرد قوانين للردع فقط، بل هي أوامر الشريعة جاءت لتهذيب النفوس، وصقل الشخصيات، لتتوافق مع تعاليم القرآن.

و مرتكب المعصية أيضا أو الجريمة لا يجوز عقابه، ولا حكم على من لا يعرف الحكم، هذا ما كان يقوله الإمام علي (ع): فقد رفعت امرأة إلى عمر بن الخطاب قد زنت، فسألها عن ذلك، فقالت في يسر: ﴿نعم يا أمير المؤمنين وأعادت ذلك وأيدته كأنها لم تقترف ذنبا، وعلي يسمع ويتأمل،

---

(1) التهذيب (ج١٠) ص٩٤

فقال علي عليه السلام: إنها لتستهل به استهلال من لا يعلم انه حرام. فأعلمها بحرمة الزنا ودرأ عنها الحد﴾.[1]

ثالثاً:

لتوجيه البشر إلى طريق الصلاح والخير، فقد يضيع الإنسان في خِضم هذه الحياة فيحتاج إلى المرشد والموجه، وخير مرشد هو القرآن. يقول ربنا ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾.[2]

في بعض الأحيان يفقد الإنسان صوابه، ولا يعرف أين الطريق السليم، فيكون القرآن هو الموجه والوسيلة التي يسلكها، وينتهجها في حياته، لتحقيق السعادة والنجاح.

فهو أقرب طريق موصل إلى الله سبحانه في معرفة التزاماته، وقوانينه، وهو وسيلة، لأنه طريق موصل إلى أهداف سامية، يريد الإنسان من الوصول إليها أن ينال رضا الله في الدنيا من خلال تحقيقها، والفوز بالجنة في دار البقاء.

إذا معرفة الخير من الشر، والحسن من القبيح، هي إحدى اهتمامات البشر، للوصول بمعرفتها إلى الغايات النبيلة، والمعارف السامية، والحقيقة القرآنية قد كملت في هذا المجال، لتكون بمثابة العطاء التام والكامل لهم، فما على الإنسان المسلم إلا أن يتوجه إلى مصدر الخير وهو القرآن، فيرتشف منه معاني العلم والمعرفة والنهضة العملية، بل وكل وسائل الصلاح، التي مصدرها كتاب الله، الذي هو خير للإنسانية، ومنبع قوة المسلمين، وعزتهم، وهو حبل الله المتين.

فهو عهد من الله إلى البشرية وميثاقه إليهم، كما قال الإمام الصادق(ع):

---

(١) أخلاقيات أمير المؤمنين ص٩٤

(٢) سورة آل عمران آية١٣٨

﴿القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده وان يقرأ منه في كل يوم خمسين آية﴾.[1]

والقرآن ليس عهدا فقط أو مصدراً للخير و إنما هو المقياس الذي تقاس به صحة القوانين، وسلامتها، ومدى توافقها للفطرة الإنسانية والعقل، وكذلك الأحكام والاجتهادات، بل وكل الجهود الفكرية والنشاط العلمي الذي يقرره الإنسان، وتنتجه ممارسات العلماء والمجتهدين والمفكرين والباحثين الإسلاميين. يقول سبحانه: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾.[2]

رابعاً:

التكاملية ضرورة في الحياة، لا يستطيع أحد من البشر مهما حاول الوصول إلى التكاملية إلا أن يبقى عاجزا عن تحقيق حلمه الأزلي.

لهذا نرى أن القانون البشري أو ما نسميه بالوضعي رغم كل الجهود المبذولة، فهو خالٍ من الدقة وغير كامل، وما يطرأ عليه من تغيير أو إلغاء أو محاولة ترميم ثغرات النقص المتعفنة فيه، خير دليل على عدم صلاحيته للبشرية.

بينما كتاب الله لا نقص فيه، فهو بيان لكل شيء كما في قوله تعالى: ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾.[3]

فهو من عند خالق البشر لكل البشر في كل مكان وزمان ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾.[4]

فوحدة المصدر ووحدة التناسق وشموليته للبشر وصلاحيته للزمان والمكان، دلالة واضحة على انه بيان كامل مفصل فيه كل شيء، قال سبحانه:

---

(١) البيان لخوئي ص٢٥
(٢) سورة النساء آية ٥٩
(٣) سورة الإسراء آية ٨٩
(٤) سورة النساء آية ٨٢

﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾.[1]

والنظرة إلى القرآن يجب أن تكون نظرة متكاملة أيضا، بملاحظة جميع الأبعاد، دون أن ننظر إلى الآيات منفصلة بعضها عن بعض ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾.[2]

هناك من يختار الآيات التي تناسب هواه ومستوى تفكيره دون النظر إلى الآيات الأخرى وكأن القرآن مجزأ إلى أقسام كل حسب هواه، يأخذ الآيات التي تتحدث عن الطبيعة دون الإنسان، أو الإنسان دون علاقاته مع المجتمع، أو الآيات التي تتحدث عن الحكومة والاقتصاد والسياسة، ولا يقترب من الآيات التي تتحدث عن القيامة والجنة والنار.

في حين عليه أن يعتبر القرآن وحدة واحدة، ورؤى وبصائر مترابطة مع بعضها البعض، لأنه أمر غيبي جاء من خالق البشرية، ولكي لا نكون مصداق الآية التي تقول ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾.[3] أي فرقوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه عن قتاده قال آمنوا بما وافق دينهم وكفروا بما خالف دينهم.[4]

---

(١) سورة هود آية ١

(٢) سورة البقرة آية ٨٥

(٣) سورة الحجر آية ٩١

(٤) مجمع البيان (ج٥-٦) ص٥٣١



٥

القرآن وعلاج أمراضنا

* كيف نمرض ؟
* العيادة القرآنية
* القرآن شفاء ورحمة
* القلب .. الروح .. العقل
* القرآن والأبدان





كيف نمرض:-

المريض يحتاج إلى شفاء ورحمة، والشفاء يتمثل في استخدام العقاقير الطبية التي يصفها له الطبيب، وأما الرحمة فلأن المريض قد تعطلت كل طاقاته وقدراته فهو لا يمتلك القدرة البدنية والنفسية على مجابهة الحياة.

المرض قد يكون في البدن، كما أنه قد يكون في القلب والنفس وينعكس ذلك على المجتمع بشكل مباشر.

كيف يمرض القلب وكيف يمرض المجتمع؟

حينما يذاع نبأ انتشار جرثومة مرض ما، فإن الجميع يهرع إلى السؤال عن طرق الوقاية خشية الإصابة بهذا المرض، وقد يبالغ الفرد من شدة خوفه في تجنب طرق العدوى لهذا الوباء.

وفي حال الإصابة به سيكون سعيه نحو الطريقة الفضلى في كيفية العلاج، والشفاء التام منه، حتى لو كلفه ذلك إمكانيات مادية ضخمة.

هذا في حالة كون المرض عضوي، أما في حالة كون الفيروس يصيب النفس والقلب، فإن علاجه وطرق الوقاية تكون اصعب بكثير، لأن مجاهدة النفس صعبة، وعلاجها يتطلب المزيد من الجهد والوقت. و في حديث للإمام علي (ع) **﴿إن هذه النفس لأمارة بالسوء، فمن أهملها جمحت به إلى المآثم﴾**[1] ويبدأ المرض عند ارتكاب أول معصية للفرد، فتلك تكون بوابة الانحراف للحياة المستقيمة، وللفطرة السليمة، فتسبب نتائج سيئة لنفسه ولمجتمعه، فالذي يشرب الخمر، والذي يقامر، والذي يزني، ويرتكب الموبقات، يسبب لنفسه حياة

---

(١) غرر الحكم

مليئة بالمشاكل الصحية والنفسية والاجتماعية.

والمنحرف يتصور أنه يضر نفسه فقط أو كما يدّعي البعض أنها مرحلة وتزول، بل إن حاضره ومستقبله في خطر، وينعكس ذلك على الجيل القادم، الذي يتأثر بسلبيات الماضي، وتلعب عوامل الوراثة دورا كبيرا إلى جانب تلك المخلفات السلبية السيئة التي خلفها في المجتمع، فلا هو ربح الدنيا **﴿و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾**[١] ولا الآخرة **﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾**.[٢]

إذا الفرد هنا يكون أداة هدم في المجتمع، ووسيلة تخريب، لأنه بمعاصيه لا يضر نفسه، وإنما يضر بمجتمعه أيضا، ولا يستطيع أن يبني ما هدمه، مادام في غيه مستمر. وفي الحديث للأمام علي (ع) **﴿ كيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه﴾ و ﴿كيف يهدي غيره من يضل نفسه﴾﴿ كيف ينصح غيره من يغش نفسه﴾**.[٣]

أليس ما يحدث اليوم من تصرف على الصعيد الاجتماعي والسياسي حيث الفقر والجوع والحروب وتلوث البيئة، وما يستتبع ذلك من فساد، و إزهاق للنفس البريئة، كموت الأطفال في العالم اليوم، وزيادة الأمراض، وانتشار الأوبئة، نتيجة حتمية لذلك. فعالم اليوم لا يتصف بالحكمة ولا العقلنة، لأنه فقد الموازين، بابتعاده عن القيم الربانية، وهو نوع من السفاهة والمرض النفسي، حيث أنه مخالفة لأدنى و ابسط قواعد الحياة والفطرة والعقل. ففي رواية **﴿أن رسول الله (ص) رأى إنسانا يتصرف تصرفاً سيئاً، فقال من هذا قالوا: هو مجنون فقال الرسول (ص) ليس هذا بمجنون بل هو مبتلى، قالوا: فمن المجنون**

---

(١) سورة طه آية ١٢٤
(٢) سورة طه آية ١٢٤
(٣) غرر الحكم

يا رسول الله، قال: المجنون الذي يعصي الله﴾.[1]

إذا من الواضح أن الأمر لا يحتاج إلا أن ننظر إلى علامات وملامح المرض في مجتمعنا، فقد ظهرت من خلال التدني وظهور النواقص ومشاهدة حالة التفسخ من الدين، والارتباط بالثقافات الأخرى، والتيارات البعيدة عن روح البرامج السماوية.

فمادام الأمر كذلك فكيف يكون العلاج والخلاص للعالم لا لأمة الإسلام فقط؟

---

(١) الصياغة الجديدة ص١٨

العبادة القرآنية:

عالج القرآن الجذور الأساسية للانحراف، ليستطيع أن يبنى الأسس الكفيلة لسعادة الإنسان، وعمارة الأرض، ببناء الأساس الأول وهو الأيمان بخالق هذا الكون، ثم دعوة القرآن إلى الأيمان بالنبي المرسل، ومن بعث من قبله، والإيمان بالقرآن نفسه وبما قبله من كتب جاءت للبشرية.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله سبحانه وتعالى: **﴿والمؤمنون كل آمن با لله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا و أطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير﴾**.[1]

وفي مقابل ذلك فأن عدم التوجيه إلى هذه الفكرة والكفر بها، يعني هدم الأساس الأول والقاعدة الرصينة التي يقوم عليها بناء المجتمع، وبالتالي ضلاله وانهياره. فيقول ربنا سبحانه وتعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا، آمنوا با لله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾**.[2]

الإيمان با لله هو المبعث الأول لانطلاقة المسلم في الحياة، فالقرآن الكريم أوجد في المسلمين الروح المعنوية العالية، التي تتحلى بالأخلاق الرفيعة والنفسية الطيبة، التي كانت وراء سعادتهم في الدنيا، حينما كانوا ملتزمين بكتاب ا لله عز وجل **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾**[3] أي عند ما كنتم مطبقين لهذا الكتاب. ولكن حينما تخلى المسلمون عن كتاب ا لله، فلم يكونوا كما كانوا سادة في العالم. فلو أردنا الحياة السعيدة في الدنيا، والمجتمع السليم الخالي من

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٢) سورة النساء آية ١٣٦

(٣) سورة آل عمران آية ١١٠

الأمراض والمشاكل، والبعيد عن الويلات والأخطار، بإقامة كتاب الله، الـذي يتجلى فيه الأيمان بالله واليوم الآخر. حيث يقول سبحانه وتعـالى: **﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾**.[1] ما لم تتوفر العناصر والمقومات السليمة النابعة من القرآن وتتهيأ الأرضية الصالحة لذلك، لن ينجح المجتمع في الوصول إلى قمة السعادة، والخطوة الأولى في ذلك هي التربية القرآنية في التقرب إلى كتاب الله، لمحاولة التطبيق العملي له، التي تتخذ أشكالها التنفيذية على الصعيد الفردي و الاجتماعي، أو على صعيد المؤسسات الشعبية أو الأجهزة الحكومية في جعل الممارسات منطلقة من القرآن، مثل ما ورد أن أعرابيا جاء إلى رسول الله (ص) وشهد الشهادتين واسلم ثم قال: يا رسول الله ما هو تكليفي الآن؟ فقال النبي (ص): في جملة ما قال تعلّم القرآن.

فأخذ أحد المسلمين يعلمه سورة الزلزلة وقرأ عليه **﴿بسم الله الرحمن الرحيم، إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان ما لها، يومئذ تحدث اخبارها، بأن ربك أوحى لها، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾**.[2] فقام الأعرابي يريد الانصراف فقال له المعلم المسلم: اصبر حتى أعلمك بعض السور الأخر.

فقال الأعرابي: كفاني ذلك.

فقال: كيف؟

قال: أني لم أكن أحتاج إلى كل هذه السورة حتى أستقيم في طريق الإسلام، بل تكفيني آيتان فقط، قوله سبحانه **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل**

---

(١) سورة المائدة آية ٦٦

(٢) سورة الزلزلة آية (١-٨)

مثقال ذرة شرا يره ﴾ فأني علمت أن الإسلام في هاتين الكلمتين.[1]

فالعلاج في القرآن يتمثل في تطبيقه، وجعله الانطلاقة في الحياة والمبدأ هـو كتاب الله عز وجل، فحينها نسعد في الدنيا والآخرة، ومن هنا علينا أن نحـول القرآن إلى مدرسة كبيرة واسعة مترامية الأطراف، تسـع البشـرية كلهـا، حتـى نستطيع أن نفهم كتاب الله ونفسره التفسير الصحيح.

القرآن كتاب الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجا وسلوكا نرجع إليه، فتظـل قيمه وبصائره عالية تشرق على الإنسانية، مادامت تسعى إليه، وتستنير بهديه.

وليس يعوزنا إلا تلك العقلية المنفتحة على القرآن، الـتي تحـول المنـاهج إلى سلوك عملي، والشريعة إلى أحكام التراميـة، والقيـم والبصـائر إلى واقـع حـي، ومراكز توجيه للبحث والدراسة والتنقيب في آيات كتـاب الله، لكـي تـترجم إلى عمل.

---

(١) الصياغة الجديدة ص٤٢٨

القرآن شفاء ورحمة:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾.[1]

كيف يكون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين؟

الشفاء هو نتيجة العلاج، لأنه الحاصل بعد الدواء وهو سبب للرحمة.

تعاليم القرآن هي الدواء الناجع لشفاء الإنسان، باعتبارها طريق إلى الهداية، فلها آثارها الطيبة والحسنة على مسيرة الإنسان.

عن النبي (ص): ﴿عليكم بالقرآن فأنه الشفاء النافع والدواء المبارك﴾.[2]

ويقول ربنا سبحانه: ﴿ قل هو الذين آمنوا هدى وشفاء﴾.[3]

فالذي يتعافى ترى آثار المعافاة على بدنه ونفسه، والشفاء الذي يتحدث عنه القرآن نتيجة الالتزام بتعاليمه، هو عودة الروح إلى الحياة من جديد نتيجة الأثر الحاصل، فليست المعافاة مرتبطة بالجسد بل بالنفس والمجتمع والأمة.

والمرض هو ليس المرض الجسدي فقط، بل هناك أمراض اقتصادية وسياسية واجتماعية وتربوية، ولو كانت جسدية فقط لنهض المجتمع من أزماته، وتخلص من جميع مشاكله، مع أن الأمراض البدنية علاجها أيضا بعلاج الروح، فالذي ينهض بالإنسان روحه وقلبه وليس بدنه فقط. قال سبحانه وتعالى: ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾.[4]

والعلم هو غذاء الروح في الجسم، وهو الشفاء الذي يتمثل في تعاليم

---

(١) سورة الإسراء آية٨٢

(٢) البحار (ج٩٢)ص٣١

(٣) سورة فصلت آية ٤٤

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٧

القرآن الحقة، أليس المجتمع المريض حتى يتعافى من أمراضه الاجتماعية بحاجة إلى إرشاد وتوجيه!

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن القرآن: **﴿فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأونكم فأن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال﴾**.[1]

فالقرآن كتاب الهداية للإنسان، كما أنه كتاب الحقوق والواجبات، التي توجهه نحو السلوك العام في مجتمعه على الأسس السليمة، وهذه بدورها تهدف إلى تربيته، وتنزيه العقل والعقيدة من الخرافة والجهل، وإلى إصلاحه بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولكن تحقيق السعادة التامة لا تكون بالشفاء وحده، لأن الإنسان المريض بحاجة إلى الرحمة والعطف.

فحينما يرفع عنه المشاكل، ويبتعد عن الأخطار بمعرفة الحلال من الحرام، ومعالجة الأوضاع الفاسدة، التي لا تلتقي مع أحكام القرآن ومبادئه، فأنه يرفع عنه جانب العذاب والألم والشقاء، ويمنع حدوث الفتن والحروب، ولكنه لا يحصل على تلك السعادة الكاملة إلا عندما تحصل له السكينة، والاستقرار والاطمئنان، ببلوغ غاياته النبيلة، وأهدافه السامية، وذلك بتحصيل الرحمة التي تتبع الشفاء. والرحمة في قدرة هذا الإنسان على استخدام طاقاته وإمكانياته من أجل تسخير النعمة التي أودعها الله له في هذا الكون.

وتتجلى الرحمة في الموعظة والهدى والرشاد، فهي إذا إفاضة منه سبحانه وتعالى ليتم النقص بها عند الإنسان، وترتفع بها الحاجة، ولا يتم ذلك إلا بنور

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج٢) ص٩١

القرآن، فإنه السبيل الوحيد للنجاة في الدنيا والآخرة، لأنه بنور القلوب بنور الأيمان واليقين والعلم، بعدما يرفع عنها غشاوة الجهل والشك والعمى والريب، فيتضح له طريق الهدى من الضلالة، يقول مولانا أمير المؤمنين (ع) عن القرآن **﴿إنه هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ الدنيا إلى الآخرة وفيه كمال دينكم﴾**.[1]

(١) نهج البلاغة خطبة ١٩٣

القلب .. الروح .. العقل:

هذه الثلاثية تعبر في حقيقتها عن الجانب المعنوي، وهـذا يعنـى أن المقيـاس في شخصية الإنسان هو الجانب المعنوي، الـذي يحـدد أبعادهـا وليـس الجـانب المادي. فبقوة نفسيته ومـدى صلابتهـا وتحديهـا ومقاومتهـا تصبـح شـخصيته قادرة على تجاوز السلبيات وتصحيح الأخطاء.

فالقلب الذي يشكل مصدر الحياة، وهو مركزها، حيث تبدأ المشكلة منـه وتنتهي إليه. حينما يضيـق صـدر الإنسـان الـذي يحـوي هـذا العضـو اللطيـف فتكون حينها الموعظة هي الحل لهذا الإنسان؛ ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**يـا أيها النـاس قـد جاءتكم موعظـة مـن ربكـم وشـفاء لما في الصـدور وهـدى ورحمـة للمؤمنين**﴾.[1]

وعند انشراح الصدر تنتهي المشكلة، فيتفتح القلب بالموعظة ونور الأيمان، ولذا وجه الله عز وجل خطابه إلى النبي (ص) بقولـه: ﴿**ألم نشـرح لـك صـدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك**﴾.[2]

فقد شرح الله قلب النبي بالأيمان حتى يتسع لمواجهة المشاكل والصعـاب، ويستطيع أن يواجه أكبر التحديات. فحينما يكون القلب طاهرا نقيا. بعيدا عن وساوس الشيطان. خاليا من رواسب ومخلفات الشـك، دون أن تعشـعش فيـه الأحقاد والضغائن والحسد و الظنون، وليس فيه مكانا للخداع الذاتي والتبرير، حينها يكون هذا القلب قد انفتح على القرآن وانشرح بالإيمان.

وبهذه الروح الشفافية اللطيفة التي هي من روح الله﴿**فـإذا سـويته ونفخـت**

---

(١) سورة يونس آية ٥٧

(٢) سورة الإنشراح آية (١-٣)

من روحي فقعوا له ساجدين﴾. [1]

وقبل أن تكون في الأبدان، كانت في ملكوته الأعلى في أرفع محل، فشرّف الله الأبدان بها، وتشرّف الإنسان بهذه الروح الملكوتية، فحطت بالبدن بأمر القدرة الربانية فكمل الإنسان بها، فهي تمثل الجانب الإيجابي في حياته، فيكون العلم والعقل والحكمة و الإيمان واليقين والطمأنينة منها، والبدن بدون الروح لا قيمة له فانه يحيا بها، والذي يحي هذه الروح ويجعلها حية في هذا البدن، مادامت على اتصال دائم بالرب عبر كتابه العزيز وتعاليم قرآنه المجيد، كما أن القرآن لا يعمل على صياغة وبناء الإنسان الخالي من الروح فلا يكون شفاء له بدونها.

والعقل يتحرك في الداخل، حينما تتوقف نوازع الشر في النفس وعقدها وضغوط الشهوة ليخترق حجب الجهل والغرور والخرافة والضلال بإزالتها عبر القرآن.

فبين الإنسان ومعرفة الحقائق مجموعة حواجز، تكون حائلا لتقف أمام تفكير الإنسان، وتعطل هذه الطاقة، فيأتي دور القرآن في إثارة العقل، وهذا الضمير، لكي يتخلص من هذه الحجب والحواجز.

والقرآن في هذا المجال قد أشار إلى إنسانية الإنسان حينما أودع هذه النعمة الكبيرة ألا وهى نعمة العقل. عن هشام بن الحكم قال: قال إلى أبو الحسن موسى بن جعفر(ع) **﴿يا هشام إن الله بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله**

---

(1) سورة الحجر آية ٢٩

وأولئك هم أولو الألباب﴾[1] ﴾[2] بشرهم رب العزة لأنه هداهم إلى الشرائع المفصلة، لتنمية المواهب الخيرة عن طريق استخدام عقولهم في إتباع الأحسن بعد تطهير النفس، برفع تلك الحجب والحواجز، إذ يعالج القرآن تفكير الإنسان لكي لا يقع في الأخطاء المنهجية لفهم الحقائق حينما يقدم له المنهج الصحيح.



(١) سورة الزمر آية (١٧-١٨)

(٢) الصياغة الجديدة ص٣٠٢

القرآن و الأبدان:

هناك نظرة سائدة لدى المجتمعات الإسلامية في الاستشفاء بالقرآن الكريم، وبآياته من الأمراض والأسقام التي تصيب الإنسان في الحياة.

صحيح أن للكتب السماوية باعتبارها صادرة من الله عن طريق الوحي للأنبياء، لمسات روحية تختلف في محتواها ومضمونها عن أي كتاب آخر. فقراءة القرآن وحدها تضفي على الإنسان حالة الهدوء والاطمئنان لأنها قراءة كتاب الرب إلى العبد. ألا ترتاح النفس المخلوقة الضعيفة بتوجيهات الخالق الرحيم بعباده، الرءوف عليهم!.

ولكن من الصحيح أيضا أن لا يتحول القرآن إلى مجرد آيات تتلى على المرضى للاستشفاء بها، وهذا ما يفقد القرآن دوره الحقيقي، ويعطله عن العطاء المتكامل الفياض بالدروس والعبر. فللقرآن أفق واسع وأبعاد كبيرة وأهداف سامية، فهو الذي صنع تاريخ الأمة الإسلامية، وضم شعوبها تحت راية التوحيد، وكرم الإنسان وحمّله مسئولية خلافة الأرض. فإذا كان القرآن كذلك فهل نحصر دوره في اللجوء إليه حين المرض فقط؟ وإذا كان الجواب لا، فكيف نوفق بين الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) بالاستشفاء ببعض آيات القرآن وبين عدم حصر القرآن في هذه الفكرة إعطاءه دور أكبر من ذلك؟!

إن القرآن يقدم مجموعة من النصائح والقوانين والإرشادات للحفاظ على البدن والنفس معا.

"فالقرآن يؤكد على ضرورة النظافة والطهارة والوقاية من الأمراض، ويقدم للإنسان البرامج الصحية التي يصح بها البدن، و يكون الشفاء فيها

للجسد، وهذا ما توحيه كلمة الطهارة التي تكررت في القـرآن بصيـغ مختلفـة، بمعنى النظافة والنزاهة، يقول صاحب الميزان: أن النظافـة هـي الطهـارة العـائدة إلى الشيء بعد قذارة سابقة ويختص استعمالها بالمحسوسات"[1]

فظاهر الحياة مبنيّ على أساس التعامل والتصرف المادي، فكما يجب تطهير الروح و النفس مما يدنسها، وكما للروح لباس ـ وهو لباس التقوى ـ فللجسم ثياب يجب تطهيرها، تنزيها للظاهر. وتطهير الثيـاب يعنـى رفـع القـذارة عنهـا بمراعاة القواعد الصحية العامة، كي لا تتعرض للأدناس، وهي من المظاهر الـتي تدل على نظافة المسلم أمام غيره، ولذا أمر سبحانه وتعالى نبيـه الكريـم حيـث خاطبه بقوله ﴿**وثيابك فطهر**﴾[2] أي وثيابك فأغسلها عـن النجاسـة بالمـاء لأن المشركين لا يتطهرون. عن ابن زيد و ابن سيرين[3] وروى أبو بصير عن أبـي عبد الله (ع) قال أمير المؤمنين (ع): ﴿**غسل الثياب يذهب الهم والحزن وهو طهـور للصـلاة وتشـمير الثيـاب طهـور لها وقـد قـال الله سـبحانه وتعـالى وثيـابك فطهــر أي فشمر**﴾[4]

فلا تتعرض للأدناس فيكون اللباس دائما نظيفا لا يحمـل قـذارة. فـالقرآن شفاء للبدن إذ يزيل بتعاليمه الحقة وبرامجه السليمة ومواعظـه الشـافية كـل مـا يسبب المرض والعاهة.

فعلى الإنسان أن يتعلـم مـا يقـوي البنيـة الجسـمانية، ويجعلهـا بعيـدة عـن الموانع المضادة للسعادة. كذلك يؤكد القرآن على مجموعـة مفـاهيم ضروريـة

---

(١) الميزان (ج٢) ٢٠٩

(٢) سورة المدثر آية ٤

(٣) مجمع البيان (ج١٠) ص ٥٨٠

(٤) مجمع البيان (ج١٠) ص ٥٨٠

تساعد على رفع الاضطراب، والخوف من المستقبل، والقلق النفسي التي تسبب له أمراضا عضوية نتيجة وجودها فحثه على النشاط والعمل، ورفع الكسل والتواني. ودعاه إلى تنظيم حياته الاقتصادية بتوفير وسائل العيش. والجوانب الصحية ليجنبه الأمراض النفسية والبدنية. كما ودعاه إلى منهج الحياة الاجتماعية وفق النظم الإسلامية، حينما يبعده عن حالة الفراغ، فلا يدعه يعيش حالة التوتر في حاضره حتى ينعم بمستقبله.

كما ووضع له برامج صحية، بينها لنا أئمة أهل البيت من خلال فهمهم لآيات كتاب الله في طريقة المأكل والمشرب والملبس وأعداد الطعام وتجنب الأكل المضر. كل ذلك قد ذكر مفصلا في كتب المستحبات. فإذا فهمنا أن القرآن شفاء للبدن بهذه الكيفية، يمكن أن نقول بعد ذلك. عندما يصاب أحدنا بأي مرض من الأمراض فيقرأ على المرض آية من سور الذكر الحكيم فيشفى، أو يتداوى بالقرآن، فأننا حينها قد فهمنا حيوية القرآن، فبمجرد النية الصادقة المخلصة في قراءة آية على المرض يشفى الإنسان من مرضه، ويمن الله عليه بالعافية.

قال أبو عبد الله(ع): **﴿ما اشتكى أحد من المؤمنين شكاية قط وقال بإخلاص نية ومسح موضع العلة وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا إلا عوفي من تلك العلة أية علة كان﴾**.[1]

وعن زرارة بن أعين قال: **﴿سألت أبي جعفر عن المريض هل يعلق عليه تعويذ أو شيء من القرآن. قال: نعم لا بأس به، أن قوارع القرآن تنفع فاستعملوها﴾**.[2]

وعن الأمام علي بن محمد عن آبائه (ع) قال الصادق (ع): **﴿من نالته علة**

---

(١) طب الأئمة ص٢٨

(٢) نفس المصدر ص٦٢

فليقرأ في جيبه الحمد سبع مرات فأن ذهبت العلة وإلا فليقرأها سبعين مرة وأنا الضامن له العافية﴾[1]

إذا القرآن شفاء للقلب والروح والعقل والبدن، ففيه علاج المشاكل التي يواجهها الإنسان فردا أو مجتمعا قبل أن تقع وبعد وقوعها، لأن الله أعرف بطبائع الناس وأمزجتهم، فهو أعرف أيضا بما يحتاجونه في حياتهم فهو ليس نظرية مؤقتة استنفذت أغراضها، كما يدّعي من ليس له علم بكتاب الله عز وجل.

(١) ثواب الأعمال ص٥٩



٦

للقرآن أهداف

* أهداف سامية
* أولاً : التغيير الاجتماعي
* الوصول إلى الرحمة



أهداف سامية:

لمعرفة أهداف القرآن الكريم أهمية قصوى، تساهم في فهم هـذا المنهـج الرباني الفريد، وتقودنا إلى معرفة الظروف التي نـزل فيهـا، فـأن هـذه المعرفـة تحوطها بمجموعة قضايـا، يتـأثر بهـا هـذا الفهـم، لمعرفـة الهدف مـن نزولـه إلى البشرية.

ولكي يبقى القرآن حيا في النفوس، ويتفـاعل معـه المسـلم دائمـا، فعليـه تشخيص هذه الأهداف حتى يبقى الاهتمام بـه مـن خلالها، ومـن خـلال مـا احتواه من حقائق علمية وتاريخية واجتماعية تدعم هـذه الأهـداف. عـن ابـن عباس عن النبي (ص) أنه قال: ﴿**أعربـوا القـرآن والتمسـوا غرائبـه وعـن أبـي عبـد الرحمن السلمي قال حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون مـن رسـول الله (ص) عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه مـن العلـم والعمل**﴾.(١)

ولن نتعرف على أهداف كتاب الله عز وجل ما لم نقـرأه قـراءة عميقـة حتى نستكشف مواقع إشاراته و إرشاداته، ونعـرف الحـق مـن البـاطل، فنقيـم على هذه المعرفة فرائض الله وأحكامه.

فلو تساءلنا مع أنفسنا لنحدد أهداف القرآن ما هي؟ فنقول: لمـاذا أنـزل الله عز وجل هذا الكتـاب؟ كمـا أنـه لمـاذا بعـث الله الأنبيـاء قبـل نبينـا؟ ومـا الغرض من بعثتهم ومن نبينا محمد (ص)؟

ولعل أوضح جواب هو جواب القرآن على هذه الأسئلة حين يقول ربنا

---

(١) تفسير القرطبي (ج١) ص٢٦

سبحانه وتعالى في محكم كتابه ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين**﴾[1]

ويقول أيضا: ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾.[2]

ويقول سبحانه أيضا: ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة**﴾.[3]

فهذه الآيات وأمثالها كثير في القرآن بصيغ مختلفة تحدد الهدف الرئيسي من بعثة الأنبياء الذي لا تنفك عنه رسالات السماء، كما هو القرآن الكريم، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**﴾.[4]

وبما أن الإنسان خلق ضعيفا ﴿**وخلق الإنسان ضعيفا**﴾[5] وجاهلا لا يعلم شيئا من الحياة ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا**﴾.[6]

فبسبب ضعفه وجهله قد تتجاذبه تيارات الحياة المتضاربة، فيصطدم بها، فيقع في الضلالة والهوى، فيأتيه نداء السماء عبر القرآن، لينقذه من الجهل والخرافة، ويهدى من أراد الهداية من البشر، وسعى لها بإرادته، وهذا ما يتميز به كتاب الله عز وجل.

فما هي أهداف القرآن؟

أولاً: التغيير الاجتماعي:

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٨
(٢) سورة البقرة آية ٢١٣
(٣) سورة النساء آية ١٦٥
(٤) سورة الإسراء آية ٩
(٥) سورة النساء آية ٢٨
(٦) سورة النحل آية ٧٨

ولعل ما يقابل هذه الكلمة في كتاب الله عز وجل كلمة الهداية التي تحمل في محتواها التغير الأشمل، الذي يحمل أبعادا كبيرة ساهمت بشكل أو بآخر في تحقيق هذا الهدف القرآني. وقد أشار القرآن إلى عملية التغيير الشاملة في قوله سبحانه وتعالى: **﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾**[1] وفي آية أخرى يقول عز وجل: **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**.[2]

و عن أمير المؤمنين (ع): **﴿اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش. والهادي الذي لا يضل. والمحدث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة في الهدى ونقصان في عمى، وأعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة﴾**.[3]

والتغيير الشامل نعنى به المعالجة الجذرية التي تتحدث عنها هذه الآيات لا المعالجة السطحية. ولذا نلاحظ أن القرآن قد جعل التنافر بين الظلمة والنور حيث لا يلتقيان، وجعل النور يتميز بالشمولية التي تتمثل في البرنامج المتكامل، وحينها يتميز الهدف القرآني بهذه الميزة الأساسية التي تتناول كل أبعاد الحياة ضمن العملية التغيرية، ولعل ما كان يميز رسالات الأنبياء أيضا هو هذا البعد الشمولي ضمن هذا الهدف.

ورسالة السماء الخاتمة-القرآن الكريم-جسّدت المنهج الصحيح للتغيير برسم الطريق السليم الذي يهتدي الإنسان من خلاله، وإقامة الحجة عليه، بما طرحته من قضايا تحمّله المسؤولية تجاه نفسه وتجاه مجتمعه **﴿من اهتدى فإنما**

---

(١) سورة إبراهيم آية ١

(٢) سورة المائدة آية (١٥-١٦)

(٣) نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج٢) ص٩١

يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ [1]

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾.[2]

وأراد منه القرآن أن يسعى لتحقيق كل طموحاته وآماله ضمن عملية التغيير ولكن في مرحلتين:

الأولى: أزمة المعرفة:

كلما توصل الإنسان إلى علم في هذه الحياة أكتشف أنه لم يصل بعد إلى حقائق هذا الكون المترامي الأطراف، وأنه لا يزال في علمه يجهل كثيرا من الأمور، فيبقى ذلك أي ما يجهله بالنسبة إليه مشكلة كبيرة في هذا الكون.

وليست حيرة العلماء اليوم في محاولة معرفة أسرار الكون إلا شاهد واضح على ما نقول.

فالإنسان في الحياة تدور في ذهنه مجموعة من التساؤلات الحائرة التي تثار بين الحين والآخر، فلا يجد جوابا شافيا لهذه التساؤلات حول الكون والحياة والمبدأ والمصدر ، والى أين ينتهي الإنسان وهل هناك بعث بعد الموت أم لا، وحتى لا يتيه الإنسان يحتاج إلى إجابة على هذه الأسئلة.

أليست البشرية لا تزال تشغلها فكرة العدم، وكانت تتصور أن الموت هو النهاية الحتمية للإنسان. فكانت الحيرة تأخذ بها، لكي تتخلص من هذه الفكرة، فأخذت تحتال بوسيلة أو أخرى، لتبقى على حياة الميت بتحنيط الجثث أو بتزويد قبورهم بكل ما تعلقوا به في الحياة من متاع.

---

(١) سورة الإسراء آية ١٥

(٢) سورة الإنسان آية ٣

فمن الذي أزال هذه الحيرة والشك، وأراح الضمير والعقل ومنح النفس الطمأنينة بأن هناك أملاً بعد هذه الحياة الدنيا، وأن الإنسان يُبعث من جديد. لذلك تتابعت رسالات السماء لتؤكد وجود حياة أخرى، حتى جاء القرآن الكريم ليكمل الإجابة على هذه الأسئلة الحائرة.

ومن ثم حرص القرآن لكي يضل حيا في النفوس إلى يوم يبعثون، مادامت البشرية تلتمس منه الجواب، وليرفع الحيرة، وما يشغل بال الإنسان في أمر الحياة وما يحوطها، فقد رسم لها قواعد عامة يفهم من خلالها الإجابة على كل أسئلته. ومثال على ذلك ما يورده القرآن في قاعدة التحدي المبرهن عليه في سؤال أثاره الملحدون حول خلق الله. فلم يسكت القرآن في الجواب فجاء بصيغة الإنكار حيث قال ربنا سبحانه **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾**.[1] فكان الجواب من الله عز وجل ببرهانه المفحم في قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾**[2]

﴿و إن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾.[3]

ولقد مضى على البشرية منذ أن ضرب لهم الله هذا المثل في كتابه أكثر من أربعة عشر قرنا، إرتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق إلى ما وصل إليه، وتابع نضاله من أجل كشف أسرار الوجود وأسرار الكون واقتحم الفضاء.

ولا تزال البشرية ومنذ آلاف السنين تواصل سيرها لحل أزمة المعرفة عندها، وستبقى كذلك ما لم تتخذ القرآن منهجا لها. فهي وما تملك من علم ومعرفة محدودة بالنسبة إلى علم الله المطلق ومعرفته المطلقة التي جاء بها البيان

---

(١)سورة الطور آية ٣٥
(٢) سورة الحج آية ٧٣
(٣) سورة الحج آية ٧٣

الرباني. حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.[1]

ولو لم تكن هذه أزمة بالنسبة إلى الإنسان لاستطاع أن يرفع عنه كل بلاء ومكروه، ويجلب لنفسه كل خير وحسن، وأن يرفع عنها الضر، ويحصل على النفع، لكنه تبين أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا في حدود الإمكانيات التي وفرها له الله. فهو لا يعلم الغيب بدليل أنه يجهل المستقبل، وما يحصل إليه في الغد مما يغيب عن نظره لذا قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾.[2] ومشيئة الله هنا هي تلك الإمكانيات التي امتلكها الإنسان حسب علمه المحدود، وقدرته التي لا تتجاوز حدود طاقاته.

الثانية: مناهج الهداية لبلوغ التكامل.

من أين يتعلم الإنسان مناهج الهداية والإرشاد والتربية؟! أليست من القرآن؟

إن القرآن يريد من البشر أن يصل إلى مرحلة التكامل عبر النمو والتطور والتحديث، لكي يكون متقدما دائما في المجالات كافة، علمية كانت أو تقنية، اجتماعية أو اقتصادية. لأن القرآن إذا دخل في حياة المسلم غيّرها وجعلها تعيش في عالم آخر، لأنه اشتمل على مختلف المناهج والأنظمة والقضايا التي تملك القدرة على التأثير الميداني، فيتكامل هذا الإنسان عبر الهداية القرآنية والسير وفقها. يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان،

---

(١) سورة البقرة آية ٣٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨

علمه البيان﴾.[1]

الهداية تمثلت كما أسلفنا في إخـراج الإنسـان مـن الظلمـات إلى النـور، وإيصاله إلى شاطئ الأمان عبر هذا البيان القرآني.

والبيان الذي على الإنسان أن يتعلمه هو منـاهج الهدايـة والإرشـاد الـتي يتميز بتعلمها عن سائر المخلوقات بموهبة العقـل والإرادة، الـتي منحهـا الله لـه عبر نفحة من روحه، فميزه على الملائكـة والجـن والمخلوقـات الأخـرى، الـتي ليست مـن جنـس الإنسـان ولـذا تميز هـذا المخلـوق دون الكائنـات الأخـرى بالقدرة على تحصيل العلم وكسب المعارف.

والعلم ما هو إلا وسيلة من وسائل الهداية الـتي تـأتي بـالإرادة والعقـل، فإذا أراد الإنسان على ضوء الحرية التي منحها إياه رب العبـاد، أن يتخـذ هـذا المنحى في حياته طريقا فانه سيوصله إلى المناهج الحقة.

إن القرآن هو المصدر الوحيد الذي يحتوى على كل الأمور التي يحتاجها البشر، فما علينا إلا أن نبحث عن تلك المناهج التي توصلنا إلى التكامل.

والتغيير الجذري الشامل المتمثل في الهداية يحتاج إلى منهج مرشد، **﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾**.[2] كتـاب يرسـم الطريـق المستقيم الواضـح، الذي يتناول كل مناحي الحياة وتفاصيلها **﴿ما كان حديثا يفـترى ولكـن تصديـق الذي بين يديه وتفصيـل كل شيء وهدى ورحمـة لقـوم يؤمنـون﴾**[3] والتكـامل يبلغـه الإنسان بالتغيير الجذري الشامل عبر المنهج المتكامل الذي رسمه القرآن بصـورة متقنه في تحرير الإنسان لنفسه، أولا بإصلاحها، والبدء بمعالجة كل العقبات التي

---

(١) سورة الرحمن آية (١-٤)
(٢) سورة البقرة آية ٢
(٣) سورة يوسف آية ١١١

تقف أمام انطلاقتها في الحياة، لتغيير الوضع المقابل لها في المجتمع ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾.[1]

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.[2]

ثانياً: الوصول إلى الرحمة:

اقترنت كلمة الرحمة دائما بالهدى في القرآن الكريم. فإذا كان الهدف الأول هو التغيير الاجتماعي الذي عبّرت عنه آيات القرآن بالهداية الإلهية، فإن الهدف الثاني تمثل في الرحمة الإلهية، التي تعنى أن يعيش الإنسان مطمئنا ومرحوما في الدنيا والآخرة لا محروما، وقد وفّر الله سبحانه له فرصاً رحمةً منه به. وإن شاء استفاد منها وأن شاء ترك وذلك هو الخسران المبين.

أما الآيات التي عبّرت عن الرحمة إلى جانب الهدى فكثير، كقوله تعالى:

﴿ هذا بصائر من ربكم و هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾.[3]

﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم و هدى ورحمة ﴾.[4]

﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.[5]

﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾.[6]

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى

---

(١) سورة التحريم آية ٦
(٢) سورة الأنعام آية ١٥٧
(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٣
(٤) سورة الأنعام آية ١٥٧
(٥) سورة النحل آية ٨٩
(٦) سورة النحل آية ٦٤

ورحمة للمؤمنين ﴾.[1]

وقد تكررت هاتان العبارتان (هدى ورحمة) ثلاث عشر مرة في كتاب الله غير الآيات الأخرى التي ذكرت الرحمة كثيرة جدا. والهداية إذا كانت في معرفة مناهج الله، فالرحمة هي في تلك الفرصة التي يعيشها الإنسان حرا في تفكيره، وفي رأيه، كي يهتدي إلى تلك المناهج. فإذا كانت الهداية هي في المعرفة، فالرحمة هي فرصة المعرفة للإنسان، كي يؤمن بقناعة خاضعة لأرادته لا لضغوط المجتمع وبدون إكراه من أحد حيث ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾.[2]

ولذا وصفت الرحمة دائما بالنعمة،[3] فإذا كان الهدى هدى الله من الضلالة والضياع والانحراف هدى إلى الشرائع، التي هي سبيل الله، وبيان الحق الدال إلى المعرفة والرشد، ودلالة إلى ما يحتاج إليه البشر من أمور الدين والدنيا، فالرحمة هي النعمة على سائر المكلفين، لما في القرآن من الأمر والنهي والوعد والوعيد والأحكام.

وحيث نعم الله لا تنتهي عند حد معين، فالرحمة التي يمن الله بها على الإنسان، كذلك فهي شاملة ودائمة، هكذا هي تتكرر عليه في كل لحظة من حياته، كما تتكرر في أول كل سورة من سور القرآن.

حيث نبدأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ التي وسعت رحمته كل شيء. ﴿أن الله تعالى خلق مائة رحمة، فرحمة بين خلقه يتراحمون بها، وادخر لأوليائه تسعة

---

(١) سورة يونس آية ٥٧
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦
(٣) راجع تفسير مجمع البيان وتفسير الميزان في تفسير آيات الرحمة

وتسعين ﴾.[1]

وفي حديث آخر ﴿ قيل للأمام على بن الحسين عليهما السلام: أن الحسن البصري قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك وإنما العجب ممن نجى كيف نجى! فقال (ع): أنا أقول: ليس العجب ممن نجى كيف نجى، وأما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله ! ﴾.[2]

ومن النعم التي لا تنتهي هي تلك البرامج السماوية التي جاءت لهذا الإنسان رحمة به، فيكون القرآن نعمة بشرط أن يفهمه المسلم على أنه برنامج عمل، ومنهاج حياة، كي يحصل من خلال تطبيقه له على السعادة والرحمة الإلهية.

فالحياة المطمئنة الهادئة المتوفرة فيها حاجات الجسد والروح والفرد والمجتمع هي الرحمة بعينها ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾.[3]

القرآن رحمة كما تبين من خلال آياته، والرسول المبعوث به رحمة أيضا، كما نص القرآن في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[4] وأهل البيت رحمة لنا بنص الرسول(ص) عليهم، فالقرآن والرسول وأهل بيته يشتركون في الدلالة على النعم، وهم الوسيلة، والطريق للهداية إلى الله. قال سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾.[5] فهم وسائل للإنسان للوصول إلى تلك الغايات النبيلة، والأهداف السامية في الحياة وإلى نعمها المادية والمعنوية، ولأن الله أنعم علينا بفرصة للهداية إلى سبله، فنطلب

---

(١) كنز العمال (٦٨-٦٩)
(٢) بحار الأنوار (ج٧٨) ص١٥٣
(٣) سورة الجاثية آية ٢٠
(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧
(٥) سورة المائدة آية ٣٥

منه بعد هذه الهداية أن يتممها ويبقيها برحمة منه ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب﴾.[1] فالرحمة هبة من الله إلى البشر، وهي إحدى أهداف القرآن التي يجب على الإنسان أن يتعرف عليها. فعندما يكون المرء محتاجا إلى هذه المعرفة، فهو يستحق أن تصل له الرحمة الإلهية حينما يطلبها من الله عز و جل، وذلك يدل على مدى حاجة البشر إلى هذه الرحمة الإلهية، فيبعث إليه عبر الأنبياء والرسل بالكتب إلى ما يتمم نقصه، ويرفع هذه الحاجة.

آثار الرحمة:

قد لا يتوصل الإنسان إلى هذا الهدف مباشرة، أي الرحمة الإلهية التي هو بحاجة إليها، كي يزداد معرفة بربه، ويأمل برحمته، ويسعى نحو تحقيق طموحاته في الحياة من خلالها. فقد ينظر إلى آثارها فهي تدله، أليس الأثر يدل على المؤثر كما يقولون - كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها﴾.[2] إن لم تتوصل إلى حقيقة الرحمة التي تتجسد في نعمة توفير الفرصة في الحياة الدنيا للهداية بالموعظة القرآنية، والحكمة الربانية، فأنظر إلى آثار تلك النعمة في الحياة، ومنها تتوصل إلى الحقيقة.

فالقرآن يضرب لنا مثلا في هذه الآية للتعرف على الرحمة من خلال آثارها فيقول: قد لا تنظر إلى الرحمة وهو المطر النازل من السحاب، الذي جاءت به الرياح، وكيفية نزول ذلك، وما يترتب عليه، ولكن لتنظر إلى تلك الأرض الميتة التي دبّت فيها الحياة، بظهور النبات والأشجار والثمار، وهي

---

(١) سورة آل عمران آية ٨

(٢) سورة الروم آية ٥٠

بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها، فجعل سبحانه آثار الرحمة في كيفية إحياء الأرض. فالإنسان قد لا ينظر إلى ذلك التدبير الإلهي في هذا الكون، و إلى النظام المتناسق فيه والسنن، فلا يهتدي إليها مباشرة، ولكنه يلتمس الأثر فيمن اهتدى إلى الرحمة، وطبق برامج السماء واهتدى إلى حقائق اليوم الآخر، فانه يرى ذلك الأثر في الاطمئنان والسعادة والرضى في شخصيته، فيراها شخصية متميزة بما يتركه التزامها بالقرآن من لمسات خاصة، تجعل قلب هذا الإنسان منفتحا لأنوار معرفة الله.

إن القرآن له آثار يتركها على شخصية الفرد، فمن خلال تلك الممارسات الحميدة، والأخلاقيات الرفيعة، والنفسية الطيبة، التي انعكست عليه، وتركت أثرا ملموسا وحسنا، تلك هي آثار الرحمة التي حصل عليها هذا الإنسان. ولا ننسى أن للجانب الغيبي اثر يتركه حينما تتوطد العلاقة مع الله عز وجل، ويكون القلب قد تشبع بنور القرآن وإستمد روح الأيمان من رحمة الله له، فإن ذلك يضفي السكينة عليه فنرى روحه متعلقة بالله عز وجل. يقول أمير المؤمنين(ع): ﴿ **عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما سواه في أعينهم** ﴾ [1] وهذه هي اللمسات الروحية التي تتركها قراءة القرآن، والنظر فيه، أو الاقتراب منه.

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٩٣



٧

القرآن له أبعاد

* الاعجاز .. وجه آخر
* البعد الثبوتي
* البعد الزمني
* البعد الكمالي
* البعد العالمي
* البعد المنهجي



الإعجاز .. وجه آخر:

لعل فصاحة القرآن وبلاغته ليست الدلالة الوحيدة على عظمته وإعجازه، بل للقرآن عظمة أخرى، تجلت في تحديه بما جاء به من قيم خالدة، لم يستطع العرب أن يقفوا أمامها، كما وقفوا أمام فصاحة القرآن وبلاغته، لأن هذه القيم كانت ثورة على الأفكار الجاهلية، وتصحيحا لمسار البشرية جمعاء. فلم يكن هذا الكتاب مقتصرا على نوع واحد من التحدي، كما يصوره أكثر من يكتب عن القرآن، وهو التحدي في جانب البلاغة و الفصاحة، وكأنه لا يحتوي غير ذلك من الأعجاز، صحيح أن ذلك هو أحد أنواع التحدي والأعجاز في كتاب الله عز وجل. ولكن هناك جوانب أخرى، ومؤشرات كثيرة تدلل على عظمة وإعجاز القرآن في مواضيع مختلفة، علينا أن لا نهمل تلك الجوانب وهى التي تتمثل في أبعاد هذا الكتاب، فما هي أبعاده ؟

أولاً: البعد الثبوتي

ليس المقصود بهذا البعد إثبات القرآن من الناحية السندية أو الانتسابية، والى أي مدى يصح نسبة هذا الكتاب إلى الله عز وجل، إن القرآن غني عن ذلك لأنه كتاب فريد فلم ترد عليه شبهة، و لم تناله يد التحريف من بين الكتب السماوية ﴿إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون﴾[1]

ونحن لسنا بصدد إثبات صدوره، فهو ثابت بالتواتر من جيل إلى جيل عند المسلمين، ولعل بيان معالمه التي أحدها هو هذا البعد يكفي لإثبات صدوره من الله عز وجل خالق الكون.

---

(١) سورة الحجر آية ٩

فهذا البعد في ثبوت القرآن يكمن في عدم تناقض القرآن في ثلاثة أوجه وهي:

1) لا تناقض مع نفسه.

2) لا تناقض مع العقل.

3) لا تناقض مع الإنسان.

الوجه الأول

قد تعرض القرآن الكريم لمختلف الشؤون فتوسع فيها بشكل كامل، وقد أعطى كل شأن حقه، فبحث في الإلهيات، وفي نبوة الأنبياء، وبحث في العقائد السابقة، ووضع الأصول لكل التعاليم والأحكام التي يحتاجها البشر من نظم اجتماعية، وقواعد أخلاقية، كما أنه تعرض للفلك والتاريخ وقوانين السلم والحرب، فلم يترك مجالاً من المجالات إلا وتطرق إليه على أحسن ما يكون. يقول الإمام الصادق(ع): **﴿ما من أمر يختلف فيه إثنان إلا وله اصل في كتاب الله عز وجل ولكن لا تبلغه عقول الرجال﴾**.[1]

مع هذه الموضوعات المختلفة في القرآن لم نجد فيه تناقض مع بعضه البعض ولا أدنى اختلاف، وربما قد يستعرض القرآن الحادثة مرة ومرتين، والقصة تتكرر مرات عديدة، وفي كل مرة تجد لها مزية خاصة دون أن تجد أي تهافت أو تدافع.

﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[2].

---

(1) الكافي (ج1) ص60

(2) سورة النساء آية 82

فعدم الاختلاف والثبات هو الطابع الذي يتصف به القرآن، وهو ظاهرة من الظواهر القرآنية في إثبات القيمومة للقرآن حينما لا يكون فيه عوجا، فيكون هذا الكتاب كاملا في نفسه مكمّلا لغيره وقيّما عليه. قال سبحانه وتعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما﴾[1] . فحتى يكون القرآن إماما وقائدا على الناس فلم يجعل له عوجا. عن الأمام علي (ع): ﴿عليكم بالقرآن فاتخذوه إماما وقائدا ﴾[2].

فهو مستقيم في كل جهاته، في ألفاظه ومعانيه، فصيح في تعبيره، بليغ في إيصال فكره، ومصيب في هدايته، في حججه وبراهينه. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[3] .

"يقول المسيحي الفاضل يا ركزان في الكتب المقدسة ثلاثون ألف غلط والقسيس ميل وكر يستياج ينهيانه إلى نيف ومائة ألف غلط وشولزان أغلاطها لا تحصى وفي دائرة المعارف البريطانية والفرنسية أنها مليون غلط وكما يعترف بهذه الأغلاط والاختلافات في الكتب المقدسة كثيرون مثل أكهارن - كيسر - هيس - ديوت - وبزفوش"[4] .

كل ذلك بفعل ما عرض عليها من تحريف وتزييف على طول التاريخ فحاشا لله أن تكون كتبه فيها تناقض، وما ذكرناه لدلالة على عدم وجود التناقض في القرآن بالمقارنة بينه وبين الكتب المقدسة الأخرى التي حرفت بفعل العابثين وأصحاب المصالح ، فمن المستحيل عقلا وواقعاً كون النقص

---

(١) سورة الكهف آية (١-٢)
(٢) كنز العمال (ج٩) ص٤٠٢
(٣) سورة البقرة آية ٢
(٤) الفرقان في تفسير القرآن (ج١) ص٢٣٩

والتناقض منسوباً إلى الله عز وجل، فكما أن القرآن مطبوع بطابع الربانية، كذلك الكتب المقدسة الأخرى التي جاءت من الله عبر أنبيائه إلى البشر فهي نقية من كل رواسب ومخلفات التحريف .

أما غير الكتب المقدسة كالنظم البشرية فهي واضحة في قصورها الذاتي لأنها متأثرة بالظروف وبمتغيرات الحياة، وقاصرة عن الإحاطة بجميع الأمور والملابسات، فقد تعالج مشكلة فردية وتخلق مشكله اجتماعية لا علاج لها، بينما نجد في القرآن مع ما يحمل في طياته من مناهج ورؤى وبصائر للإنسان في الحياة فردا أو مجتمعا التنسيق والتلاؤم والوئام التام دون أي اختلاف أو تناقض بين آياته، فإنها منسقة على نسق واحد لا اختلال فيه، ولا فيما يحمله من معاني في مختلف الحقول.

الوجه الثاني:

العقل له أحكامه الخاصة وقواعده الأساسية التي تدله في أكثر الأحيان على الصواب، ونقصد بالعقل هنا المُدرك البعيد عن الهوى والضلالة والانحراف. وبما أن القرآن يعتبره سنداً وحجةً فينبغي على الإنسان أن يعمل بموجبه.

فإذا كان العقل نور يهدي الإنسان إلى الصواب، وآيات القرآن توجيهات الله إليه، وهو خالق العقل وواهبه . فهل يمكن أن يكون تناقضا بينهما؟!

العقل نور يميز به الإنسان بين الرشد من الغي، والخير من الشر، والحق من الباطل والممكن من المستحيل، جاء في الحديث عن النبي (ص): ﴿العقل عقال

من الجهل والنفس مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل حارت﴾[1] .

وكتاب الله ليس مجرد توجيهات غير مترابطة أو غير متكاملة. فجميع الآيات مكية أو مدنية، محكمة أو متشابهة، ناسخة أو منسوخة، مجملة أو مبينة، لا اختلاف ولا تناقض بينها وبين العقل، لأنه يستحيل أن يكون اختلاف بين خالق العقل في أحسن صوره وكماله وبين العقل.

وهل يعقل أن يدعو الله الإنسان للتعرف على وحدانيته، وعلى إثبات النبوة وإرسال الرسل عن طريق العقل ثم يكون مناقضا لها؟

وكيف ترد مجموعة من الآيات في القرآن تشير إلى العقل ثم يكون متناقضا معها. أليس هذا هو عين التناقض ؟ مع أن هذه الآيات أشارت إلى عدم وجود ذلك التناقض في القرآن بينه و بين العقل، و قد أشار ربنا إلى ذلك في عدة آيات، بقوله تعالى:

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[2]
﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾. [3]
﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾[4] .
﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾[5] .
﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾[6] .
﴿ وليذكر أولو الألباب ﴾[7] .

---

(١) البحار (ج١) ص١١٧
(٢) سورة البقرة آية ٢٤٢
(٣) سورة البقرة آية ٢٦٩
(٤) سورة آل عمران ١١٨
(٥) سورة المائدة آية ١٠٠
(٦) سورة البقرة آية ١٦٤
(٧) سورة إبراهيم آية ٥٢

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾[1] .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾[2] .

﴿ قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾[3] .

و كثير من الآيات التي وردت بهذه الصيغة، كما وردت الكثير من الأحاديث عن النبي (ص) و أهل بيته (ع) تشير إلى العقل و أهميته، و أنه الحجة الباطنة التي يحتج بها الله على عباده يوم القيامة، و به يثاب المرء ويعاقب، ولا يتحقق ذلك الثواب و لا العقاب إلا لمن امتلك العقل.

ورد عن الإمام الباقر (ع): **﴿لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي و جلالي ما خلقت خلقا أحسن منك ولا أطوع منك ولا أرفع منك ولا أشرف منك ولا أعز منك، إياك آمر وإياك أنهى وإياك اثيب وإياك أعاقب﴾**[4] .

والأحاديث كثيرة وحسبنا كتاب الله في ذلك، فآياته ناطقة على أهمية العقل ودوره في بيان وحدانيته سبحانه وتعالى واثبات نبوة نبيه. فهل يتناقض ذلك وأصول شرائعه ونظمه وقوانينه التي أرسلها للإنسان مع العقل! حاشا لله ذلك.

الوجه الثالث:

يقدم القرآن الكريم صورة متكاملة للطبيعة البشرية وما يلائمها، وما لا يتفق معها، ولا يفصل بين أجزائها فيتحدث عنها باعتبارها أجزاء مترابطة.

---

(١)سورة الرعد آية ١٩

(٢) سورة النور آية ٦١

(٣) سورة الحديد آية ١٧

(٤) أصول الكافي (ج١) ص٢٦

فالإنسان كل متكامل، وما هذه المكونات من الروح والعقل والنفس والجسم تشكل طبيعته، وهى فطرته التي فطر عليها **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾**[1] .

هذه الفطرة متى ما نمت نموا سليما، وفي أجواء خاليه من الأمراض الاجتماعية، وبعيدة عن الأهواء يصبح الإنسان بها سليما. وعلى ضوء هذه الفطرة السليمة تصبح متطلبات هذا الإنسان وفق المكونات الأربعة (الروح - العقل - النفس - الجسم) متطابقة مع برامج القرآن الكريم.

وكما أن القرآن كتاب هداية و إرشاد، يقتضي توجيه الإنسان إلى حقيقة يحتاج إلى معرفتها، وهى تذكيره بهوانه وضعفه، فيلفته إلى خلقه من تراب، أو من طين، أو من نطفة ثم علقة، أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب كما في قوله سبحانه وتعالى: **﴿ فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾**[2]

﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾[3] .

﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا﴾[4] .

أليست هذه هي حقيقة الإنسان! أو هل زاد القرآن شيئا على هذه الحقيقة أو نقص! وهل هذه الحقيقة تصب في الجانب السلبي، أم معرفتها تشكل نقطة قوة في شخصية الإنسان. نعم إنها تشكل نقطة قوة في شخصيته.

فحينما يحرص النص القرآني على بيان هذه الحقيقة، فانه يكبح جماح

---

(١) سورة الروم آية ٣٠
(٢) سورة الطارق آية (٥-٧)
(٣) سورة القيامة آية (٣٧-٣٨)
(٤) سورة الكهف آية ٣٧

غروره، فلا يتجاوز قدره حتى لا يطغى ولا يستكبر، ويكون التعقل والتبصر هما الميزان بين الخير والشر، لكي يحافظ على إنسانيته كإنسان دون أن يتناقض معها فجاءت أحكامه وقوانينه متفقة ومنسجمة معه، تستوعب كل

أبعاده الجسدية والعقلية والعاطفية والروحية سواء الفردية منها أو الاجتماعية في مختلف المجالات والحقول.

يقول الأمام الشيرازي "يلزم أن يكون القانون- ويقصد به الإسلامي- مستوعبا بأن يعطى حوائج الإنسان الجسدية والعقلية والعاطفية سواء منها الحوائج الفردية أو الحوائج الاجتماعية في مختلف أبعاد الإنسان. فلو لم يكن القانون كذلك حصل الاصطدام و التبعثر والانفصام من ناحية والنقص والفراغ من ناحية ثانية. فإن الإنسان مركب له جسد، له حوائجه، وعقل له موازينه وخصوصياته ومزاياه وعاطفة لها شروطها وملائماتها ومنافرتها، فإذا لم يكن القانون بهذا النمو من الاستيعاب والشمول يكون قانونا ناقصا وقانونا مصطدماً من غير فرق بين أن يكون القانون في جهة الوضع أو في جهة التطبيق، لأن القانون يلزم أن يراعى فيه أمران:

الأول: القانونية

الثاني: التطبيق"[1]

هكذا هو حال القرآن الكريم بالنسبة إلى توافقه مع الإنسان. فقوانين القرآن وأنظمته والشرائع التي جاء بها ملبية لحاجات الجسد والروح، ومستوعبة لكل أبعاد حياته.

---

(١) الصياغة الجديدة ص٣٤

ثانيا: البعد الزمني:

المعارف الحقة والحقائق الثابتة والأصول الأخلاقية والقوانين العملية المتفقة مع فطرة الإنسان، هي حقائق ثابتة لا تتغير مع مرور الزمن، ولا تتحدد بوقت معين. فالمنهج القرآني الذي يمتاز بالوضوح، أحكامه ثابتة لا تؤثر عليها الحركة التطورية بل هو يؤثر فيها، ويصحح مسارها.

"في القرآن الكريم إشارات ولمحات معجزة عن البعد الزمني في الكون تثير الدهشة والتساؤل، ولو تيسر جمعها وتنسيقها وتحليلها عالم طبيعي أو رياضي (مؤمن) وقارنها بنسبية (اينشتاين) التي أدخلت البعد الزمني كبعد جديد ثالث في دراسة الكتلة الكونية لرأى بأم عينه العجب العجاب، ولأدرك يقينا أن هذه الإحاطة الرياضية الشاملة بأبعاد الكون وعدم التقيد بمقاييس الأرض ونسبياتها المحدودة سيما في زمن نزول القرآن حيث علوم الطبيعة والرياضة لازالت تحبو بعد لم تتجاوز مرحلة طفولتها, وهذه النظرة الكلية التي تطل على الكون ولا تندمج إنما هي جميعا من لدن العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علما"[1] .

القرآن كتاب ابدي دائم مع مر العصور والأزمان، لا تطرأ عليه التغيرات، ولا يتطرق إليه البطلان. يقول سبحانه وتعالى: ﴿**انه لقول فصل، وما هو بالهزل**﴾[2] . ويتميز بالحق والحق ثابت لا يتغير ولا يختص بزمن دون زمن يقول ربنا في محكم كتابه الكريم ﴿**وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**﴾.[3]

---

(١) مع القرآن في عالمه الرحب ص٣٧

(٢) سورة الطارق آية (١٣-١٤)

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٥

فهو مشروع دائم لهذا الإنسان مادام موجودا على الأرض فالقرآن رسالة حق تعكس حقائق الحياة المشهودة والمغيبة المادية والمعنوية، وخط يمتد من الدنيا إلى الآخرة. ويتجاوز المصالح العاجلة إلى المنافع الآجلة.

فهذا البعد الزمني يلعب دورا رئيسيا ليس في خلود وبقاء الرسالة، وإنما في صلاحية أحكامها وقوانينها لكل عصر، فكلما تقدم الزمن اكتشفنا إننا بحاجة إليها.

كلما تقدم الزمن وتقدم العلم وتقدم الإنسان ازدادت حاجته إلى القرآن أكثر فاكثر. فتعقد الحياة، وزيادة العلاقات الإنسانية نتيجة التقدم العلمي، لم يغير من القرآن شيئا، فهو مهيمن من غير فرق بين عصر العلم والتقدم أو عصر البداوة.

وكلما تباعد الزمن لا يشعر الجيل الحاضر بأن هناك انفصال أو انقطاع عن الجيل الماضي، إذا اعتمد القرآن همزة الوصل، لأن وجود القرآن بينهم يعني أن هناك تواصلاً زمنياً، فالجيل القادم يواصل نفس المسيرة التي بدأها الجيل الماضي بإبداع وتطوير، تاركاً آثار وبصمات القرآن على ذلك الإبداع والتطوير كما أن ذلك يعنى أن هذا الجيل يختزل التجارب ويختصر المسافة، ويطوي الزمن بما حققه الجيل الماضي، حيث يستفيد منه دون أن يبقى عليه متحجراً دون تطويره.

والتواصل الزمني بين الأجيال أي أن يكون القرآن كحلقة الوصل بين جيل وجيل آخر، والامتداد للحضارة الإسلامية عبر الزمن، فلا يكون هناك مجالاً للانقطاع بين الأجيال فتحدث الفجوة والفراغ بينها، فيكون الضياع والانحراف والتيه.

قال ربنا سبحانه و تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا﴾.[1]

و الانقطاع و الفجوة التي خلفتها الأمة بابتعادها عن القرآن فترة زمنية أي عن مصدر ثقافتها في الحياة في هذا الكون لكفيلة بتشويش الرؤية، وعدم وضوحها حول المستقبل.

وهنا سؤل يراود الذهن لماذا تأخر وتخلف المسلمون عن ركب الحضارة العالمي مع ما وصلوا إليه ؟ فالحركة التي قادها النبي (ص) ودوره القيادي في إعلاء شأن الأمة من حالة التردي إلى حالة السمو والرفعة، جعلت منهم سادة العالم حينما ساروا على نهج تلك الحركة، واتبعوا قيادة النبي، والتزموا بتعاليم القرآن .ولكن عند ما تخلت هذه الأمة عن أصالتها، تاركة مبادئها وقيمها وراء ظهرها بعد رحيل قائد الحركة، حدثت الانعطافة التاريخية التي أدت بالرجوع إلى مسافات زمنية إلى الوراء بدلا من اختصار الزمن إلى الأمام. فأدّت بها إلى النزول عن قمة الهرم التي وصل إليها النبي (ص)، وهكذا كانت انتكاسات وانتصارات تأرجح المسلمون عبر الزمن فيها. أما الانتصارات فهي عامل إيجابي للأجيال القادمة تؤدى به إلى الإبداع والتطوير، وأما الانتكاسات فهي عامل سلبي، ولكن يمكن للجيل القادم أن يقوم بدراسة خلفية تلك الانتكاسات، وعوامل الخطأ، والدروس و العبر، و لم تكن تلك القصص التاريخية التي وردت في القرآن، والتي تشكل ثلثه إلا لاختصار المسافة الزمنية، ولتمكن الأجيال المتعاقبة من تفادي الأخطاء التي وقع فيها السابقون.

ثالثا: البعد الكمالي:

الإنسان والأمة، الفرد والدولة، الشريعة والمكلف، المنهج الأخلاقي

---

(١) سورة طه آية ١٢٤

والمجتمع، مفردات تناولها القرآن بدقة تامة وشمولية واسعة. ولأن القرآن يهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فلابد أن يكون قد احتوى كل شيء حتى لا تلتبس الأمور على الإنسان في الحياة، ويبقى في حيرة من أمره، كي يسترشد ويهتدي إليه عبر طريق القرآن، فكانت تلك النظرة الواقعية والشمولية للكون والإنسان، قد بينها ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾.[1]

لأن نظرة المبادئ والقوانين الأرضية الموضوعة من قبل الإنسان نظرة أحادية. فهي تنظر من بعد واحد وزاوية واحدة، فهي لا تستطيع أن تحقق طموح الإنسان، لأنها لا تستطيع أن تستوعب حقائق الكون لضيق أفقها، ومحدودية تفكيرها، فان العقل مهما كان فإنه متأثر بخصوصيات الزمان والمكان والتقليد، ومثل هذا العقل لا يستطيع أن يستوعب الحقائق.

كما أن هذه المبادئ تعطى رؤية غير مسؤولة وغير متكاملة، بينما القرآن يعطى الرؤية المسؤولة يحمّل الناس المسؤولية عن واقعهم ومجتمعهم بعد أن أرشدهم، وهداهم إلى دينه، ففيه تفصيل لمناهج الحياة والبرامج التي توصل الإنسان إلى الحقائق. لان القرآن يفصل تلك الحقائق التي لا يراها الفرد واضحة.

عن أبي عبد الله (ع) ﴿قال: ان الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل في القرآن إلا وقد أنزله الله فيه﴾[2].

عن عمر بن قيس عن أبي جعفر (ع): ﴿قال: سمعته يقول أن الله تبارك

---

(١) سورة النحل آية ٨٩

(٢) الكافي (ج١) ص٥٩

وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه وبينه لرسوله (ص) وجعل لكل شيء حداً وجعل عليه دليلاً يدل عليه وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً﴾[1] .

فما جاء في القرآن ليس ذا بعد واحد يتصل بالفرد دون المجتمع، أو الاقتصاد دون السياسة، أو الماديات دون المعنويات، أو الآن دون المستقبل، أو هذه الطبقة دون تلك، أو يهتم بالعواطف دون العقول، بل هو كتاب تحدث عن كل شيء، وفي كل الأبعاد بتكامل وتناسب وعدالة بين مختلف أبعاد الحياة البشرية، وهذا التفصيل والبيان الذي حمل كل أبعاد الحياة البشرية ربطه القرآن بالعقل والفكر والعلم. فالعاقل والمفكر والعالم هو الذي يستطيع أن يقارن بين القرآن وأفكاره، أو أفكار البشر، فيرى الحقيقة الواضحة قد تجلت في كتاب الله فيقول سبحانه:

﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾.[2]

﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.[3]

﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.[4]

فالقرآن الحكيم إتصف بهذا البعد لأنه فلسفة كاملة للحياة، فلابد أن يسيطر عليها بجميع أبعاده، لأن البشر بحاجة إلى تحقيق السعادة، وهي الغاية التي يطمح إليها كل إنسان.

والسعادة التي يحققها القرآن ذات البعدين الروح والجسد، فإنها تستند إلى الثبات لا إلى التغيير، لأن القرآن ثابت لا يتغير، ونابع من قوة أزلية لا تتغير،

---

(١) الكافي (ج١) ص٥٩

(٢) سورة الروم آية ٢٨

(٣) سورة الأعراف آية ٣٢

(٤) سورة يونس آية ٢٤

فهو القادر على إعطاء هذا الإنسان الحياة الكاملة ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾.[1]

وقد ثبت فشل كل الفلسفات في الحياة التي أرادت أن تحقق السعادة للإنسان لأنها لم تتميز بالثبات، ولم تكن تستند إلى قوة أزلية فانتهت، وبقى الإسلام متمثل في القرآن ﴿ليظهره على الدين كله﴾.[2]

رابعاً: البعد العالمي:

لازال العالم يبحث عن خلاص مع ما توصل إليه من رقي، وتقدم في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة في ابتكار النظريات، ووضع القوانين، والتحليق في فضاء هذا الكون، وكأنه يبعث ببالونات الهواء في الجو.

لماذا يبحث عن الخلاص؟

حضارة اليوم لم تستطع أن تخفف من الآم الإنسان، ولم تتمكن أن ترفع عنه الويلات التي تحل به، وتضع العلاج لمشاكله.

لم يعد بإمكان العقول الإلكترونية التي تعالج ملايين المعادلات الرياضية أن تحل مشاكل البشر التي هجمت عليه، وهى آخذة في التفاقم، كالأزمات الاقتصادية والأزمات السياسية.

لذا يكتب جاك أتالي مستشار الرئيس الفرنسي السابق فرنسوا ميتران كتاباً تحت عنوان آفاق المستقبل، يتحدث فيه عما وصل إليه العالم، والأزمات التي يمر بها، وتحول الصراع من صراع عسكري إلى صراع اقتصادي، تتبادل

---

(١) سورة فاطر آية ٤٣

(٢) سورة التوبة آية ٣٣

فيه القوى والمراكز الدول الكبرى، و الضحية هي الشعوب. وبعد بحث طويل يتطرق الكاتب فيه إلى مشاكل العالم، ويحددها بمشكلة البيئة والتلوث والسكان والمخلفات الضارة وتقلص الغابات، وبعد ذلك يطرح حلاً لهذه المشاكل بعد أن يحدد دور الأمم المتحدة، وبأنه دور قد تقلص نتيجة الظروف السياسية المحيطة بها، وإنها لم تعد مستقلة. فيبين أن الحل هو وجود سلطة عالمية تجمع هذه الدول تكون ديمقراطية، وقادرة على إيجاد الحلول المناسبة.(١)

إن العلم الحديث استطاع أن يحقق للإنسان ما لم يحلم به، لكنه لم يستطع أن يوصل الإنسان إلى حقيقته، وأن يعرفه بنفسه وبخالقه.

غاص في أعماق الطبيعة درس كل التطورات الحاصلة فيها، سخرها لخدمته، لكنه لم يستطع أن يغوص في أعماق الإنسان ليدرسه حتى يرفع عنه تلك الغشاوة التي تحجبه عن حل مشاكله.

يا ترى أين الخلاص؟ وما هو المخرج؟

يتصور البعض أن الجاهلية الأولى لم تكن صاحبة علم، ولم تكن متقدمة في الجوانب العلمية، كانت العرب مشهورة في الفصاحة والبلاغة وعلوم العربية، وما يوازيها في ذلك أحد، وفي الأشعار ووقائع العرب وتاريخهم، ومع ما يملك العربي من قيم العروبة كالوفاء بالعهد والصدق وكرم الضيافة ...الخ. إلا أن العرب لم يستطيعوا وضع الحلول المناسبة للحروب، التي كانت تدور بينهم مع بعضهم البعض، ومعالجة مشكلة التمايز الطبقي والعنصري.

لم تستطع أن توقف الانحلال الخلقي المنتشر بصورة تدعو إلى الرثاء ... هكذا كان حال مجتمع الجاهلية الأولى، وكذلك الحال بالنسبة إلى عالم اليوم

---

(١) يراجع كتاب آفاق المستقبل - دار العلم للملايين

المتحضر الذي يمثل الجاهلية الثانية، فهو لازال يعاني من مشاكل عالمية متوارثة، مشكلة العنصرية، مشكلة القومية، المشكلة الإقليمية، مشكلة الطبقية، التمايز العرقي. أليست هذه المشاكل لم تجد لها حلول في حضارة التقدم اليوم!

في مثل هذا الوضع المتأزم والنفق المظلم والطريق الشائك، العالم بحاجة إلى رسالة عالمية منقذة تتحول إلى برامج عمل لتنقذ العالم كله، ويكون فيها نجاته من الدمار والانحراف والسقوط، وليس هناك إلا رسالة القرآن العالمية التي جاءت تحمل البشرى لكل البشرية، جيلا بعد جيل إلى يوم يبعثون. ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: **﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾**[1] .

وقال أيضاً: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾**[2] .

ويقول أيضاً: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾**[3] .

نعم إنها رسالة العالمين، فهي لا تختص بقوم ولا بأرض ولا بمذهب ولا بزمن، فهي من رب العالمين، دعت الأديان التي سبقتها، أن تنضوي تحت راية واحدة، بعقيدة واحدة، وأنظمة وتشريعات صادرة من كتاب واحد وهو

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٦

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٣) سورة الأعراف آية ١٥٧

القرآن، بفكرة التوحيد الأصيلة.

فالقرآن كتاب الناس، كل الناس، وهو لجميع الناس، لأنه جاء من رب الناس، وهذا دليل على أنه لم يخضع لحدود الزمان والمكان.

فحينما يكون الكتاب صادر من رب العالمين فهي نقطة قوة وعظمة فيه. يقول ربنا سبحانه: ﴿لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾.[1]

ويقول أيضاً: ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين﴾.[2]

وأيضا يقول ربنا ﴿ ألا له الخلق تبارك الله رب العالمين﴾[3] .

وكما انه من رب العالمين خالقهم وموجدهم، فهو أيضا للعالمين أي لكل الناس لذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾[4] .

ويقول أيضا سبحانه: ﴿فأين تذهبون، إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[5] .

﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾.[6]

لذا نلاحظ أن هناك تكرار لكلمة الناس، البشر، بنى آدم، الإنسان.فقد تكررت كلمة البشر في (٣٥) موضعا منها (٢٥) موضعا في بشرية الرسل، وقد تكرر لفظ الناس (٢٤٠) مرة بدلالة واضحة على إسم الجنس لهذه السلالة الآدمية، وقد ورد لفظ الإنسان في القرآن أيضا في (٦٥) موضعا.

وكل ذلك يضعنا أمام حل مشكلة كبيرة، وهى التمايز على أساس

---

(١) سورة الواقعة آية (٧٩-٨٠)

(٢)سورة الحاقة آية (٤٢-٤٣)

(٣) سورة الأعراف آية ٥٤

(٤) سورة القلم آية ٥٢

(٥) سورة التكوير آية (٢٦-٢٧)

(٦) سورة يوسف آية ١٠٤

العنصر أو القوم أو الإقليم أو الطبقية.

فالقرآن يضع مقياسا في ذلك وهو العمل الصالح والتقوى، لأن مقياس الأفضلية قائم على هذا الأساس، وعلى التزام الفرد بالأحكام والتعاليم ﴿إن أكرمكم عند ا لله أتقاكم﴾[1].

فهو رسالة مترامية الأبعاد تسع البشرية كلها، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿تبارك الذي نّزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[2].

ويمضي القرآن، في سياقه للآيات والحديث عن وضع الحلول لكل مشاكل العالم، لا للبيئة العربية ولا للمشاكل العربية فقط، وإنما يتجاوز ذلك، فهو يضع حلولاً للبيئة الجاهلية الضيقة، والموبوءة بتلك الدعايات التافهة، ويتسامى فوق تلك الحواجز التي وضعها أنصاف المثقفين، دعاة التحرر المنسلخين من أصالتهم، المنتمين إلى العروبة المزيفة، أو القومية السقيمة، أو المبادئ المنحرفة التي التفوا حولها. وهذا التجاوز يدل على أن القرآن ليس وليد تلك البيئة، وأن النبي ليس مجرد داعية ومصلح أفرزه ذلك المحيط، بل هو رسول رب العالمين بعثه الله إلى الناس جميعاً.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قل يا أيها الناس إنّي رسول ا لله إليكم جميعاً﴾.[3]

فعالمية القرآن قائمة على أساس القيادة الموحدة المتمثلة في النبي (ص)، والكتاب الذي يحوى أنظمة وتشريعات، يشترك فيها البشر تحت سلطة عالمية قائمة، تجمع الناس تحت راية التوحيد والعدالة الاجتماعية القائمة على مبادئ الدين الحنيف.

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) سورة الفرقان آية ١

(٣) سورة الأعراف آية ١٥٨

خامساً: البعد المنهجي:

يتميز القرآن الكريم بمنهج خاص فريد في العرض والمضمون والنزول والأسلوب، فهو ليس كتاباً عادياً، ولا بحثاً كتبته يد باحثٍ أراد أن يتوصل إلى حقيقة ما، وإنما هو كتاب يتمتع بمنهجية خاصة نابعة من تلك الأهداف السامية التي تجلت فيه، والمعالم الواضحة التي ارتفعت به إلى مستوى الكمال، فأصبح في ذلك السمو و العظمة، بما يحوي من بصائر وحقائق ورؤى.

والأمة اليوم هي أحوج من الأمس إلى رؤية واضحة، ومنهج قويم يضيء لها معالم الطريق، ويوسع آفاق الطموح.

وفي هذه المرحلة الدقيقة الحرجة التي تمر فيها الأمة، بحاجة إلى نظره ثاقبة وشاملة في كتابها القرآن الكريم، لتأخذ منه المنهج المتكامل، والأمثل لتحقيق أهدافها وطموحاتها، بعد أن جربت كل المناهج، فتأخذ بالمنهج القرآني الذي يعتمد الطريق المستقيم والقويم في تحكيم الأهداف على أرض الواقع، لذا نلاحظ أن ربنا يبين في كتابه، أن مواصفات هذا المنهج الرباني إنه قويم ومستقيم. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما﴾[1]

وقال أيضاً ﴿وان اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾[2]

ويقول أيضا ﴿ يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم ﴾.[3]

وقد تكررت لفظة مستقيم في القرآن واصفة المنهج الرباني بهذه الصفة

---

(١)سورة الأنعام آية ١٦١

(٢) سورة يس آية ٦١

(٣) سورة الأحقاف آية ٣٠

واحد وثلاثين مرة، وتكررت بلفظ (مستقيما) ست مرات، ومن هنا جاء القرآن ليرسم المنهج المتكامل الشامل للإنسان، لأنه يمثل الجزء الأكبر في هذا الكون، فهو يحرك فيه أسباب التقدم، وينظف الفطرة التي تلوثت، ويعيدنا إلى رشدنا، ويثير فينا دفائن عقولنا.

المنهج يعنى الخطة المرسومة في الحياة، القائمة على أسس علمية متينة، تنسجم مع نظام الكون، وتتفق مع فطرة الإنسان، ومع تطورات هذه الحياة، فهو الكفيل بتحديد علاقاته العامة في هذا الكون ضمن دائرة هذا المنهج.

فعلاقة الإنسان مع ربه، وعلاقته مع أخيه الإنسان فرداً ومجتمعاً، وعلاقته مع الطبيعة وما فيها من مخلوقات أخرى من شجر وجماد وأرض وسماء، كيف تكون هذه العلاقة، وما هي نوعها، وكيف يحافظ بها على هذا الكون من التلوث والانحراف والدمار!؟

كل ذلك يحتاج إلى منهج ثابت شامل دائم عالمي حتى يحدد هذه العلاقة ويبينها لهذا الإنسان.

فالقرآن كتاب الحق الخالد، وكل ما فيه من ضوابط وأنظمة وقوانين تعبر عن هذا المنهج، وما هي إلا سنن ثابتة لا تتغير، فحينما يحدثنا عنها هذا المنهج، لا يعنى أنها قواعد للظروف التي مرت بها البشرية فترة زمنية، وانتهى دور هذا المنهج بانتهاء تلك الظروف، فحينها نحتاج إلى منهج آخر.

القرآن حينما رسم هذا المنهج لم يكن إلا وفق القيم التي تحدث عنها، فأراد من خلاله (أي الخطة المرسومة) أن يلتزم الإنسان بتلك القيم، و أن تتجسد في شخصه ومجتمعه وأمته.

وهذا المنهج القرآني له معالم يأخذ الإنسان دوره منها.

فما هي معالم المنهج القرآني يا ترى!؟

هذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم



٨

معالم المنهجية القرآنية

* تخطيط
* مميزات المنهج



تخطيط:

كانت تلك أهداف القرآن و أبعاده التي تدل على أن هذا الكتاب رسالة متكاملة جاءت لإنقاذ الإنسان، وفق خطة معينة رسمتها يد السماء، رب العالمين، خالق البشرية.

فيا ترى هل لهذه الخطة التي تشكل المنهج القرآني مميزات يتميز بها حتى تجعله فوق المناهج البشرية، وما فيها من علم؟

أو ليست الخطة أو المنهج وليد الساعة أو الظروف لمواجهة ما يحتمل على ضوء المستجدات في الحياة. أو ليس هو رسم لما يحتاجه الإنسان من خطط وبرامج عمل في حياته!

كل ذلك صحيح في غير القرآن لسببين:

أولاً:

إنّ هذا الكتاب ـ القرآن الكريم ـ وسيلة و أداة لنقل التجربة البشرية، التي مرّت فيها طوال الفترة الزمنية، التي مضت قبيل رسالة النبي (ص).

البشرية التي يعبّر عنها القرآن في بعض الأحيان بالأمة لها حياة وحركة و اجل وموت، أي أنها تكون حية ثم تموت، فكما أن الحياة تخضع لقانون ومنهج وتشريع، كذلك الموت فإنه يخضع لأجل وقانون وتشريع.

هكذا هي الأمم فلهذا التاريخ سنن لا يمكن تجاوزها، وضوابط تتحكم فيه تكون خلف السنن الشخصية يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ولكل أمة أجل إذا

جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.[1]

ثم إن هذا الكتاب الرباني الذي جاء لهداية الإنسان، وصقل شخصيته، و إعطائها الهوية السليمة، فهو كتاب ينسّق بين سعي الإنسان ونشاطه وجده من جهة، وبين فطرته وما حوله من الطبيعة و التاريخ وسننه من جهة أخرى، ثم يربط هذا الإنسان بعمله إن خيرا فخير و إن شراً فشر. يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، و من يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.[2]

وهذه التجربة التي ينقلها لنا القرآن عبر تلك الأحداث التي مرّت فيها الأمم، يبين من خلال تلك المشاهد و المواقف إن كل هذه التجربة الغرض منها صلاح الإنسان، باعتباره هو الأساس لحركة التاريخ و المجتمع، فصلاحه يعني أنه يستطيع أن يغير مجرى التاريخ في المنحى الإيجابي ﴿ إن ا لله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3] فتغير التاريخ إلى الأحسن، و المجتمع إلى الأمثل بتغير المحتوى الداخلي، فهو الأساس الذي تقوم عليه كل عملية بناء اجتماعية وتاريخية.

وبناء المحتوى الداخلي يشكل القاعدة الأولى في صحة التفكير و التخطيط للحياة ولهذا الكون، ولا يكون ذلك البناء إلا على أساس من القرآن وتعاليمه الرشيدة، وهَدْيه الناصع، فحينها ينظر الإنسان في كل خطة، وبرنامج عمل، ومنهج حياة من خلال ما يمتلك من رؤى وبصائر قرآنية. فهذا الكتاب دائماً و أبدا يهدى من اتخذه طريقاً ومنهجاً لسلوك الحق وبيان الغايات ومعرفة للأهداف النبيلة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

---

(١) سورة يونس آية ٤٩

(٢) سورة الزلزلة آية (٧-٨)

(٣) سورة الرعد آية ١١

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾.[1]

ثانياً:

القرآن الكريم يشكل منهجاً متكاملاً لحياة الإنسان، عليه أن يعتمده ويدرسه بعمق لكي يتوصل إلى تلك الحقائق الهادية، و الخطط الرشيدة، ويفهم ما فيه، ويستطيع أن يبرمج حياته وفق ذلك المنهج الرباني، يقول ربّنا سبحانه وتعالى ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون، إن لكم فيه لما تخيرون ﴾.[2] ولعل دلالة الآية واضحة حيث يبين ربّنا أن كل ما تختارونه في الحياة، وتحتاجون إليه، فهو في القرآن فلا غنى لكم عنه.

ولكي لا يكون هذا المنهج الذي يعتمده الإنسان وليد لحظة، أو ظرف، بل يتماشى معه، ويكون مرافقاً له حاضراً ومستقبلاً في الحياة، وبعد الممات. فلا بد أن يفرض نفسه على شيئين: وهما الإنسان و الكون.

نقصد بالإنسان طبيعته، ومكنوناته النابعة من فطرته التي فطره الله عليها. أما الكون نقصد به الهيمنة عليه، ووضع الأنظمة و القوانين و السنن، ولا يتسنى ذلك لغير الله عز وجل الذي أنزل القرآن على قلب النبي (ص).

فإذا أدركنا هذه الحقيقة، فإنها تساهم بشكل كبير، وبوضوح تام عن بيان دور القرآن في إقامة البناء التشريعي، وتشييد الصرح القانوني، و الهيكل التنظيمي للمجتمع، فيكون مصدراً للتشريع و التقنين، ويكون المنبع و المصدر الذي تنبع منه المناهج و الأفكار و المفاهيم التي يحتاجها الإنسان. يقول سبحانه

(١) سورة الإسراء آية ٩
(٢) سورة القلم آية (٣٧-٣٨)

وتعالى: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء و هدى ورحمة﴾[1] فإنه سبحانه كما خلق الإنسان من ناحية الأعضاء و الجوارح و الأجزاء، و النفس وصفاتها ومزاياها وخصوصياتها، و أوجد أعقد الأجهزة في جسمه. كذلك أوجد النظام الإنساني الذي يكفل له السعادة، وهو من أعقد الأنظمة الذي يحوي على ألوف التشريعات، و القوانين لتجعل للإنسان أنظمة ودساتير ومناهج في غاية الدقة، لئلا يتيه في دروب الحياة الحالكة، ولئلا يرد إلى أسفل سافلين بعد أن خُلِقَ في أحسن تقويم.

"وحيث جاء القرآن ليسير مع البشر إلى الأبد آخذاً زمامه في كل دروب الحياة، كان لابد له أن يضع الأنظمة، ليناسب حالاته المختلفة حتى في أعقد أدوار ارتفاعه، آخذا من سكناه الكهوف و الخيام، و اقتياته على الصيد و الفواكه و امتطائه الخيل و البغال و الحمير، و استعماله الأحجار و الأخشاب في حاجاته، و انتهاءاً إلى سكناه المدن الفضائية، و اقتياته الأغذية، و امتطائه الأقمار السابحة في الأجواء و استعماله العقول الآلية، و إلى غير ذلك من أعقد الحياة التي يضعها العلم بيد الإنسان يوماً بعد يوم.

ومن هنا يتجلى بعض عظمة القرآن حيث جعل مثل هذه الأنظمة للإنسان وهى صالحة لأعضاء الإنسان اسعد الحياة، بينما كل المذاهب و الأديان و الأنظمة القديمة قد هربت من الميدان، كما إن كل نظام يتجدد يجد عدم ملاءمته للحياة بعد برهة قصيرة من التطبيق، مما يكون لا بد له من تسليم مكانه لنظام احسن ليأخذه مكانه ليجد عدم صلاحيته أيضاً".[2] علينا إذاً أن نأخذ بهذا القرآن، منهجاً في الحياة، وفي كل ما يرتبط بها مكاناً وزماناً، فإننا

---

(١) سورة النحل آية ٨٩

(٢) الفقه القرآن ص٥٦

أحوج ما نكون إليه، ولا نستغني عنه.

مميزات المنهج

وحدة المصدر وجهته:

ظاهرة الوحي لم تكن ظاهرة جديدة، بل هي ظاهرة تكررت حينما أيّد الله أنبياءه، الذين اختارهم قبل النبي (ص)، فهي متماثلة عند الجميع، لأن مصدرها واحد وغايتها واحدة، كما ذكر ربّنا سبحانه وتعالى في كتابه قائلاً ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبين من بعده و أوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط و عيسى و أيوب و يونس و هارون وسليمان و آتينا داود زبورا، و رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل و رسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم ا لله موسى تكليما﴾.(١)

فهذه الظاهرة متكررة على كل الأنبياء، التي حرص القرآن على ذكرها، إنما يريد أن يبين أن مصدرها واحد، و أن القرآن ما هو إلا كتاب نزل به الوحي على قلب النبي محمد (ص) من عند الله عز وجل. فقال ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ إن هو إلا وحي يوحى﴾.(٢)

وقال أيضاً ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي﴾.(٣)

وظاهرة الوحي تدلل على أصالة هذا المنهج الرباني، و انه لا خلاف في صدوره من جهة واحدة وهو الله سبحانه وتعالى، فما علينا إلا أن نتعرف على القرآن من خلال ما مضى من حديث، وما سيأتي، حتى نستطيع أن ندرك

---

(١) سورة النساء آية (١٦٣-١٦٤)
(٢) سورة النجم آية ٤
(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٣

حقيقة القرآن عن طريق هذه المعرفة الشاملة.

يقول آية الله مرتضى المطهري:- "عندما نقرأ عن القرآن تتضح لنا أصالات القرآن الثلاث:

الأصالة الأولى: أصالة الانتساب أي أننا بغير أن يخامرنا أدنى شك، أو أن نحتاج إلى دراسة النسخ القديمة، نكون واثقين بأن ما يقرأ اليوم باسم القرآن المجيد، هو الكتاب عينه الذي نزل على محمد بن عبد الله (ص).

الأصالة الثانية: هي أصالة المحتوى أي أن المعارف القرآنية ليست ملتقطة ولا مقتبسة بل هي مبتكرة، و التحقيق في هذا الجانب تتكفل به المعرفة التحليلية.

الأصالة الثالثة: هي الأصالة الإلهية أي أن هذه المعارف قد فاضت مما وراء أفق الرسول (ص) الذهني و الفكري، و انه لم يكن سوى ناقل هذا الوحي، ومبلّغ هذه الرسالة، وهذا ما تتكفل به معرفة أصل القرآن".[1]

وقد اعتمدت ظاهرة الوحي على فكرة التوحيد لله عز وجل، فهو المصدر الأول لهذا الكون، و الجهة الأولى في إفاضته لهذا الوجود، فكانت الدعوة إليه و التوجيه و العبادة إليه وحده، و استلهام مناهج الحياة منه فكانت تلك نقطة قوة في المنهج الرباني فيكون الثبات وعدم الاختلاف، وحينها لا نرى إلا الانسجام التام بين آيات القرآن وعدم التناقض في أحكامه، وتوافقه مع فطرة الإنسان وطبيعته.

"ثمة نقطة مهمة يجب ملاحظتها عند دراسة القرآن، و البحث فيه، وهي أن مجموع آيات القرآن تؤلف بنياناً متماسك الأجزاء، أي إننا لو أخذنا آية

---

(١) معرفة القرآن ص٣٠

واحدة، و أردنا أن نفهم هذه الآية لوحدها فلن نكون قد اتخذنا سبيلاً سويا، لا شك إن فهمنا لتلك الآية قد يكون صحيحاً، ولكنه عمل غير سليم، فالقرآن يفسر بعضه بعضا، وهذا ما أيده الأئمة الأطهار، حسبما ورد على لسان كبار المفسرين، إن للقرآن طريقة خاصة في بيان المسائل، ففي كثير من الأحيان يكون للآية إذا أُخِذَتْ منفردة مفهوماً يختلف كل الاختلاف عن مفهومها إذا ما وُضِعَتْ إلى جنب الآيات المشابهة لها في المضمون".(١)

ولعل توحيد الله عز وجل هو في عدم قبول أي شيء من غيره سبحانه وتعالى و انه المعبود الذي تتوجه إليه الخلائق في كل شيء.

هذه الفكرة هي الأصل الأول للإنسان في وجوده في الحياة.

و التوحيد في الثقافة الإسلامية فكرة لها معنى واسع، ومعالم واضحة، و أبعاد شاملة، وهي بمثابة القاعدة الأولى للمنهج الإسلامي حيث تعنى الاعتقاد ببطلان كل الأنظمة، و المناهج الغربية، و الشرقية الملفقة، وعدم الإيمان بالأساليب التي يصنعها عقل الإنسان القاصر.

التوحيد يعني التسليم الكامل و المطلق لكل التعاليم الإلهية التي جاءت في كتاب الله و الإذعان لها و اعتبارها منهجاً للمسيرة و الحركة في الحياة.

التوحيد يعنى التطبيق العملي في السياسة و الاقتصاد و المجتمع.

فالسياسة التوحيدية هي في رفض كل الأصنام البشرية، وقطع الروابط و العلاقات التي تؤدي إلى تسلط الأجنبي على المسلمين، وعدم الارتباط بأي قوة تحرف مسيرتنا عن جادة الحق.

---

(١) معرفة القرآن ص٣٣

و الاقتصاد التوحيـدي يتمثـل في تطبيـق الأحكـام في الـثروة و الإنتـاج و التوزيع و الاستهلاك و الإدارة، وعدم الإجحاف بحق الإنسان، وجعلـه يعيـش حراً كريماً وفق قيم العدالة في توزيع الثروة.

و المجتمع التوحيدي المتمثل في القيادة المنتخبة على أساس القيـم القرآنيـة و الموازين الدينية كالعلم و التقوى و الجهاد و الأمانة و الشجاعة لا علـى أسـس غير إلهية بعيدة عن الديـن مرتبطـة بـالهوى أو القـوم أو العنصـر أو العشـيرة أو الدم، وهذا المجتمع القائم على التوحيد يمثـل النظـام الإلهـي النـابع مـن الرسـالة الذي يسود بين الناس علـى أسـاس الصفـاء، وقلـع جـذور الفسـاد، وتسـاوى الناس أمام القانون.

قال تعالى: ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن با لله، فقد استمسك بالعروة الوثقـى، لا انفصام لها** ﴾.[1]

إذا كان كل ذلك يجمعه التوحيد، ويكون منطلقاً لها، فهـو يتجلـى إذاً في وحدة المصدر، وهذا ما يمتاز به المنهج القرآنـي، فهـو منهـج صـدر مـن جهـة واحدة، فهو اعرف بطبيعة الإنسان، وفطرته، وما يحتاج إليه في الحياة الدنيا.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦

اعتماد الحق:

من المميزات المهمة التي تميز المنهج القرآني هو اعتماده الحق كقاعدة وركيزة أساسية في توجيه خطابه إلى الإنسان المفطور على قبول الحق و الخضوع له في الباطن، و إن أظهر خلافه في الظاهر.

"و الحق هو الثبات الذي لا يسوغ إنكاره"(١) ونعني به الخط الثابت في الحياة و الواضح الذي لا تشوبه شائبة، وهو لا يحتاج إلى بيان فيكون إتباعه من الأمور المرتكزة في الفطرة الإنسانية، و باتباعه يحكم العقل أيضاً، فالواجب على الإنسان أن يتبع الحق، ويتبع الهادي إليه وهو العقل، لأن إتباعه إتباع لنفس الحق، وحيث أن الإنسان في الحياة يريد علما ثابتا وخطا واضحا يرسم له معالم حياته ويعتمده منهجاً لها، وتكون ركيزته التي يعتمد عليها، وليس هناك غير الحق.

وقد اعتمد القرآن الكريم في منهجه على هذه القاعدة و اعتبرها ركيزة أساسية، فنجد الله سبحانه وتعالى يصف القرآن بالحق دائماً، و أنها هي الحقيقة، التي قام عليها المنهج القرآني. فيقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا﴾.(٢)

﴿ و الذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن ا لله بعباده خبير بصير ﴾.(٣)

﴿ و الذين آمنوا وعملوا الصالحات و آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من

---

(١) التعريفات ص٤٠

(٢) سورة الإسراء آية ١٠٥

(٣) سورة فاطر آية ٣١

ربهم ﴾.[1]

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس ﴾.[2]

﴿و أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾.[3]

﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾.[4]

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾.[5]

﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾.[6]

ولعل أكثر من مائة آية وردت في القرآن الكريم تصفه بهذه الصفة، بل آيات القرآن هكذا وصفت رسالات الله، حيث اعتبرها القرآن أنها ارتكزت عليه، وجعلته مقياساً في فهم المنهج القرآني، ولعل الحق هو القاعدة المنهجية التي يجب أن يتبعها الإنسان لفهم الحقيقة و الوصول إليها، فحينما تقرأ كتاب الله وتتلو هذه الآيات ترى أنها تتحدث عن حقائق كبيرة، ومن ضمنها الحقيقة القرآنية الكبرى التي تفصل لنا ذلك المنهج الأسمى الذي يرسم للإنسان من خلال تلك القيم البرامج، و الخطط الحكيمة، ويحمله مسؤولية الإيمان بالله و الالتزام به، فيشرح صدره لفهم الواقع المعاش ووضوح الرؤية للمستقبل البعيد.

"القرآن هو كتاب الحق، فهو لا يحدّثنا عن المظاهر الخارجية للحقائق إلا بشكل مقتضب بل يحدثنا عن القيم و السنن وعن الخلفيات و القواعد الحقة،

---

(١) سورة محمد آية ٢
(٢) سورة النساء آية ١٠٥
(٣) سورة المائدة آية ٤٨
(٤) سورة النحل آية ١٠٢
(٥) سورة الشورى آية ١٧
(٦) سورة الجاثية آية ٢٩

فإذا حدثنا (سبحانه و تعالى) عن مواجهة الإيمان و المؤمنين للكفر و الكافرين فإنه لا يحدثنا عن طبقة معينة في مكان محدد بل يفصل لنا القول عن الإيمان كإيمان و الكفر ككفر، ويحدثنا عن واقع الإيمان و الكفر وحقيقتهما لا عن مظاهرهما ومصاديقهما".[1]

القرآن اعتمد في مفاهيمه ورؤاه الحق، و الإنسان الذي يريد أن يتّبع منهجاً ثابتاً ومنهجاً قويماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، فانه لن يجد ذلك إلا في كتاب الله. قال سبحانه وتعالى: ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** ﴾[2] فالحق لا عوج فيه، و القرآن هو الحق، كما يقول سبحانه: ﴿ **الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾.[3]

وقد خاطب القرآن، أولئك الذين كانوا في عهد رسول الله (ص)، و لم يؤمنوا به، أن يجعلوا الحق الذي جبلت عليه فطرة الإنسان مقياسا لهم في معرفة الخير من الشر، للابتعاد عن الكفر إلى الإيمان. فقال سبحانه وتعالى:﴿**ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل و أن الذين آمنوا اتبعوا الحق**﴾.[4] وقال أيضاً ﴿ **وكذب به قومك وهو الحق**﴾.[5] أي كذبوا بالقرآن مع أنه الحق. وقال أيضاً ﴿**يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**﴾.[6]

المنهج القرآني القائم على الحق يتجسد في أمرين:

---

(١) القرآن حكمة الحياة ص٩٦
(٢) سورة الكهف آية ١
(٣) سورة البقرة آية ١٤٧
(٤) سورة محمد آية ٣
(٥) سورة الأنعام آية ٦٦
(٦) سورة الأنفال آية ٦

أولاً: القانونية المتناسقة:

نجد أن القرآن، يتفق في أصوله مع سائر الرسالات التي جاءت من عند الله، كما أنه يتفق مع بعضه البعض في أصوله وقوانينه، فهو حينما يتحدث عن القانون فأنه يتحدث عن التناسق بين أصوله وفروعه، فكما أن القانون له أصول تكون بمثابة الخطوط العامة، كذلك له تفريعات منبثقة من تلك الأصول، وهي الالتزامات و الأحكام، فلا نجد أي تناقض في هذه البرامج المعدة سلفاً و المستلهمة و المنطلقة من هذا المنهج الرباني، فلا تناقض مثلا بين القوانين التي ترتبط بالاقتصاد و القوانين العبادية، وكذلك لا تجد هذا التناقض بين القوانين السياسية و العبادية، ولا بين العبادية و الاجتماعية، ولا بين بعضها مع البعض عموماً.

لأن التناقض وعدم الانسجام لا يتفق مع الحق بل هو للباطل أقرب، و القرآن يقول ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾[1] فلم ولن يستطع أحد أن يوجد ثغرة واحدة في كتاب الله فلم نجد ذلك في زمن النبي (ص) و لم يحصل حاضراً، ولن يكون مستقبلاً ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر و إنّا له لحافظون ﴾.[2]

وعلى الباحث الإسلامي و المفكر الحر أن يتجرد للحق حتى يستطيع أن يستوعب القرآن ويتعامل معه، وفق الأسس و القواعد المنهجية التي تُيسّر له المهمة العلمية التي جاء بها القرآن، ويحيط بكل أدوات ووسائل الفهم التي تمكنه من فهم القرآن، وكشف محتواه.

---

(١) سورة فصلت آية ٤٢

(٢) سورة الحجر آية ٩

ثانياً: الوحدة الموضوعية:

لا يقوم المنهج القرآني على إقحام النزعة الذاتية، أو الأفكار الموروثة، و المخلفات السلبية عند الباحث الإسلامي، أو المفسر للقرآن في محاولة فهمه له، بل يجب أن يتعامل مع النص القرآني، ومفهوم الآية بأمانة ودقة وموضوعية، فلا يجوز تحميل النص مالا يحتمل من معاني، وتأويلات بعيدة عن روح القرآن و أصوله، فحينها إن لم يلتفت الباحث المسلم و المفسر إلى هذه المسألة سيعمد إلى عملية تشويه، وتحريف لروح القرآن إن لم يفهم النص في دائرته الخاصة، بما ينطوي عليه من مفاهيم ورؤى وبصائر. وبذلك سيؤدي إلى الوقوع في متاهات فكرية، و انحراف بعيد عن الثقافة الإسلامية، وبالتالي إلى ممارسة غير ممنهجة، ولا علمية، وليست وفق أصول القرآن، ولا منبثقة منه.

مهمة النظر إلى القرآن، هي الربط بين مفاهيمه، و أنها تشكل وحدة موضوعية واحدة قائمة على أساس الحق لأنه كما جاء عن أمير المؤمنين (ع) ﴿وينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض﴾[1] أي يكمّل بعضه بعضاً كما انك حينما تنظر إلى الحق لا يمكنك تجزيته، فكذلك فهمك للقرآن مجزأً يعني تقطيع للمفاهيم القرآنية، وتمزيق للمحتوى الرباني، يؤدى ذلك إلى غموض في الرؤية الواضحة إلى كتاب الله.

أن تدخل الرغبات و الأهواء و النزعات الذاتية إلى جانب التجزئة الموضوعية في فهم النصوص القرآنية،ذلك مما يؤدى إلى الاستنتاج الخاطئ و الغير سليم.

"و الباحث في حقول المعرفة و الثقافة القرآنية الذي يمارس الدراسة على

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٣٣

أسس سليمة، ووفق منهجية قرآنية تتفق ومنطق التنظيم الفكري و العلمي للقرآن، يستطيع الحصول على فكر إنساني سليم، و اكتشاف الكم الهائل من المفاهيم و التشريعات، و الأفكار التي لا يجف ينبوعها، ولا ينقطع رفدها، كما يستطيع حماية القرآن من اندساس الأهواء و الرغبات، ومن تلاعب العابثين، و الجهال الذين ابتليت بهم الأمة الإسلامية عبر القرون في حياتها الطويلة، وما زالت تعاني أشد المعاناة من استمرار هذا الشذوذ العابث الذي لم يكن ليحدث إلا بسبب انعدام المنهج السليم، و القصور العلمي، وغياب الموضوعية لدى كثير ممن تصدوا لهذه المسؤولية الخطيرة، فأساءوا فهم القرآن، و شوهوا مفاهيمه، و أحكامه".[1]

الحكمة الربانية:

جاءت لفظة الحكمة في القرآن الكريم إلى جانب لفظة الكتاب في بعض الآيات القرآنية، وكأنما تدلل على أن الكتاب لا يكون بدون الحكمة، وكأنها صفة للكتاب في بعض الأحيان، وفي البعض الآخر صفة للنبي (ص) يتحلى بها، وتكون ملازمة له.

فأما بالنسبة للكتاب فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ و أنزل الله عليك الكتاب و الحكمة﴾.[1]

ويقول أيضاً: ﴿ و إذ علّمتُكَ الكتاب و الحكمة ﴾.[2]

﴿ و اذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة﴾.[3]

ويقول أيضاً على لسان النبي عيسى (ع): ﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ﴾.[4]
ويقول ربّنا أيضاً: ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة ﴾.[5]

كما إنها تكررت كصفة أو عطاء للرسول أو النبي (ص) أو للمؤمنين.

فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وقتل داود جالوت و آتاه الله الملك و الحكمة وعلمه مما يشاء ﴾.[6]

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾.[7]

---

(١) سورة النساء آية ١١٣
(٢) سورة المائدة آية ١١٠
(٣) سورة البقرة آية ٢٣١
(٤) سورة الزخرف آية ٦٣
(٥) سورة النساء آية ٥٤
(٦) سورة البقرة آية ٢٥١
(٧) سورة البقرة آية ٢٦٩

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربّك من الحكمة ﴾.[1]

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾.[2]

﴿ وشددنا ملكه و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾.[3]

بل ومن المهام الرئيسية التي أنيطت بالنبي أو الرسول هي دعوة الناس وتعليمهم الحكمة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ربّنا و ابعث فيهم رسولاً منهم يتلو ا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب و الحكمة﴾.[4]

﴿ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب و الحكمة ﴾.[5]

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة ﴾.[6]

فما هي الحكمة ؟ وماذا تعني ؟ وما هي بالنسبة إلى القرآن ؟ أي ماذا تعني بالنسبة إلى المنهج القرآني ؟ وما هي فلسفة ورودها إلى جنب الكتاب؟

دعونا أولاً نفهم ماذا تعني هذه الكلمة في اللغة ؟ وما هي ظلالها اللغوية على الجانب الفكري ؟

قيل إن الحكمة في اللغة العلم مع الجهل، أوهي كلام وافق الحق، أو الكلام المعقول المصون عن الحشو.[7]

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٩
(٢) سورة لقمان آية ١٢
(٣) سورة ص آية ٢٠
(٤) سورة البقرة آية ١٢٩
(٥) سورة الجمعة آية ٢
(٦) سورة النحل آية ١٢٥
(٧) كتاب التعريفات ص٤١

و الحكمة هي من حَكَمْتَ الدابة التي تربطها مشيتها العشـواء إلى صـراط المستقيم، وكذلك الإنسان المبتلي بالنفس الأمّارة بالسوء المتخلفة عن الصراط، وبالعقل الذي يخطئ الصراط، فلابُدّ من حكمـة ربانيـة لضبـط النفـس الأمـارة فترشد العقل و الفطرة عن اخطارهما إلى سوى الصراط كسائر الحكمة.[1]

إذا هي ما يدعـو الإنسـان إلى تجنـب الأخطـاء، و التحصـن عـن المكـر و الخداع، وتمنع عن التعثر و الانـزلاق، وحضـور الإنسـان الدائـم عقـلا وعمـلا وشعورا في كل فكرة تطرح وقضيه تنشر، أو رأي يقـال، فـلا يخـدع الإنسـان بمجرد المظاهر البراقة، و الإعلانات الرنانة، و الدعايات المضللة.

﴿عن الإمام الصادق الحكمة هي النجاة، وصفة الحكمة الثبات عند أوائل الأمور، و الوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله إلى الله ﴾.[2]

وعن هشام بن الحكم قال أبو الحسن موسى بن جعفر (ع): يا هشـام إن الله قال: **﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة، قال يعني الفهم و العقل ﴾.[3]**

و الحكمة هي ليست العقل الذي هـو موجـود لـدى كـل إنسـان، و إنمـا الحكمة هي أمر آخر تكمل به النفس بعد الإيمان الكامل، و التسليم المطلق لله، و التوكل عليه، و الثقة به، و إيجاد التقوى، فحينها يحصل هـذا الإنسـان علـى درجة من درجاتها، فلا ينزلق، ولا يتعثر، وتكون نظرته للأمور نـظرة حكيـمة منبثـقـة مـن الإيمان بـالـله عن أبي جعفـر (ع) قـال: **﴿بينمـا رسـول الله (ص) ذات يوم في بعض أسفاره إذ لقيه ركب فقالوا: السـلام عليـك يـا رسـول الله فـالتفت إليهم وقال: ما أنتم فقالوا: مؤمنون.**

---

(١) الفرقان (ج٤) ص٢٨٨
(٢) مصباح الشريعة للإمام الصادق
(٣) أصول الكافي (ج١) ص١٦

قال فما حقيقة إيمانكم. قالوا: الرضا بقضاء الله، و التسليم لأمر الله، و التفويض إلى الله. فقال رسول الله: علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء فأن كنتم صادقين فلا تبنوا مالا تسكنون ولا تجمعوا مالا تأكلون، و اتقوا الله الذي إليه ترجعون﴾[1] حيث أنها أي الحكمة عطاء من الله في مقابل ما قدمه العبد من خضوع وتسليم وتعلم لأحكام الله و التزام لمبادئه فـ **﴿ يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب و الحكمة ﴾**.[2]

الحكمة القرآنية:

أما الحكمة في القرآن وما تلقيه من ظلال على المنهج الرباني فقد فسّرها ابن عباس (رضي) بتعليم الحلال و الحرام.[3]

ويمكن أن نفهم من هذا الكلام ومن خلال آيات القرآن الكريم وكلام المفسرين أنها تعني كل ما يتصل بالحياة العملية من برامج، و آداب خلقية و اجتماعية.

عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله تبارك وتعالى:**﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾**.[4]

قال: هي طاعة الله ومعرفة الإسلام.[5]

وفي تفسير العياشي عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله تعالى: **﴿و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ فقال:﴿ إن الحكمة**

---

(١) أصول الكافي (ج١) ص١٦

(٢) سورة الجمعة آية ٢

(٣) كنز الدقائق (ج٢) ص٤٤٤

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٩

(٥) المحاسن ص ١٤٨

الحكمة المعرفة و التفقه في الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم، وما من أحد يموت من المؤمنين احب إلى إبليس من فقيه﴾.(١)

فإن الحياة الاجتماعية تحتاج إلى برامج عملية تتوافق مع طبيعة الحالة التي يعيشها الإنسان، فليس أحكام القرآن وتشريعاته هي مجرد أحكام و آراء لا واقع لها، أولا يمكن للإنسان أن يتكيف معها باعتبار الزمان أو اعتبار المكان.

فالتشريعات الإلهية من المعارف و الأحكام تحمل في داخلها صيغة تكيُفية، فهي ذات ميزة عملية لا تختص بزمن دون زمن، ولا مكان دون مكان، و إنما يحتاج الإنسان في حالة تطبيقها على الواقع إلى المعرفة بالحياة و العلم.

يروى عن النبي (ص) انه قال:﴿ **إن ا لله تبارك وتعالى آتاني القرآن، و آتاني من الحكمة مثل القرآن، وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلا كان خراباً ألا فتفقهوا، وتعلموا، ولا تموتوا جهالاً** ﴾.(٢)

و الحكمة القرآنية التي اتصف بها كتاب ا لله لا يعتريها أي نقص في كل حقول الحياة، وقد أوصلها ا لله إلى نبيه محمد (ص) فهي حكمة القرآن، وما يحويه من تعاليم ترتبط بكل الجوانب الخيرة في الإنسان العقلية و الفطرية و العلمية و العملية و الأخلاقية، فردية كانت أم اجتماعية.

يقول صاحب تفسير الفرقان الدكتور الصادقي: و افضل الحكم الربانية على طول خط الرسالات هو القرآن العظيم، فالعلم به حكمة عملية.(٣) وبالحكمة التي تنطلق من القرآن، ويمتاز بها هذا المنهج الرباني، ونحصل عليها من خلاله، كما يقول النبي (ص): ﴿ **من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه**

---

(١) تفسير العياشي (ج١) ص١٥١

(٢) مجمع البيان ص ٣٨٢

(٣) الفرقان (ج٤) ص٢٩٠

غير أنه لا يوحي إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي، فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله، وليس ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من جدّ، ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله ﴾.[1]

بهذه الحكمة نستنبط الحلول لمشاكل الحياة، ونستوضح البرامج من القرآن، ونرسم الخطط للمستقبل مع التطور الحاصل الذي يفاجئ الإنسان، فيكون هو بدوره قد استعد له على ضوء وهدى القرآن الكريم.

أليس تعليم الحكمة إلى المسلمين من المهام التي كلّف اللّه بها النبي (ص)؟ فلم يكن النبي (ص) يعلمهم الكتاب فقط، بل كان يعلمهم كيفية تطبيق الكتاب ﴿ **يعلمهم الكتاب و الحكمة** ﴾ فلم يقتصر النبي (ص) على تعليمهم القرآن، و إنما أرشدهم إلى الأصول و المناهج التي ينطلقون منها حين مواجهة أي مشكلة تقع عليهم فيستطيعون حلها.

فالحكمة هي ضالة المؤمن، فيبحث عنها أنّى وجدها، و أين وجدها، فهو يتحرى دائما عن ضالته، كي لا يقع في ضلالته، فيخرج من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشد.

وحين يكون القرآن منار الحكمة، فيسعى إليه ليأخذ منه المعرفة، و التفقه في الدين و أمور حياته، كما جاء في الحديث السابق حيث ﴿ **الحكمة المعرفة و التفقه في الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم** ﴾ وهل يصدر الفقه و أصول الدين إلا من القرآن ؟.

(١) الدر المنثور (ج١) ص٣٤١

التوافق العقلي:

الخطاب في القرآن موجه إلى البشر من حيث هم بشر، بعيداً عن امتلاك صفة يختص بها البعض، وتميزهم عن البعض الآخر.

فهو موجه إلى أسمى شيء وجد عند هذا الإنسان، وبه كرّمه الله عند ما خلقه وهو العقل.

فالقرآن إذا آياته و أحكامه وتشريعاته موجهة إلى الإنسان بعقله وروحه لا بجسده فقط.

ومن هنا كانت دعوة القرآن إلى التعقل، و الرجوع إلى العقل، وجعله حجة ومقياساً للأمور، يقول ربّنا سبحانه وتعالى: **﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾**.[1]

الإنسان هو أحد الدواب التي تدبّ على الأرض، فالله عز وجل لم يخلق الإنسان شريراً، ولكن نوازع الشر عنده لعدم استخدام كوامن الخير، وتسخيرها في الطريق السليم التي منها العقل.

و القرآن يستثير هذا العقل من خلال دعوة الإنسان إلى التفكير، التفكير في كل شيء، في مخلوقات الله في السماوات و الأراضين، وكيف قامتا في هذا الكون الواسع وما فيه، فهو يقوم بعملية إثارته، و إيقاظه من سباته، كي يكتشف الحقائق بنفسه دون واسطة. ومن هنا فالمنهج القرآني قائم على أساس البرهان، وقد اعتمد الاستدلال المنطقي القائم على مخاطبة العقل، و اعتبره سنداً، يقول سبحانه وتعالى: **﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾**[2] ، و

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٢

(٢) سورة البقرة آية ١١١

البرهان و الحجة و الدليل و البيان كلها بمعنى واحد، تساق حين مطالبة الإنسان أن يبرهن على صدق عمله عن طريق الاستدلال العقلي أو المنطقي على ما يقوله.

وهذا يعني نفي التقليد، و الحث على استخدام العقل، وجعله قاعدة أساسية في التفريق بين الحق و الباطل، وبين الإيمان و الكفر، وبين الإسلام و الجاهلية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ و إذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾.(1)

قد يقول البعض إن القرآن أكّد على العقل في نواحي دون أخرى، فهو يريد منّا أن نبرهن، ونستدل عن طريقه في المنحى العقائدي، الذي يرتبط بالوجود وفلسفة الكون دون أن يكون للعقل مدخلية في الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو ما شابه ذلك.

و لإمتياز القرآن ككتاب سماوي على غيره بشموليته وديمومته إلى يوم يبعثون، فقد أكّد على أصالة العقل، عن طريق قاعدة عقلية من قواعد الفكر، فاحترمها القرآن، وهي قاعدة العلية و المعلولية، التي نحصل من خلالها على قاعدة اجتماعية قد تطرق إليها القرآن، وهي متفقه مع تلك القاعدة العقلية، فيقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾.(2)

فلن يغير الله مصير شعب أو أمة إلاّ إذا غيّر ذلك الشعب، أو تلك الأمة ما به من فساد أو انحراف بإزالة كل الأمراض النفسية و الاجتماعية، وتبديلها بنظام أخلاقي اجتماعي صالح حينها يغير الله ما بهم، وبهذا يحمّل القرآن

---

(1) سورة البقرة آية ١٧٠

(2) سورة الرعد آية ١١

البشر مصيرهم بسبب اختيارهم، فإن كـان خـيراً فخـير و إن كـان شـراً فشـر ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾.[1]

ومن الأمور الأخرى التي تدلل على التوافـق العقلـي للقـرآن، هـي مسـألة القبول بوجود المصلحة التي يقرّها العقل من وراء وجـود الأحكـام الشـرعية و الالتـزام بـها، كـما أن هـناك مـفاسد فـي الأمور التي ينهي عنها العقل، أي أن الحكم الذي يصدره المشرع عبر كتابه المجيد ورسوله المصطفـى لـه علـة معينة تابعة للمصلحة، وقد نعرف العلة بعينها، وقد لا نعرفها، وحيث أن ا لله حكيم وعادل وعالم فلا يصدر منه حكم يأمر به عبده إلا وفيه مصلحة له قد يجهلها، ولا ينهاه عن عمل إلا وفيه مفسده قد لا يصل إليها.

يقول السيد الخوئي: " إن الأحكام إنما جُعلت لمصلحة اقتضـت التشـريع، وحفظ لتلك المصلحة، لابد من إيجاد أمور، وتحريم أمور، وحيـث أن الأفعـال بعضها مشتملة علـى المصلحـة، وبعضهـا الآخـر علـى المفسـدة، فهمـا صارتـا مرجحتين في إيجاب ما فيه المصلحة وتحريم ما فيه المفسدة.

ويقول أيضاً: و التحقيق أن يقال أن العقـل و إن لم يكـن لـه إدراك جميـع المصالح و المفاسد إلا أن إنكار إدراكه لهما في الجملة، وبنحـو الموجبـة الجزئيـة مناف للضرورة، ولولا ذلك لمـا ثبـت اصـل الديانـة، ولـزم إفحـام الأنبيـاء، إذ إثبات النبوة العامة فرع إدراك العقل لقاعدة وجوب اللطف.[2]

وقد تبيّن مما ذكر أن العقل لا يخالف الشرع الذي يتمثل في القرآن، كمـا أن الشرع لا يخالف العقل.

---

(١) سورة الزلزلة آية (٧-٨)

(٢) أجود التقريرات (ج٢) ص٣٧

وهذا ما ذهب إليه الفقهاء في مسألة الملازمة العقلية بين حكم العقل وحكم الشرع، وباختصار نوضح ذلك وهي انه إذا حكم العقل بحسن شيء أو قبحه هل يلزم عقلاً أن يحكم الشرع على طبقه.

يقول الشيخ محمد رضا المظفر: " و الحق أن الملازمة ثابتة عقلاً، فإن العقل إذا حكم بحسن شيء أو قبحهِ، أي انه إذا تطابقت آراء العقلاء جميعاً بما هم عقلاء على حسن شيء لما فيه من حفظ النظام وبقاء النوع، أو على قبحه لما فيه من الإخلال بذلك، فان الحكم هذا يكون بادي رأي الجميع، فلا بد أن تحكيم الشارع بحكمهم، لأنه منهم بل رئيسهم فهو بما هو عاقل، بل خالق العقل كسائر العقلاء لا بد أن يحكم بما يحكمون ".[1]

وحينما نقول أحكام الله لا نقصد الأحكام التي تختص بالجانب العبادي فقط، فإن هناك جوانب أخرى في الحياة كالجوانب السلوكية في شخصية الإنسان أو الاجتماعية أو التربوية، أليست هذه الجوانب لها أحكام ؟ أليس الصدق و الأمانة و الإحسان و الوفاء و العدل و الإيثار و التعاون و النشاط صفات حميدة ؟ و الكذب و التكبر و الحسد و الحقد و النفاق وكل خلق سيئ هي صفات الرذيلة. أليست هذه أمور يحكم بها العقل ويقرها الحكماء و العقلاء في المجتمع.

هذه الأحكام يقرها القرآن وتتطابق مع الشرع، ولكن اكثر ما هنالك أن الإنسان قد يصاب بالغفلة و النسيان فهو يحتاج إلى تذكير، لذا كان الهدف من بعثة الأنبياء هو تذكير الناس لإبعادهم عن الغفلة، كما جاء في الحديث عن الإمام علي (ع): ﴿ ويذكروهم منسي نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم

(١) أصول الفقه (ج١) ص٢٣٦

دفائن العقول ﴾.[1] فهناك توافق وتطابق بين العقل و الشرع، وهذا ما جعل الرسول و العقل كل منهما حجة، كما جاء في الحديث الشريف عن الإمام الكاظم (ع): ﴿ إن لله حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الأئمة عليهم السلام، و أما الباطنة فالعقول ﴾[2] فمنهج القرآن هو منهج لا يختلف مع العقل، بل هو يزيد العقل معرفة وعلماً، ويضع للإنسان منهجاً فكرياً قائماً على أساس العلم، كي لا يقع في الخطأ و المزالق الفكرية، فينهاه عن إتباع الظن، و أن يترك الشك ويأخذ باليقين، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿و إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتّبعون إلا الظن و إن هم إلا يخرصون ﴾.[3]

كما انه يؤكد مسألة أن يكون المنهج منهجاً علمياً، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ﴾.[4]

وجاء في الحديث الشريف ﴿ العلم محي النفس ومنير العقل ومميت الجهل﴾[5]

"لا ريب أن القرآن هو الذي مهّد لصياغة المنهج العلمي، و النظرة العلمية القائمة على تقدير سنن الله في الكون و المجتمعات، فقد دعا القرآن إلى النظر العقلي، و المحاجّة بالدليل و إلى حرية الفكر و احترام العقل، وتكوين شخصية الفرد عن طريق البحث و العلم، ودعا إلى استخدام الإنسان للتفكير و التدبير و الذكر، ودعا إلى اعتناق الرأي نتيجة الاقتناع و التأمل دون إكراه، وفتح

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١
(٢) بحار الأنوار (ج١) ص ١٣٧
(٣) سورة الأنعام آية ١١٦
(٤) سورة الإسراء آية ٣٦
(٥) غرر الحكم

باب الاجتهاد تقديراً لتطور الحياة وما يجدّ فيها من الأحداث و المعاملات".[1]



(١) القرآن لأنور الجندي ص٢٤

مبارك:

تميّز القرآن كذلك بميزة وصف بها نفسه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ﴾.[1] وتكررت هذه اللفظة في وصف القرآن أربع مرات مع هذه الآية بقوله سبحانه و تعالى :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه و اتقوا لعلكم ترحمون ﴾.[2]

﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾.[3]

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾.[4]

ذكر الراغب في المفردات أن البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء. قال تعالى: ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض ﴾[5] ، وسمّي بذلك لثبوت الخير فيه، ثبوت الماء في البركة، و المبارك ما فيه ذلك الخير على ذلك ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾.[6]

وذهب المفسرون إلى معنى البركة حيث وردت في القرآن عبر هذه الآيات وبالتحديد مبارك، فقالوا: إنها تعني كثير الفائدة و النفع، أو أن القرآن خيره كثير.

و الحق يقال إن هذا المنهج السماوي الذي يحتوي على مجموعة من القواعد والنظم، فهي بركات ترقى بالإنسان إلى أعلى الدرجات، فهو يشكل

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٢
(٢) سورة الأنعام آية ١٥٥
(٣) سورة الأنبياء آية ٥٠
(٤) سورة ص آية ٢٩
(٥) سورة الأعراف آية ٩٦
(٦) نقلا عن تفسير الميزان (ج٧) ص٢٨٠

مصدر الكون و الحياة وما ورائهما، بشرط إتباعه، ولذا قال سبحانه: ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه** ﴾.[1] فبالإتباع و الالتزام تكون تلك التشريعات و النظم و القواعد، تحفز الإنسان نحو الرقي و التقدم و النمو و الخير، وحينها تعم هذه البركة البشرية جمعاء، في كل حقول العلم و المعرفة و العمل الصالح إلى يوم الدين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض** ﴾.[2]

فهو منهج مبارك إذاً بشرط أن يتحول التشريع وتلك النظم و القواعد إلى ما ينتفع الناس به، فتزيد البركة ويعم الخير، وذلك لا يكون إلا باجتماع شملهم، وقوة جمعهم، ووحدة كلمتهم، وكذلك تكريس قيم الدين و الأخلاق في نفوسهم، وترجمة ذلك إلى عمل بإزالة الضغائن و الأحقاد من القلوب، و إنشاء الأمن و السلام، فكل ذلك مدعاة لرغد العيش، وطيب الحياة، و الاستظلال بمظلة السعادة.

ولا شك أن المنهج المبارك بهذا الشرط ينعكس على شخصية الإنسان، ويكون هو مبارك بذلك المنهج المبارك، لأن هذا الإنسان هو الذي يجعل ذلك النفع الذي شمله و انعكس على شخصيته يعم غيره، فيكون معطاءً أو نفاعا للآخرين دون حدود لنفعه، فلا يحد نفعه بالحدود الزمنية أو المكانية أو الجنسية، فكما أن الكتاب منهج ورسالة نفعها للجميع، بلا فرق بين مكان وزمان وجنس أو عنصر، كذلك من يتبع الكتاب يكون مباركاً في عطائه للآخرين، دون النظر إلى جنسهم أو مكانهم أو بلدهم أو زمنهم، ولذا قال

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٥

(٢) سورة الأعراف آية ٩٦

سبحانه وتعالى: ﴿ وجعلني مباركاً أين ما كنت ﴾[1] ، و الخطاب في هذه الآية يختص بالنبي عيسى (ع) حيث تكون بركته شاملة، في كل مجال، وعلى كل صعيد، وفي كل وقت.

قال النبي (ص) قول عيسى (ع) وجعلني مباركاً أين ما كنت. قال: ﴿جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت ﴾.[2]

وكما أن الإنسان يطمع أن يكون هو مبارك يعم خيره الجميع، يطمح أيضاً في أن ينال هو أيضاً من ذلك الخير و النفع، وليس من العيب أو الخطأ أن يتمنى الإنسان الحصول على جزء من تلك البركة التي جعلته نفّاعاً أن ينتفع منها هو مادام على منهج القرآن، ومتبعاً ومطبقاً لبرامجه، فيقول ربّنا سبحانه وتعالى في قصة نوح ﴿ وقل ربي أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين ﴾[3] ، كما قال النبي (ص) لعلي (ع): ﴿ يا علي إذا نزلت منزلاً فقل اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين ﴾.[4]

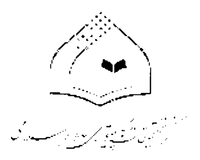
فالقرآن كمنهج سماوي ورسالة ربانية، فإنه أيضاً دعوة إلى الانطلاق لإقامة العدل في الأرض، و إشاعة السلام، ونشر الخصال الإنسانية لأنه نور يهدي به الله من اتبع رضوانه، فيخرج الإنسان من الموت إلى الحياة، ومن اليأس إلى الرجاء، ومن الكسل إلى النشاط، ومن السكون إلى الحركة، ومن الذل إلى العز، وتلك هي السعادة الكبرى، و البركة المرجوة من هذا المنهج، يقول النبي محمد (ص): ﴿ فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم

---

(١) سورة مريم آية ٣١
(٢) الدر المنثور (ج٤) ص٢٧٠
(٣) سورة المؤمنون آية ٢٩
(٤) نور الثقلين (ج٢) ص٥٤٤

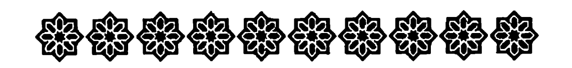
بالقرآن ﴾.[1]

فإذا رجعنا إلى القرآن، وتداوينا به، وصححنا أخطاء المجتمع فإننا سنحصل من خلال ذلك على النفع الكثير، و الفائدة الكبيرة، و البركة الكثيرة.



(١) أصول الكافي (ج٢) ص ٥٩٨





٩

قرآننا والدعوة

* اسس الدعوة القرآنية
* كونوا موحدين
* لعلهم يتفكرون
* إعملوا...
* إلى السلام .. إلى الرفاه
* مع الأمة الواحدة





أسس الدعوة القرآنية:

القرآن نور و برهان و تبصرة و ذكرى و فرقان وهدى و بشرى، ألم يقل ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ قد جاءكم برهان من ربكم، و أنزلنا إليكم نوراً مبينا، فأما الذين آمنوا با لله و اعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه و فضل و يهديهم إليه طراطاً مستقيما﴾.[١]

إنه ذلك النور المشع، الذي جاء ليكتسح الظلام، فيضيء للإنسان جوانب حياته، إنه البرهان القاطع على تلك القيم الربانية الصادقة، و البرامج السليمة التي هي خير لمن اتبعها، و اعتصم بها.

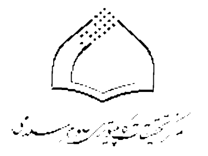
فالنور إذا اقتحم قلب الإنسان، و ثبت البرهان في عقله، فإنه يُطَمْئِن قلبه بما جاء به هذا الكتاب، فيؤمن به بما رأى من تلك التشريعات التي تتوافق و فطرته، كعبد ا لله بن سلام و أصحابه من النصارى فيقول ربّنا سبحانه وتعالى عنهم: ﴿و الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾.[٢]

إلى جانب أنه نور فإنه يُصدق بالدليل و البرهان لما عندهم من كتاب (التوراة و الإنجيل)، و يتجاوب القرآن مع كتابهم في الأصول العقائدية و الحكمية، و قد بشّرت به كتبهم جميعها، فمن يتحرى كهؤلاء عن الحقيقة، فإنه يجد النور و يفرح قلبه، و من ينكر فإنه يعيش الظلام و الحيرة، و هناك فعلاً قسم أنكر، كما يقول القرآن ﴿ و من الأحزاب من ينكر بعضه﴾[٣] ، فهو لم يتحرى عن الحقيقة أو تحرى و لكنه رفض استقبال ذلك النور المنبعث و المنقذ له؛ خسر دنياه و آخرته.

---

(١) سورة النساء آية (١٧٤-١٧٥)
(٢) سورة الرعد آية ٣٦
(٣) سورة الرعد آية ٣٦

فيا ترى عما يتحرى الإنسان في هذا الكتاب، وما هي تلك الأسس و الركائز و الأصول التي يبحث عنها في كتاب الله، و إلى ماذا يدعو هذا الكتاب، وما هي أسسه التي ارتكز عليها في دعوته؟.



كونوا موحّدين:

للتوحيد معنى متميز في القرآن الكريم، لا يدركه إلا أهل البصيرة و الفهم العميق، لأنه من المسائل التي يتوقف على معرفته، ويكون شرطاً أساسياً لإتباع و التزام ما جاء به هذا الكتاب، يقول الإمام علي (ع) في نهج البلاغة: ﴿أول الدين معرفته وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له﴾.[1]

ومما لا شك فيه أن معرفة الله الواحد الأحد معرفة فطرية، وحينما نقول أن المعرفة فطرية يعني أن عقل الإنسان ليس بحاجة إلى بذل جهد، و إقامة البراهين الفلسفية المنطلقة من قواعد معقدة حتى نثبت له ذلك، بل هو يدرك الأمر بسهولة، بالنظر إلى ما حوله من الوجود، و الظواهر التي تحيط به كإنسان، فيشعر أنها بحاجة إلى مدبر، ويتولد عنده من ذلك الشعور بأنها محتاجة إلى صانع يوجدها، وخالق لا يحتاج في إيجادها إليها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾[2] ، وعن الإمام الصادق (ع) انه قال: في تفسير هذه الآية الشريفة فطرهم على المعرفة.[3]

فبالمعرفة الفطرية تنشأ العلاقة القلبية، التي تربط الإنسان بقوة تعيش في أعماق قلبه، وتشعره بضعفه أمام هذه القوة الإلهية، و انه مجرد مخلوق من قبل خالق لهذا الكون، وقد يغفل بعض البشر عن هذه القوة الإلهية، لهذا فهم بحاجة إلى تذكير، وتنبيه عن غفلتهم، فكان الأنبياء حيث بعثهم الله للناس، كي

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١

(٢) سورة الروم آية ٣٠

(٣) المحاسن (ج٤ ٢٢٤) ص٢٤١

يذكروهم بهذه العلاقة القلبية، فيقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، و أشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾.(١)

وكما أن المعرفة للوجود الإلهي فطرية، كذلك التوحيد فطري، ومعنى هذا القول أن لا شريك لله عز وجل، كما يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾(٢) ، وتشير هذه الآية إلى تلك المعرفة الفطرية التي يقرّ بها العقل، بغرض الفساد بوجود الهين في الكون، لأن ذلك يخالف وحدة التنظيم، و الإتقان في النظام، التي تدل على أن الخالق في غاية الإبداع و الحكمة و الكمال، وهو في غنى عن الشريك.

و القرآن الكريم قد أشار إلى التوحيد و الدعوة إليه، و اعتبره أساساً لبناء المجتمع، و إقامة صرحه، برفض كل بديل، وفكرة غريبة، لا تنطلق من هذا الأساس ومن هذا المبدأ. كما و اعتبره المحرك الأول للفكر و الثقافة الإسلامية، التي تبني حاضر ومستقبل الأمة الإسلامية كما شيدته في الزمن الماضي، فهو يمثل المنطلق الحقيقي للنهوض و البناء و التقدم في عصرنا هذا وفي كل عصر.

و لم يكن التوحيد سمة القرآن و الإسلام فقط، بل هو سمة اتصفت بها كل الأديان السماوية جميعاً ، وقد دعت إلى وحدانية الله في هذا الكون، وما نهضت الأمة الإسلامية، وما استطاعت أن تُكوّن حضارتها، وتُقيم مجدها إلا

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٢

بمفهوم التوحيد، حيث أحدث نقلة حضارية من حالة الحضيض إلى حالة العلو و السمو، ومن هذا المبدأ لترسيخه في حياة المسلمين كقوله تعالى:

﴿ و إلهكم إله واحد، لا إله إلا هو ﴾.[1]

﴿ هو الحي لا إله إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين ﴾.[2]

﴿ و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾.[3]

﴿ فإلهكم إله واحد، فله أسلموا ﴾.[4]

﴿ هذا بلاغ للناس و لينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾.[5]

و أعلن القرآن صراحة أن التوحيد هو توحيد الألوهية الخالصة، ومن لا يقرّ بهذا مشركاً با لله، و أن الشرك حالة عارضة على فطرة الإنسان، باعتبارها تشكل انحرافاً فطرياً، و الشرك لا يعني عبادة الأصنام فقط أو قوى الطبيعة كالأجرام السماوية وما شابه ذلك، قد يكون الشرك أبعد من ذلك، حينما يتحول خضوع الإنسان للمتغيرات وما يقبل الفناء، وهذا ما حاولت الفلسفات الحديثة بدعوتها إلى ألوهية الإنسان، أو ألوهية المادة، أو اتخاذ الغريزة، أو لقمة العيش تفسيراً للوجود، وقد تكون هذه الدعوات الجديدة هي نفس الدعوات القديمة بلباس منمّق جذّاب المظهر و الشكل وفاسد المحتوى، وهذا هو أسلوب الحياة المعاصرة إذاً فهي دعوة إلى عبادة

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٣

(٢) سورة فاطر آية ٦٥

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٦

(٤) سورة الحج آية ٢٢

(٥) سورة إبراهيم آية ٥٢.

الأوثان بشكل جديد.

وتأكيد القرآن على مسألة التوحيد لأنه يشكل المرحلة الأولى للهداية القرآنية، و الإيمان با لله لا يتم إلا عبر وحدانيته، بل يتوقف كل عمل عبادي اجتهادي تربوي أو أخلاقي سياسي أو اقتصادي على معرفة هذا المبدأ، لأنه المنطلق الأول في الحياة.

روي عن المقدام بن شريح بن هاني عن أبيه قال: أن أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين أتقول بأن ا لله واحدا. قال: فحمل الناس عليه. وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب ؟ فقال أمير المؤمنين (ع): **﴿دعوهُ فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم﴾**.[1]

بل وتوحيد ا لله ينعكس على سلوك الإنسان، حينما يسلم وجهه لله الواحد الأحد في كل شيء، فإنه يشعر في قرارة نفسه بأن ا لله رقيب عليه في كل حين **﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾**[2] ، وحينها تكون مواقف الإنسان و أعماله منسجمة مع هذا المبدأ، فهو يبتعد عن كل ما يغضب ا لله، ويتقرب إلى كل أمر يرضيه خشية منه سبحانه وتعالى لا خوفاً من المجتمع، لأن ا لله تعالى يراه أينما كان و أنى يكون، فمن يؤمن بأن ا لله خالق الكون و الحياة و الإنسان. هو الواحد لا شريك له بيده الأمر و الحكم **﴿ بل لله الأمر جميعا﴾**[3]

---

(١) نقلا عن تفسير الميزان (ج٦) ص٩١
(٢) سورة غافر آية ١٩
(٣) سورة الرعد آية ٣١

﴿لله ملك السماوات و الأرض وما فيهنَّ وهو على كل شيء قدير﴾.[1]

فمن يؤمن به وحده لا شريك له، لا يستعين إلا به، ولا يطلب حاجته إلا منه، ولا يتوجه إلا إليه، ولا يدعو غيره إذا أصابته مصيبة، ولا يشكر غـيره إذا حصل على نعمة، و إذا كان في بلاء وشدة فلا يلجأ إلا إليه، و إذا فعـل خـيراً فلا يرجو الثواب إلا منه، و إذا أراد النجاة فرّ إلى الله عز وجل.

---

(١) سورة المائدة آية ١٢٠

لعلهم يتفكرون:

مواقف الإنسان في الحياة إما أن تكون ارتجالية اعتباطية وهي التي لا تكون نتيجة التفكير بل نتيجة الطيش و الغضب و الغفلة، و إما أن تكون مواقف عملية وهي تأتي بعد التأمل و النظر و استخدام العقل و التروي قبل إطلاق الأحكام ووضع القرار.

هذا ما دعا إليه القرآن حيث أراد من الإنسان أن ينظر إلى عواقب الأمور، فاستعمال عملية التفكير في الأمور التي تصادف الإنسان في حياته تؤمن له الطريق السليم وتوصله إلى شاطئ الأمن و السلامة.

فبالتفكير ﴿ تنجلي غياهب الأمور ﴾[1] وتتضح معالم الطريق، وتكون العاقبة حسنة، ولا يقع الإنسان في الخطأ و الزلل، وتكون نظرته إلى المستقبل سليمة، وقد جاءت مجموعة روايات عن أمير المؤمنين تؤكد ذلك فعنه (ع):

﴿ الفكر يوجب الاعتبار ويؤمن العثار ويثمر الاستظهار ﴾،

﴿ مازال من أحسن الفكر ﴾،

﴿ مَنْ طالت فكرته حسنت بصيرته ﴾،

﴿ كل يوم يفيدك عبراً أن أصبته فكراً ﴾،

﴿ أصل السلامة من الزلل الفكر قبل الفعل و الروية قبل الكلام ﴾،

---

(١) غرر الحكم (عن أمير المؤمنين(ع))

﴿ الفكر في الخير يدعو إلى العمل به﴾.[1]

و القرآن الكريم قد بيّن من خلال آياته، ودعا إليه، وجعله مسؤولية يتحملها الإنسان في الحياة حتى يتعرف على أموره من خلالها.

فقد جاء في القرآن الكريم

﴿ كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾.[2]

﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾،[3]

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾.[4]

فالإنسان المكلف مسؤول عن نفسه، وعن مجتمعه مسؤولية تجعله يفكر في مصيره في هذه الحياة، ويجعل منها حياة مليئة بالخير و السعادة.

وقد تكررت كلمة يتفكرون في القرآن الكريم عشرة مرات وهي دلالة واضحة على دعوة الإنسان لإثارة عقله، وتحريك تلك الأفكار للوصول إلى الحقيقة، ومعرفة الأشياء وذلك كان هو الهدف من دعوة القرآن إلى التفكير.

اعتمد القرآن الكريم في دعوته هذه على العقل ليتحرك ضمن ساحته فتثار لديه المعلومات ويقوم بعملية الربط بينها وبين خالق هذا الكون.

فإذا كانت عملية التفكير مسؤولية حمّلنا القرآن إياها لمقاومة الغفلة في

---

(١) غرر الحكم
(٢) سورة يونس آية ٢٤
(٣) سورة النحل آية ١١
(٤) سورة الزمر آية ٤٢

الحياة ولمعرفة الحقيقة، فإنها لم تقتصر على التفكير في الدنيا للآخرة فقط بل تجاوزت هذا الحد، فربما قد تكون عملية التفكير في الدنيا أيضاً، كي ينشأ الإنسان فيها صحيحاً قوياً قادراً على مواجهة الظروف و المستجدات في الحياة. فلم يكن التفكير حكراً على جانب دون جانب، بل على الإنسان أن يطلق عنان تفكيره في كل شيء حتى يتوصل إلى الحقيقة المرجوة من خلاله، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون في، الدنيا و الآخرة**﴾.(١)

أولسنا اليوم نواجه خطراً يتهدد حياتنا من الكوارث الطبيعية وغيرها بحاجة إلى ما نتصدى به للوقوف أمامها ؟.

هل فكرنا ملياً في السبل و الطرق التي بها نستطيع أن نتجاوز كل هذه المشاكل ؟

فعن طريق التفكير تقدمنا في علم النبات حتى وصلنا إلى درجة كبيرة. وفي علم الطب أصبحت تُستبدل أعضاء الإنسان، وكأنها قطع غيار لسيارة قديمة فيحاول الطب أن يقضي على جميع الأمراض. وفي الصناعة و الاختراعات وتأمين وسائل الحياة و الراحة استطاع أن يكتشف أموراً تصله عبر الأزرار دون أن يتحرك بل تجاوز بتفكيره حدود الأرض، و انطلق في الفضاء يجوبه، وكأنه يمشي في الأرض ليكتشف أسراره.

هل انتهى تفكير الإنسان إلى هذا الحد ؟ وهل وصل تفكيره وبما ارتقى إليه من تقدم وتطور إلى درجة الاكتفاء. وهل استطاع القضاء على ما يتهدده

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٩-٢٢٠)

ويوصله إلى النهاية ؟ بالطبع كلا.

فالقرآن إذاً يُكرّس عملية التفكير هذه ويشدّد عليها، ويطلق العنان للإنسان كي يستخدم تفكيره في كل شيء في هذا الوجود حتى تتكامل لديه الرؤية، وتتضح له معالم هذه الحياة الدنيا، ويرى من خلال ذلك الآخرة عندما يصل من خلال تفكيره في هذا الكون إلى معرفة وقدرة الله عز وجل، و إلى حكمته، وتدبيره لهذا العالم.

فالقرآن دعانا إلى التفكير في كل شيء. فيا ترى هل ذُكر ذلك في القرآن؟ وما هي تلك الأمور التي دعانا إلى التفكير فيها ؟

أولاً: التفكير في الخلق:

عالم الخلق هذا العالم الواسع اللامتناهي بحاجة إلى أن ينظر الإنسان إليه نظرة تفكّر في نظامه، وفي خلق السماوات و الأرض و ما عليها، حتى يعلم أن الله لم يكن يخلق جزءاً صغيراً من هذا الكون إلا وله حكمة وغرض، فعليه أن يرفع الغشاوة من على عينيه، ويجول ببصره ويشغل فكره، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾[1] ،

﴿ قل انظروا ماذا في السموات و الأرض ﴾.[2]

وقد ركّز القرآن على استعمال الحس بتحكيم العقل عن طريق النظر حتى يعتقد الإنسان ويؤمن، فكانت الادراكات العقلية مدعمة بالشواهد الحسّية،

---

(١) سورة العنكبوت آية ٢٠

(٢) سورة يونس آية ١٠١

فخاطبه القرآن حتى يستكشف أسرار هذا الخلق، ويعترف على نظامه وسنّته، فجعل الحواس أصل علمي وقرآني، حتّى ينظر الإنسان من خلال بصيرته، ويقف على خفايا و أسرار هذه الطبيعة، ويتعرف على قوانين هذا الكون، ويسخرها في خدمة الإنسانية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **ويتفكرون في خلق السماوات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾.[1]

ويقول أيضاً: ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، و إلى السماء كيف رفعت، و إلى الجبال كيف نصبت، و إلى الأرض كيف سطحت، فذكّر إنما أنت مذكّر** ﴾.[2]

ولعل الهدف من النظر في الكون و التفكير في الخلق هو تكامل المعرفة عند الإنسان، و التعرف على الذات الأزلية، و القدرة المطلقة التي تجلّت حكمته في هذا الخلق، وبتكامل المعرفة عنده يتجه الإنسان نحو الكمال حينما تتكامل رؤيته لهذا الكون.

ثانياً: البداية و المصير:

لعل تميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات هو محل ملاحظة وتأمل للإنسان نفسه، فيجعله دائم التفكير فيما يتميز به جنسه عن الأجناس الأخرى.

و المشاهد الحية التي يستعرضها القرآن الكريم في كيفية خلق الإنسان لا نجدها تستعرض بالنسبة لبقية المخلوقات، وما ذلك إلا لبيان هذه المراحل التي يمرّ فيها الإنسان المخلوق حتى يرى نور الوجود، وتكمن في هذه المراحل

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١

(٢) سورة الغاشية آية (١٧-٢١)

مجموعة أسرار وخفايا لا يستكشفها الإنسان نفسه، و ان استكشفها العلم الحديث فهو يبقى عاجزاً عن معرفة كل الأسرار وحل الخفايا، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك ا لله أحسن الخالقين ﴾.[1]

وَيَنْصَبّ التفكير في مبدأ خلق تلك النطفة النتنة التي تكون منها هذا الإنسان، من قطرة ماء تصرّفت يد القدرة فيها، فخلقت منه رجلاً سويّاً، يبصر ويمشي ويأكل ويتكلم ويسمع ويعقل ويفكّر ﴿ فلينظر الإنسان ممّ خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب ﴾[2] ، ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾.[3]

فالقرآن يحرص على تذكير الإنسان بكيفية خلقه وتقلبه وضعفه، فيلفته إلى تكونه من تراب أو طين أو من نطفه، وكل ذلك كي لا يتجاوز الإنسان حدوده التي تكوّن منها، ويعرف أن مصيره مرهون بهذه الخلقة.

فحينما يفكر في بدايته كيف كانت ؟ فيعرف مَن هو وكيف يجب أن يكون مصيره.

فكما يجب عليه أن ينظر إلى تلك البداية ومراحلها، عليه أن يتمعن جيداً لكي يكون مصيره حسنا عند ا لله، فقد وهبه ا لله تعالى وسائل التعقل و التبصر، و التمييز بين الخير و الشر، وذلك جوهر إنسانيته، وحَمَّله الأمانة،

---

(١) سورة المؤمنون آية (١٢-١٤)
(٢) سورة الطارق آية (٥-٧)
(٣) سورة الإنسان آية ٢

فعليه أن يتحمل التبعات، ويكون مسؤولاً عن تصرفاته وسلوكه، يقول سبحانه:

﴿ و أن ليس للإنسان إلا ما سعى، و أن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[1]

﴿ وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾.[2]

فلهذا الإنسان قصة عجيبة في رحلته العابرة بين الحياة و الموت فكما دعاه القرآن إلى التفكير ليرفع عن نفسه الحيرة و الشك، و التفكير ليس في بدايته وحياته التي يعيشها في الدنيا، بل النظر و التأمل إلى ما بعد هذه الحياة المادية حيث الحياة الأخروية دفعا لحيرة الإنسان، وما يشغل باله، فجاء من أمر تلك الحياة التي أكدتها رسالات الدين، وما يجهده من التفكير الدؤوب في تصوره، فيقول سبحانه: ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما متُ لسوف أخرج حيا، أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾.[3]

ويقول أيضاً: ﴿ أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾[4]

ويقول أيضاً: ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة، فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم، قل يحيها الذي أنشأها أول مرةٍ

---

(١) سورة النجم آية (٣٩-٤١)
(٢) سورة الإسراء آية (١٣-١٤)
(٣) سورة مريم آية (٦٦-٦٧)
(٤) سورة المدثر آية (٣-٤)

وهو بكل خلق عليم ﴾.[1]

ليس هذا فحسب ما يقدمه القرآن إلى الإنسان في إمكان البعث، بل انه يضع أمام بصره وبصيرته وحسه ووجدانه آية القدرة الإلهية في إرجاع الخلق الأول، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾[2]

ويقول أيضاً: ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً، قل كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾[3] مازال ولا يزال القرآن يثير عقل الإنسان حول الكثير من القضايا ويحرك تفكيره، مستعرضا له مجموعة من الشواهد، التي تبين بدايته، ومراحلها، ومصيره، وما يلاقيه في الحياتين الدنيا و الآخرة.

ثالثاً: التفكير في الظواهر الكونية و العلوم الإنسانية:

دعا القرآن بإلحاح إلى التأمل في الكون، ومراقبة الأحداث التي تجري فيه، و استنطاق الظواهر الطبيعية للوقوف على عظمة الخالق، بل أبعد من ذلك حيث دعاه إلى التفكير في استخدام وتسخير ما في الكون من قوى وموجودات لخيره وسعادته، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع و الزيتون و النخيل و الأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون،

---

(١) سورة يس آية (٧٧-٧٩)
(٢) سورة ق آية ١٥
(٣) سورة الإسراء آية (٤٩-٥١)

وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجون منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[1] وقد تعرّض القرآن إلى كثير من الظواهر التي تحيّر فكر الإنسان، حيث لازال يتأمل ويفكر فيها مع ما وصل إليه، فلو أردنا أن نستعرض تلك الآيات لطال البحث.

وكذلك تعرّض القرآن ودعا إلى التفكير في العلوم المرتبطة بالبيولوجيا كعلم الأجنة وما يتصل بها، قال تعالى: **﴿ فلينظر الإنسان ممّ خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب و الترائب ﴾**.[2]

و الدعوة قد اتسعت إلى التفكر في علم الفلك، وما يرتبط به من علم الجيولوجيا و الجغرافية، وكذلك إلى التفكر في علم النبات، و النظام الذي يسير عليه، وفي خلق الحيوانات، و آثارها، وما يظهر منها في الحياة.

"بهذا الشكل يدعو إلى تعلم العلوم الطبيعية و الرياضية و الفلسفية و الأدبية وسائر العلوم التي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنساني، ويحث على تعلمها لنفع الإنسانية، و إسعاد القوافل البشرية".[3]

انه يدعو إلى هذه العلوم بشرط أن توصل الإنسان إلى معرفة الحقيقة التي توصله إلى عظمة الخالق.

---

(١) سورة النحل آية (١٠-١٤)
(٢) سورة الطارق آية ٥
(٣) القرآن في الإسلام ص١٣٦

رابعاً: التفكير في السنن التاريخية:

يعتمد القرآن في عرضه للوقائع التاريخية و الأحداث التي جرت على الأمم الماضية بإسلوب متميز، حيث يدعو الإنسان من خلاله إلى الاعتبار، و اخذ العظة و النظر و التدبر في الحوادث التاريخية التي مرّت بها البشرية، ويستخدم القرآن أحياناً أسلوب القصة كي يطرح بعداً تاريخياً، ويقدم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية في إطار المنهج الإلهي، لبيان الحكمة من وراء هذه الحركة التاريخية التي مر فيها البشر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾.[1]

ويقول أيضاً: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾.[2]

ويقول أيضاً: ﴿ **و انظروا كيف كان عاقبة المفسدين**﴾.[3]

وتقدم القرآن ببيان نماذج تاريخية على ذلك، لكي تكون شاهداً موثقاً لهذه الحقيقة، وتكون أبلغ في الأثر على نفوسنا، ونعتمد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونستفيد منها في جميع المراحل الزمنية التي تمر فيها الحركة الإنسانية، فمن تلك النماذج يقول القرآن الكريم: ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب**﴾[4]

ويقول أيضاً: ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم و آتيناه من الكنوز ما إنّ**

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٧
(٢) سورة النمل آية ٦٩
(٣) سورة الأعراف آية ٨٦
(٤) سورة الفجر آية (١٠-١٣)

مفاتحه لَتَنُوأُ بالعصبة أولي القوة ﴾.[1]

ويقول أيضاً: ﴿ وقوم نوح لما كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آيـة و اعتدنا للظالمين عذابا أليما، وعادا وثمـودا و أصحـاب الرّس وقروناً بـين ذلـك كثيرا، وكـلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تَبّرنا تتبيرا ﴾.[2]

وفي بعض الأحيان يقدم لنا القرآن الكريـم أسـلوب الصيغـة العامـة لسـنن التـاريخ و القوانـين و الضوابـط الـتي تحكمـه تكـون منظـاراً للأمـم ومسـارها الاجتماعي الصحيح، كما في قوله تعالى: ﴿ ولو يؤاخذُ ا لله النـاس بمـا كسـبوا مـا ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرُهم إلى أجلٍ مسـمّى، فإذا جـاء أجلهـم فإن ا لله كان بعباده بصيراً ﴾.[3]

في المجتمع الواحد يتفاوت الناس في مستوياتهم الإيمانية، ودرجات التقـوى لديهم، فليس كلهم ظلمة ولكـن مـع ذلـك فـإن عـذاب رب العـالمين يشـمل الجميع في المجتمع حينما يتخلـى عـن مسؤوليته ويداهـن الواقـع السـيئ دون أن يحرك ساكنا فحينها يكون شريكاً في تكريسه فيشمله العذاب أيضاً، وهذه هي إحدى السنن التاريخية في القرآن.

إعملوا ...

بُني الكون على الحركة و النشاط و الحيوية، فكان مـن جمالـه أن لا تبقـى الموجودات فيه على سكون، بل بتحركها تزيـده جمـالاً ودقـة وتنظيمـاً، فـتراه

---

(١) سورة القصص آية ٧٦
(٢) سورة الفرقان آية (٣٧-٣٩)
(٣) سورة فاطر آية ٤٥

دائماً في حركة منظمة متناسبة ومنسجمة مع بعضها البعض، فليست هي حركة عشوائية أو بمجرد حركات شكلية كالصور التي يرسمها الفنان، ويضع أشكالها حسبما يريده.

الشمس تتحرك في فلكها ولو قدّر لها أن انحرفت قليلاً لأختل ميزان الكون، و القمر يستمد ضوءه من الشمس ليلاً.

وكما أن الإنسان يموت ويولد فالكواكب و المجرات تموت وتولد، أليس العلم قد سجّل حالة من ذلك وهي ولادة مجرّة جديدة في النظام الشمسي.[1]

﴿ إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾.[2]

﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين ﴾.[3]

وليس الكواكب و المجرات وحدها في هذا الكون، بل هناك مخلوقات متحركة، بل حتى الحيوان و النبات و الإنسان فهو يمر في مراحل متحركة عمودية و أفقية، فهو يتحرك في مكانه حيث ينمو ويكبر ويتغير ويتلون ويتلاشى ويتحرك من مكان إلى أي مكان حسب قدراته وطاقاته و إمكانيته المحدودة، فهو في حركة دائمة، وذلك ما أعطى لهذا الوجود جمالاً ورونقاً وزينة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾.[4]

---

(١) ذكرت ذلك جريدة الحياة ببيروت العدد الصادر بتاريخ ٥/٤/٩٦م

(٢) سورة الصافات آية ٦

(٣) سورة الحجر آية ١٦

(٤) سورة الكهف آية ٧

ويقول أيضاً: ﴿ المال و البنون زينة الحياة الدنيا ﴾.[١]

ويقول أيضاً: ﴿ و الخيل و البغال و الحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾.[٢]

ولعل أكثر المخلوقات حركة هو الإنسان فيستفيد من تسخير الحركة وذلك النشاط في خدمته وخدمة الإنسانية، باستغلال تلك الطاقات المودعة في هذا الكون و القوى و الإمكانيات الموجودة على هذه الأرض باستخدام عقله، وبما يمتلك من حرية و إرادة واعية لما تفعل، حيث لا نجد ذلك في بقية مخلوقات الله في هذا الكون فهي إما مسيّرة فلا حرية لها، أو مطلقة الحرية فلا عقل لها.

ولعل الحركة و النشاط هي التي تميز بها الإنسان في هذا الوجود، وعقله متفوقاً في الحياة، و القرآن الكريم قد دعا الإنسان إلى رفض الجمود، و الابتعاد عن الكسل و الخمول في الحياة لأنه يفقدها العطاء، وبالتالي تموت، ويموت معها كل شيء، فتصبح جحيما لا يطاق.

وقد جاء القرآن ودعا إلى ما يتوافق مع فطرة الإنسان وطبيعته، ليجعل محل الكسل و التواني و الجمود مكانه العمل الدؤوب، وقد ركّز عليه من خلال آياته التي وردت في الكتاب العزيز في أكثر من (٣٠٠) آية[٣] حيث أن الإنسان رهين بعمله و بدون العمل، لا يتقدم ولا تتقدم، معه الحياة، ولا خطوة واحدة.

---

(١) سورة الكهف آية ٤٦
(٢) سورة النحل آية ٨
(٣) يراجع المعجم المفهرس (مادة عمل)

وقد جعل القرآن محور الأعمال العمل الصالح الذي به تتقدم الحياة، ويتقدم الإنسان، ولذا نجد أن القرآن قد شبّه العمل بالطائر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾.[١]

فالطائر الذي ألزمه الله الإنسان في عنقه هو عمله، ومعنى إلزامه إياه أن الله قضى أن يقوم كل عمل بعامله، ويعود إليه خيره وشره ونفعه وضره، وقد استفيد من قوله تعالى: ﴿ و إن جهنم لموعدهم أجمعين .... إن المتقين في جنات وعيون ﴾[٢] فمن القضاء المحتوم أن حسن العاقبة للإيمان و التقوى، وسوء العاقبة للكفر و المعصية.

"ولازم ذلك أن يكون مع كل إنسان من عمله ما يُعين له حاله في عاقبة أمره معية لازمه لا يتركه، وتعييناً قطعياً لا يخطئ ولا يغلط، و أن مصير الطاعة إلى الجنة، ومصير المعصية إلى النار".[٣]

و التقدم السليم لا يقوم إلا إذا روعيت فيه شروط الإنسانية، حتى لا يخرج عن إطارها إلى الهمجية و البربرية فيستغل ذلك التقدم في دمار الإنسان، وضياعه بين الآلة الحديثة التي أصبح جزءاً منها.

قال تعالى: ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها ﴾.[٤]

وقال أيضاً: ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة

---

(١) سورة الإسراء آية ١٣
(٢) سورة الحجر آية(٤٣-٤٥)
(٣) الميزان (ج١٣) ص٥٥
(٤) سورة الإسراء آية ٧

طيبة﴾.[1]

فيطرح القرآن معادلة العمل الصالح كي يؤدي إلى التقدم السليم، فيقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿ و أمّا مَنْ آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾.[2]

فالإنسان المؤمن زائد العمل الصالح يساوى التقدم السليم فيقول ربّنا عز وجل: ﴿ و أن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾.[3]

﴿ كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾[4] و الفرق في ذلك أيضاً أن المؤمن من ينظر بعين البصيرة، لامتلاكه الرؤية البعيدة للمستقبل، دون النظر إلى الشهرة أو اللحظة الراهنة أو المصلحة السياسية، أو ما شابه، بعكس مَن لا يمتلك الإيمان أو روحه، فهو لا ينظر بهذه النظرة الإيمانية الثاقبة.

وعمل المؤمن قد يبقى، ويثاب عليه في الدنيا و الآخرة لأنه انطلق من النية النابعة من إيمانه الراسخ.

ويبقى أن نُنبه إلى أن العمل مطلق لا ينحصر بالمؤمن فقط، فالكل يعمل، ولكن الفرق في نوعية العمل ووجهته، أهي إلى الخير أم إلى الشر، إلي السعادة أم إلى الشقاء.

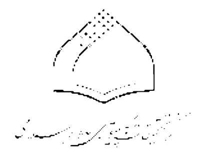
ما أن منطلق العمل أهو النية الخالصة نتيجة العقيدة السليمة أم الهوى و

---

(١) سورة النحل آية ٩٧
(٢) سورة الكهف آية ٨٨
(٣) سورة النجم آية ٣٩
(٤) سورة الإسراء آية ٢٠

المصلحة و الأغراض الشخصية !.

النية الصالحة لا تنبع إلا من الإيمان وهي التي تنتج العمل الصالح، عن الإمام الصادق (ع): **﴿ لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة ﴾.**[1]



(١) أصول الكافي (ج١) ص٧٠

إلى السلام.. إلى الرفاه:

كل آيات القرآن دعوة إلى السلام، فلم يقتصر القرآن على آيات عدة دعت المسلمين إلى أن يدخلوا في السلم كافة، بل لم يكن الهدف من الدعوة الإسلامية إلا لينعم الناس، ويسعدوا في الحياة الدنيا، ويستظلوا تحت ظل العدالة الإسلامية القائمة على مبدأ الحق و المساواة، وبذلك يرتفع الظلم بين البشر فلا ظالم إلا وقد أُقتص منه، ولا مظلوم إلا وقد أُخُذ له حقه فيأمن المجتمع ويعيش في سلام دائم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات و أنزلنا معهم الكتاب و الميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾.[1]

وهكذا كانت رسالات ربّنا فقد جاءت إلى الناس بما فيه خيرهم وشرهم، وبشرّتهم بالحياة السعيدة بدعوتهم إلى عبادة الله القائمة على توحيده، ونفي الشرك ونبذ عبادة الأصنام، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾.[2]

و القرآن بذلك أراد أن يبني مجتمعاً بل أمةً تسودها قيم صادقة كقيمة العدالة يشترك فيها المجتمع، وينعم تحت ظلها كل البشر.

وليست العدالة إلا قيمة من القيم التي ركّز عليها القرآن من مجموعة قيم أخرى لها مدخلية في أمن و استقرار المجتمع، كالقيم الأخلاقية مثل الصدق و الوفاء و الحلم و العطف و الإيثار و الرحمة، كل هذه يجعل من الإنسان مُحترما لمشاعر الناس ولا يتعدى على حقوقهم الشخصية أو الحقوق العامة،

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥

(٢) سورة هود آية ٦٩

حينما تنعكس هذه القيم على شخصيته فيكون ملتزما بها.

و القيم الاجتماعية و الآداب الإسلامية جاءت لترسيخ جذور المحبة و السلام كي ينعم هذا الإنسان بالخير و الرفاه.

وقد اعتبر القرآن السلام أصلاً من أصول الحياة و أعطاه أهمية كبرى، بل وقد أصّله عن طريق كل السبل المؤدية إلى السلام، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله مَن اتّبع رضوانه سبل السلام﴾.[1]

وقد جاءت لفظة السلام مطلقة في القرآن الكريم بحيث تشمل كل طريق وسبيل يؤمن السلامة، ويُبعد كل شقاء من شأنه أن يخل سعادة الحياة الهانئة في الدنيا و الآخرة.

ولذا جاءت فكرة الصلح بين الناس، و إقامة علاقات اجتماعية حسنه دون أن يشوبها شيء، وقد أفرد كل العلماء الأفاضل في رسائلهم العملية باباً خاصا باسم باب الصلح، ووضعوا شروطاً خاصة بالمتصالحين من حيث البلوغ و العقل و الاختيار و القصد وعدم الحجر بسفه أو غيره ... الخ. وما أهمية ذلك إلا لاهتمام القرآن بتحسين العلاقات الأخوية بين الناس كافة.

قال تعالى: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[2]

وبناءً على ذلك قد وجّه القرآن دعوته إلى الناس للدخول في هذا الأصل و الاستجابة لنداء السماء في ترك اتباع خطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿ يا أيها

---

(١) سورة المائدة آية (١٥-١٦)

(٢) سورة فصلت آية ٣٤

الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.[1]

ولعل السبيل إلى الأمن و الاستقرار وسيادة الحرية التامة في المجتمع، هو بسد كل الثغرات التي ينفث منها الفكر المسموم و الثقافة المنحرفة التي تؤدي إلى المشاحنات و البغضاء و العداوة، فلم ينظر القرآن إلى السلام إلا من خلال تلك الأهداف التي أراد تحقيقها كي تصل هذه الرسالة إلى العالم، ويقيموا حضارة قوية متماسكة. فكان السلام مبدأ وشعارا ولغة للتخاطب بين الناس، فقد أصّله القرآن على هذا الأساس عند لقائه لأخيه فيكون البدء في الحوار و الحديث، ويكون لغة مشتركة بين الألسنة المختلفة.

ولا يتحول ذلك المجتمع إلى حالة تأصيل هذا المبدأ إلا بالقضاء على عوامل الدمار و الهدم بقطع جذور الفساد و أسباب الحرمان و الاستغلال، فلا حرب حياها ولا استعمار ولا استبداد في الحكم، وذلك لا يكون إلا ببث الوعي و الثقافة على جميع الأصعدة سواء سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية.

وحينها يسود السلام و إلاّ فليس هو مجرد شعار أو إعلام تتبجح به المنظمات الحقوقية أو السياسية أو الدول الكبرى.

كل ذلك لأن دعوة القرآن للسلام دعوة مكملة للحياة، فالإنسان يطمح إلى حياة هادئة سليمة يسودها الأمن و الاستقرار، ولا يتم له ذلك إلا بإتباع منهج ربّاني تستجيب له فطرته، ولا ينمو المجتمع نموا حضاريا وفي كل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨

الجوانب إلاّ في ظل الاستقرار و الأمن، لأن بذلك يتوفر للإنسان المناخ الصالح، و الجو الملائم للتفكير و الإبداع، فلا مصادرة للحريات، ولا ضياع للحقوق، ولا نظام مستبد، يجر البلاد إلى حروب مدمرة.

وسيادة السلام دلالة على الوعي و الثقافة المتقدمة و الفهم الكامل للشريعة الغرّاء، وتطبيق واعي لمفاهيم القرآن، فالشعوب المتخلفة و البعيدة عن روح القرآن و الثقافة الإسلامية تعشعش فيها رواسب الجاهلية و التخلف، وتتحكم فيها النعرات و الأحقاد و الضغائن، وتنمو فيها أسباب العداء، فتتحول إلى مجتمعات متصارعة مع بعضها البعض، فتنشأ فيها الجريمة، وتكثر بينها الحروب.

و أول ما عالج القرآن لكي يسود السلام هو شخصية المسلم، فبادر إلى وضع مجموعة قواعد و أسس لبناء هذه الشخصية وفق هدى الشريعة و الأخلاق الإسلامية، فهذّب هذه النفس حينما دعاها إلى الدخول في السلم، وذلك بعدم إتباع خطوات الشيطان، كما في الآية التي سبق الحديث عنها قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.[1]

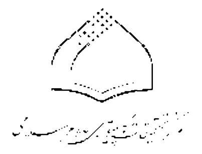
يقول العلامة السيد محمد تقي المدرسي في تفسير هذه الآية: أن رحاب السلام يتلوث بالحساسيات الصغيرة التي تتراكم على بعضها البعض حتى تصبح كسحابة، وعلى أي فرد مسلم داخل المجتمع أن يقاوم نمو هذه الحساسيات، ولا يتبّع خطوات الشيطان منذ البداية لأن الشيطان يستدرج

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨

الإنسان خطوة خطوة إلى الجحيم.

ولعل الاتصاف بصفة الإيمان تعتبر ركيزة أساسية في ترسيخ حالة السلام، فهي دعوة موجهة إلى هؤلاء المؤمنين بالله ممن طَهُرَت نفوسهم، وخلصت لله، و اتبعوا منهج الرحمان الداعي إلى التمسك بالحق، و ابتعدوا عن منهج الشيطان الداعي إلى الباطل.



مع الأمة الواحدة:

أزمة الثقة اليوم أصبحت خطيرة في النفوس الضعيفة و المشككة بكل شيء من حولها، خصوصا بعد توالي أزمات عديدة من التمزق الاجتماعي، و التخلف الحضاري الذي كان من نتاجه تقسيم الأمة الإسلامية الواحدة إلى عدة مجتمعات مقسمة تتفاوت صعوداً وهبوطاً في مستواها الحضاري.

و أصبحت الوحدة حلم يراود جميع أبناء الأمة الإسلامية بل وفي بعض الأحيان أنها كالسراب اللامع من بعيد، صعب المنال، ومستحيل التحقيق.

هذا هو ما يتفق عليه أغلبية أبناء الأمة الإسلامية. فالكل يدّعي بأن شيئاً أسمه الوحدة كان ولن يكون، وكلمة المستحيل هي التي طُبعت في أذهاننا لسنوات طوال، بعدما عانينا من الضعف و التحلل بين أبناء الشعوب الإسلامية، وخصوصاً تخلفنا على الصعيد التكنولوجي و الصناعي و التقني أضاف إلى بلوانا و إحباطنا ويلات كثيرة.

ولكن كيف يمكن أن نمحو هذا الإحباط ونردّ هذا اليأس من جديد. فما هو السبيل لذلك ؟ !

لعل هذا التصور ناشئ من عدم وضوح الرؤية المتكاملة لبرامج الشريعة الإسلامية في نظرتها إلى الحياة العملية، وكيف يتأقلم الإنسان فيها مع بني البشر، وبعبارة أخرى عدم امتلاك معالم واضحة لبرنامج الإسلام في كيفية الحكم و إدارة شؤون الناس، ومعرفة هذه المعالم تجعل من هذا الإنسان يمتلك رؤية واضحة حول برنامج الإسلام.

على المسلم أن يبحث في كتاب ربه عن نقاط القوة ونقاط الالتقاء بين أبناء المجتمع الواحد، ويبحث عن نقاط الضعف و الخلل الذي يمزق وحدة الأمة فيقاومه ويتصدى له، فالشعور بالإحباط و الحواجز النفسية ومشاكل الحياة المادية المتوارثة و المصطنعة - كالحدود و الإقليم و الوطن و القبيلة و الدم و العشيرة و العصبية و القوم - كل هذه حواجز دعا القرآن إلى عدم الاهتمام بها، وعدم جعلها عقبة أمام الالتقاء مع بعضنا البعض.

لم يلغها الدين من الأساس حيث لا يمكن ذلك، ولكن لم يجعلها أيضاً مقياسا للتعامل بين الناس، بل جعل الإيمان هو المقياس لترفع تلك الحواجز، أو التخفيف من حدتها حتى لا يتحول المجتمع إلى أحزاب وجبهات قومية ووطنية و إقليمية متصارعة، وجعل نقطة الالتقاء هي توحيد (الله) و التوجه إليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاعبدون**﴾.[1]

فالتوحيد فعلا نقطة التقاء بين البشر مع اختلاف طبائعهم و أمزجتهم ومللهم، و القرآن رسالة رب العالمين، انه نقطة التقاء أخرى بين المسلمين قاطبة مع اختلافهم في الجنس و اللون و اللغة، فربهم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم القرآن واحد، وقبلتهم واحدة، و أبيهم واحد، و أمهم واحدة، فألغى الإسلام كل الفوارق الإقليمية و القومية و العرقية وساوى بين أبناء الإنسانية ﴿**كلكم من آدم، و آدم من تراب** ﴾[2] ، وجعل المسلمين الذين ينضوون تحت راية ﴿ **لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله** ﴾، يتعاونون مع غيرهم من أبناء الديانات الأخرى وفق مجموعة من القوانين و الشروط وضعها الإسلام

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٢

(٢) بحار الأنوار (ج٧٠)ص٢٨٧

لتنظيم هذه العلاقة دون أن يكون هناك إجحاف أو تعرض لحق من حقوقهم، لأن التفاضل الحقيقي في عرف الإسلام هو التقوى قال رسول الله (ص): **﴿لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى﴾**.[1]

إذا وحدة الأمة في إيمانها بالتوحيد فإنها و ان اختلفت فكرياً ومذهبياً نتيجة الاجتهادات فهي تمتلك عناصر الوحدة فلا مبرر لتفرقها بعد ذلك، وهذه هي حقيقة الإيمان بالله سبحانه الذي يُعد أصلاً من الأصول، وعليه تقوم وحدة هذه الأمة **﴿ و أنا ربكم فاعبدون ﴾**.[2]

وتحقيق هذه الدعوة القرآنية التي تكررت في آياته بامتلاك الوسائل و الأساليب الكفيلة بتطبيقها، فهي ليست شعاراً أو مادة إعلامية، بل هي دعوة حقيقية لبناء حياة جديدة تختلف عن تلك التي اعتادها الناس، فقد اعتادوا بأن يعيشوا مع أبناء قومهم أو عشيرتهم دون الاختلاط مع جنس آخر، فالقرآن أراد أن تكون هذه الجنسيات تتأقلم مع بعضها البعض برفع تلك الحواجز النفسية و المادية و العرقية في حياة جديدة، كما صنع أول الدعوة نبي الإسلام محمد بن عبد الله (ص)، فبنى تلك الأمة الواحدة التي اشتركت فيها كل الجنسيات تحت راية واحدة، ورب واحد، وعقيدة واحدة، فخاطبهم القرآن قائلاً **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾**.[3]

ولعل القرآن يشير موضحاً إلى العوامل التي جعلت هذه الأمة أمة واحدة

---

(١) الترغيب (ج٣) ص٦١٢
(٢) سورة الأنبياء آية ٩٢
(٣) سورة آل عمران آية ١١٠

متماسكة البناء داخلياً تهابها الأمم الأخرى خارجياً، وكانت خير الأمم، لأنها اعتمدت الإيمان با لله ﴿ وتؤمنون بالله ﴾ سلوكا ومنهجا وقاعدة للانطلاق لبناء هذه الحضارة فكانوا حياتها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾.

كما أن القرآن يشير في آيات أخرى إلى منع حالة التمزق، وما ينتج عنها من مضاعفات تؤدي إلى جعل هذه الأمة متفرقة، وتكون لقمة سائغة للعدو متى ما شاء انقضَّ عليها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا من بعدما جاءهم البينات و أولئك لهم عذاب عظيم ﴾.[1]

ودعوة القرآن إلى إيجاد هذه الأمة كي تحقق نتائج إيجابية على صعيد المجتمعات المنضوية تحت هذه الوحدة حينما تسقط كل العوامل التي تؤدي إلى التمزق، فتنشط هذه المجتمعات في سعيها لتحقيق سعادة الحياة الإنسانية بمبدأ العمل الصالح القائم على أساس الإيمان ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[2]، و التكافل الاجتماعي القائم على أساس العدالة و المساواة وحرية الفرد المقننة ضمن ضوابط الشريعة، كل ذلك حياها يؤدي إلى استقلالية هذه الأمة في كل شيء، فيكون الاكتفاء الذاتي سمة رئيسية تتسم بها، فتكون مصدر خير و إلى خير، كما كانت حينما كانت تأمر بالمعروف، و تنهى عن المنكر، وتنهى وتؤمن با لله.

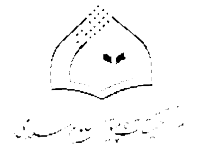
من هذا المنطلق نجد القرآن يؤكد على الالتزام بعناصر القوة في المجتمع، للحفاظ على تماسكه، ورفض كل عوامل الهدم و التفرقة وتمزيق وحدة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٥

(٢) سورة الرعد آية ٢٩

الصف، فيلغي العصبيات الجاهلية، وكما يجعل مقياس الإيمـــان كذلـك مقيـاس تكافؤ الفرص من غير فرق بين أصناف المسلمين.





١٠

القرآن هو البديل

* تساؤلات
* محاولات يائسة
* الجانب العلمي
* التطور والتحديث
* الجانب الانساني وبناء الحضارة



تساؤلات

هل هناك بديل عن القرآن ؟

وما هو ذلك البديل إن وُجِدَ وهل جربناه ؟

وهل نجحنا في تجربتنا، ثم ماذا انكشف لنا من تلك التجربة ؟

نجد الجواب على هذه التساؤلات في أربعة أمور:

أولاً: التاريخ

استقراء تاريخ البشرية ودراسة الماضي للأمم و الحضارات مسألة يؤكد عليها القرآن، كي يثبت من خلال ذلك أن الارتباط بالسماء يشكل عنصر قوة لبقاء تلك الحضارة وتلك الأمة، فيقول ربنا سبحانه وتعالى: **﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾**.[1]

و القرآن الكريم كتاب سماوي بيّن لنا بوضوح مدى ارتباط الإنسان بالسماء، وهو ارتباط بمصدر الخلق و الفيض الإلهي، وقد أشار إلى ضرورة النظر في أحوال الماضين، وجاء لنا بشيء من التفصيل عن مسيرة بعض الأقوام مع أنبيائهم ورسلهم، ومدى الدمار الذي لحق بهم من جرّاء تعنتهم وبغضهم للحق الإلهي، وكذلك تكذيبهم للمبشرين و المبعوثين لهم.

وما تلك الشواهد التاريخية الكثيرة في القرآن إلا من أجل أن يثبت أن هذه التحولات التاريخية وعدم استقرار الحضارات وسقوطها يكمن في تلك الإرادة

(١) سورة آل عمران آية (١٣٧-١٣٨)

الإنسانية، وموقف البشر حينما استخلفه الله في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾.[1]

فَنَقَضَ تلك المواثيق و العهود التي كانت بينه وبين ربه، وتخلى عن المسؤولية، ففصل بذلك نفسه عن السماء فسقط، وهوى.

ثانياً: تجارب البشر

وكما تكون حوادث التاريخ استشهاداً واعظاً لنا، ودليلاً كافياً على صحة أقوال القرآن، فكذلك أيضاً تجارب البشر، وما أنتجته من نظريات وآراء وقوانين تقلبت فيها أحوال الناس، و انتقلت من تجربة، إلى تجربة و لم تقف عند تجربة معينة حينما كانت تكتشف خطأ التي قبلها، ولنأخذ مثالاً على ذلك ما جاء به ماركس الذي أفسد عقول الكثير من الناس.

وملخص نظريته أن التباين الاجتماعي و الأخلاقي قد حصر أثره في العلاقات المادية بين البشر، متوهما بأن تبدل هذه العلاقات المادية في المجتمع ولو بالقوة، وإجبار الناس عليها، وإلغاء أي دور للدين هذا ما سيلغي التمايز الطبقي، ويكون مدعاة لتكوين النموذج الأمثل في العلاقات الإنسانية، ولكن مرت السنون وتوالت التجارب و الأحداث و انكشفت الأخطاء، وما كان الحصاد إلا الفشل، في حين أن القرآن الكريم وضع حلا للمجتمع السليم وهو حالة التوازن بين القيم الروحية و المادية، كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحا ﴾.[2]

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٢) سورة المؤمنون آية ٥١

الإنسان إلى جانب تمتعه بما لذّ وطاب في الحياة الدنيا عليه أن يعمل صالحاً أي يرضي ربه، و الناس من حوله، وهذا هو نموذج بسيط لعملية التوازن في المجتمع.

لم يصل الإنسان إلى ذلك لولا الرجوع للقرآن الكريم، و اللجوء لله سبحانه وتعالى مدبِّر الكون، وخالق الخلق.

ثالثاً: العقلاء

العقلاء يعتمدون قواعد تجعلهم يقارنون بين ما جاء به القرآن ورسالات السماء، وما جاؤوا به من عند أنفسهم، فيجعلون التناقض و التضاد قاعدة عقلية لرفض ما لا يتفق وهذه القاعدة، كما ويعتمدون النظر لمعرفة هذه الحقائق القرآنية، و انسجامها مع العقل، وعدم مخالفتها لها، وموافقتها للفطرة وطبيعة البشر، فتتأكد لديهم أن القرآن متناسق في كل أبعاده الفكرية و التقنية و الإنسانية مع هذا المخلوق البشري، فهم بذلك يؤكدون على أن القرآن ليس من صنع البشر، لأنه لا يستطيع أن يضع قانوناً لنفسه لان القانون لابد أن يضبطه واضع القانون.

رابعا: المؤمنون

يؤكد المؤمنون ومن خلال الحياة التي عاشوها، ومن جنبات الأجواء التي لمسوها بالتقرب إلى القرآن، بأن تركُهم له ولتعاليمه تحول حياتهم إلى حياة الضيق، ومعيشتهم يحفها الضنك ويحيط بها المصائب حيث أنها حقيقة قرآنية: ﴿ ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.[1]

---

(١) سورة طه آية ١٢٤

محاولات يائسة:

الصراع مستمر بين الحق و الباطل، وذلك أن القرآن يمثل الحق، وهو من الله سبحانه وتعالى، و الباطل له أبواق وكتابات و أطروحات وثقافات منحرفة وبين هذا وذاك تحدث المعركة، وهكذا اقتضت سنة الحياة بوجود هذا الصراع بين الحق كثقافة إلهية و الباطل كخواء شيطاني.

من ذلك نلاحظ أن الجاهلية الأولى ومع تجذرها وبما كانت تملك من وسائل و أساليب علمية وفنية، بل وبما كان لديها من أدوات غير علمية كالسحر و الشعوذة و الكهانة، وبما هناك من وجاهات و أساطين المجتمع المسيطرة عليه بل و المحتكرة لأمر القيمومة على أناسه وما يملكون، بكل ذلك لم تستطع القوى أن تهزم الفكر القرآني رغم حداثة ورغم قلة المؤمنين به في بداية انبثاقه، بل إن القرآن هو الذي حسم المعركة لصالحه، وتهاوت الأصنام، وتهاوت معها كيانات الشتات الجاهلي البدوي.

ولكن بعد النكسة التي أصيبت بها الأمة الإسلامية، و انحرافها عن القرآن، و اتخاذهم إياه مهجوراً، وعندما نبذوه وراء ظهورهم تسللت الجاهلية الثانية في زمن الإنكسارات العربية في القرون الأولى إثر التجارب الفاشلة المحتكرة للسلطة سواء منها الأموية أو العباسية أو من جاء بعدهم عثمانيين وغيرهم من سلطنات في صحاري بلاد الإسلام ودياره، تسللت أفكار وهبّت علينا رياح ثقافات شرقية وغربية مدّعية أن ما أصابنا من تخلف عن الحضارة، وما نحن فيه من دركات الجهل، ليس إلا لالتزامنا بالتراث القديم، ومحاولة التشبث بالقرآن الذي لا يلائم عصر التكنولوجيا، ثم أضافوا أن القوانين الإسلامية كانت تصلح مع أهل الصحراء و البادية حيث بدأت هناك،

وعاشت، وترعرعت مع مجموعة من البدو. فقطع يد السارق، ورجم الزاني أو جلده وبقية أحكام القصاص، وحرمة الربا و الأحكام المتعلقة بالمرأة و الأسرة، كل هذه القضايا بحسب زعمهم لا تتوافق مع التطور الحاصل، ولا تتواكب مع الأحكام السياسية و النظريات الاقتصادية الجديدة، وقالوا أخيراً إن الزمن قد فاق القرآن، وتجاوزه، ثم قرروا فصل القرآن عن الحياة، و اعتباره كتاباً تراثياً بالياً، كان ربما صالحاً يوماً من الأيام!!!

وتلك المحاولات قد تأثر بها بعض مثقفي الأمة الإسلامية، وترجموا ذلك في كتاباتهم، محاولين أن يثبتوا ذلك في وسط الشباب المسلم ليشككوهم في القرآن ولكن باءت كل محاولاتهم وسقطت أقنعتهم الزائفة. وكما أن الفشل كان من نصيب زعماء الجاهلية الأولى، كذلك كان حليف هؤلاء المتزعمين أو المتأثرين بالجاهلية الثانية وتياراتها الضالة، لقد واجهوا فشلاً ذريعاً، و لم يستطع أحد أن يتخطى الفكر القرآني، بل تجلّت آيات التحدي القرآنية أكثر وأكثر، وحيث كان سكون انتكاستهم تعالى صوت الترتيل القرآني في سماء الدنيا، وفي آفاقها مجلجلاً:

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾.[1]

إن هذه الآية الكريمة كانت تُفَسر سابقاً في التحدي البلاغي أمام قوة بلاغة العرب، و انهماكهم في العربية، و إبداعاتهم فيها تعمقاً وشمولية، ولكن الواقع أن الكتاب الكريم وكما كان يتحدى تلك الأقوام بما أبدعوا فيه من بلاغة وفصاحة، فانه أيضاً يتحدى زعماء الكفر المعاصرين، ومنظري الثقافات

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨

الفاسدة، وذلك ببيان بمجموعة جوانب تثبت أن القرآن الكريم يتقدم بأطروحة متكاملة ومتناسقة لا تشوبها أية نواقص. ويثبت أيضاً بأنه منهج قويم صالح لكل زمان ومكان. وهناك جوانب كثيرة يتبينها القارئ الدارس للقرآن إلا أننا سنعرض بعضها بشيء من التفصيل:

- الجانب التشريعي.
- الجانب العلمي.
- التطور و التحديث.
- الجانب الإنساني وبناء الحضارة.



الجانب التشريعي

حينما خلق ا لله الإنسان جعله في دائرة لطفه، وسكب عليه ألطاف رحمته، وحين خلقهم فانه هداهم للإيمان، و أرشدهم إلى سبيله، حيث أرسل لهم رسله، ومعهم الكتب التي تحوي على تلك البرامج و الدساتير إلى أن ختمها بنبوة النبي محمد بن عبد ا لله (ص) و التي تمثلت في دين الإسلام وكتابه القرآن.

وفعلاً كان هذا الدين الخاتم هو الإسلام، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾.(١)

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾.(٢)

فالإسلام وحسبما يتبادر إلى أذهاننا هو أول مراتب العبودية، و الأخذ بالاعتقادات القائمة عليها أصول الدين الإسلامي، ولكن هل هذا الإسلام بالمعنى الأولي البسيط يكفي أم أن هناك مراتب ودرجات أخرى ؟

نعم .. هناك مراتب أخرى يتوجب على الإنسان المسلم أن يترجمها بإيمانه إلى عمل ديني يمارسه في حياته، حتى يحقق بتلك الممارسة تمام العبودية فيتم ذلك الإسلام الاختياري ﴿لا إكراه في الدين﴾.(٣) وذلك بتسليم العبد، وبكل ما يملك تسليماً مطلقاً إلى ربه.

ولن يكتمل هذا الدين وهو الإسلام بمجرد التسليم و الخضوع القلبي و العملي إلا من خلال شريعة وطريقة قد أعدتها السماء، كي يسير عليها هذا

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩

(٢) سورة آل عمران آية ٨٥

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٦

الإنسان، وينضبط من خلالها، وهذه هي سمة رسالات السماء، حيث يقول ربنا ، سبحانه وتعالى: ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾.[1]

الشريعة التي تستتبع الإلزام و الإتباع، وتكون بمثابة القانون الملزم للفرد، وتكون أيضاً برنامجاً تطبيقياً له في الحياة، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾.[2]

هذه الشريعة المستندة إلى الله، و المبينة لهذا الدين تكون طريقة ومنهاجاً لهذا الإنسان، تمهد له الطريق، وتجعله يسير في الحياة ببصيرة ووعي، يتخطى من خلالها كل العقبات التي تعترضه، ويتجاوز بها كل السلبيات التي توقعه في الزلل و الخطأ، وتنور قلبه بالعلم و المعرفة، فيتوصل من خلالها إلى معرفة الحقائق، وتتجلى له الأمور، وتتضح له معالم الطريق إلى الله و إلى الكون و إلى نفسه.

ولهذا أطلق القرآن مصطلح الشريعة، وهي مجموعة وصايا جاء بها الأنبياء كي يسلكها الناس في الحياة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً و الذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى و عيسى**﴾.[3]

الشريعة إذاً هي تلك الوصايا التي جاء بها نوح و إبراهيم وموسى وعيسى مضافاً إليها ما جاء به النبي(ص)، لأن الشرائع في الحقيقة هي واحدة في جوهرها، وإن اختلفت بحسب اختلاف الأمم إلا أن هناك قواعد أساسية تشترك فيها كل رسالات السماء باعتبار مصدرها الواحد، فهي لا تختلف في حقيقتها أبداً. ومن السمات الرئيسية التي اتصف بها القرآن هو امتيازه بهذا

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨

(٢) سورة الجاثية آية ١٨

(٣) سورة الشورى آية ١٣

الجانب التشريعي المسند إلى الله سبحانه، حيث شرع فيه كل قانون يحتاجه البشر فلا يجوز لهم تشريع أي قانون منهم، و إنما يحق لهم تأطير هذه القوانين في قوالب زمنية ومكانية بملاحظة الأهم و المهم، باعتبار أن قوانين البشر غير صالحة لأنها ليست من عند الله، وكل قانون لا يُسند إلى الله لا يزيد البشر إلا مشكلة وتعقيداً، ويفتقد إلى قابلية البقاء وديمومة الصواب.

وهناك ضرورة تؤكد على وضع القانون الملائم للإنسان وهي موافقته لفطرته، فلا يمكن أن يُحمّل الإنسان فوق طاقته بوضع قوانين لا وسع له بها، ولا طاقة.

ولا يكون ذلك إلا من خالق هذه الفطرة حيث انه يحيط بكل جوانب النفس البشرية، فليست هذه القدرة موجودة لدى الإنسان، فهو غير قادر على إيجاد القانون الملائم لنفسه فكيف لغيره ؟! فبناءً على ذلك لا يجوز للإنسان تشريع أي قانون إطلاقاً، و إنما أخذه من القرآن حيث اشتمل على كل قانون بما ذكره لنا النبي (ص) و الأئمة الأطهار (ع).

شأن المجتهدين:

هنا يأتي دور الفقهاء المجتهدين في فهم معرفة القانون المسمّى بالحكم الشرعي، و استنباطه من القرآن، و السنة الواردة عن النبي(ص)، و الأئمة الأطهار(ع)، وذلك لا يتسنى إلا لهؤلاء باعتبارهم قد درسوا الشريعة، و أصولها كمن يتخصص اليوم في معرفة القانون الحديث، فهؤلاء تخصصوا في معرفة وفهم الكتاب و السنة، و أصبحت لديهم الملكة و القدرة الفعلية على استخراج القانون الموجود في الكتاب المقدس.

و الاجتهاد ليس عملية استحداث قانون غير موجود، و إنما هو البحث

عن القانون الموجود، و إقامة الدليل عليه، كي يكون مستنداً إلى الله عز وجل، وهو ليس بديلاً عن القرآن بل هو البحث في القرآن عند أهل الاختصاص.

فالتشريع ثابت و أحكام الشريعة ثابتة لأنها خارج نطاق البشر، فما عندهم يسند إما إلى المادة أو الهوى أو السلطة، فالقانون النابع من هذه الأمور الثلاثة يذهب بذهابها، ويتغير بمجرد أي خلل يحدث فيها، ألا ترى بعض الأنظمة السياسية كيف تغير القانون بمجرد تغير النظام ؟.

فهذا النظام يرى مالا يراه النظام الماضي، وهكذا الإنسان في الحياة مهما كان حراً ونزيهاً فانه لا يستطيع أن يخرج من إطاره المحيط به وتقاليده و أهوائه التي تعمل في نفسه، فقانونه يصطبغ بتلك الأهواء و الظروف فبتغيرها يتغير القانون، أما القانون الإلهي فلن تجد فيه تحويلاً ولا تبديلاً، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾[1] لأنه نابع من الله خالق الإنسان، يقول آية الله الشيرازي في كتابه الفقه - القرآن: " أما الله سبحانه فليس له زمان ومكان ولا أهواء وعواطف ولا حاجة وإعوزاز ولا ظروف مادية أو معنوية يريدها لنفسه، ولذا يكون قانونه مستنداً من صرف مصلحة الإنسان بالإضافة إلى انه عالم بالإنسان فلا يكون قانونه غير ملائم للإنسان، وهذا هو سبب أبدية قانون القرآن، وكونه ملائماً للبشر، وصالحاً لهم على مدى الأوقات وفي كل الأماكن ".[2] وهذا التشريع الأمثل للإنسانية، و القانون الأقوم للحياة، الذي جاء به القرآن، قد اثبت أصالته وشموليته وهيمنته على جميع شؤون الحياة.

---

(١) سورة فاطر آية ٤٣

(٢) الفقه ـ القرآن ص١١٢

ولعل ثبات التشريع هو من ثبات القيم الراسخة التي دعا إليها القرآن، فقيمة العدالة و المساواة و الحرية وكرامة الإنسان، كل هذه اقتضت إيجاد قواعد وتشريعات قائمة على أساسها، فالأحكام الإعتقادية و الأخلاقية، و الأخرى العملية كالعبادات و المعاملات، و الاجتماعية التي تتعلق بتنظيم الأسرة و أحكام الزوجية كالنكاح و الطلاق و الإرث، كل هذه نابعة من تلك القيم، و أكبرها هي اللطف و الرحمة بعباده، فما كان منه إلا أن يأتي لهم بما يحقق ذلك اللطف، وتلك الرحمة في سن كل ما يكفل احتياجات الإنسانية على كل مستوى وصعيد.

الجانب العلمي

نلاحظ أن هناك تعظيماً للعلم في كتاب الله باعتباره رسالة تخدم البشرية، فتكون محترمة من قبله، حينما يتوجه الإنسان لاستغلالها في مسارها الصحيح، ويستفيد منها لخدمته، باعتبارها أداة ووسيلة إلى مصالحه الدنيوية، لتحقيق السعادة التي يصبوا إليها، فبهذه الرسالة يرفع عنه الضيق المادي و الحرج الاجتماعي، ساعياً لتسخير كل ما يمتلك من موارد، وثروات طبيعية في هذه الأرض باستخدام عقله لتحويلها إلى تقنيةٍ متجددة في لباسٍ آخر غير لباسها التي هي عليه، وهي مواد خام، فتكون الاستفادة حينها ذات قيمة، و اكثر تطوراً، و اقل كلفة، و اكبر راحة للإنسان.

إذاً هذه الرسالة يجب أن تُستغل في خدمة البشرية، و أن توضع في مكانها المناسب، ولذا أشار القرآن في آيات كثيرة حول تعظيم هذه الرسالة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أُتوا العلم درجات﴾[1]،

---

(١) سورة المجادلة آية ١١

﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] ، وفي تعظيم أهل العلم يقول جلّ شأنه: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون﴾**[2] ، وهناك ثمانون آية وردت في القرآن بلفظة العلم، وقد وردت هذه اللفظة بصيغ مختلفة كثيراً في القرآن.[3]

وكل ذلك التكرار ليس إلا تأكيداً على أهمية العلم، وخطورة عدم الالتزام بهذه الرسالة الإنسانية، ووفاء حقوقها في كل المجالات التي تخدم البشر

ودعوة القرآن إلى العلم لم تقتصر على تعلم علم معين، بل أطلقت العنان إلى الإنسان ليسيح في الأرض، ويسبح في الفضاء، و أن يتعلم كل ما يوصله إلى التقدم و الرقي، و أن لا يقتصر طموح الإنسان على قضايا جزئية، و اكتشافات لا تتجاوز حدود ممارساته اليومية، بل هناك دعوة قرآنية صريحة إلى سبر هذا الفضاء، و الغوص في أعماقه، و اكتشاف أسراره، ومعرفة ما فيه، فيقول سبحانه: **﴿ يا معشر الجن و الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾**.[4]

فليست هناك محدودية للعلم، فمجاله واسع وبحره عميق، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

﴿ العلم لا ينتهي ﴾[5] ،

﴿ العلم اكبر من أن يحاط به﴾[6]

﴿ شيئان لا تبلغ غايتهما العلم و العقل﴾[7].

---

(١) سورة العلق آية ٥
(٢) سورة الزمر آية ٩
(٣) يراجع المعجم المفهرس مادة علم
(٤) سورة الرحمن آية ٣٣
(٥،٦،٧) غرر الحكم

وإنما المحدودية في الإنسان فهو يأخذ من العلم حسب طاقاتـه و إمكانياتـه وقدرته، وبما يحتاج إليه في مسيرة حياته فما يأخذه ما هو إلا القدر اليسـير مـن العلم فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وما أوُتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾.(١)

باعتبار أن الإنسان محـدود في كـل الاتجاهـات، فيكـون حظـه مـن العلـم بمقدار حظه من الوجود، ولكـن العلـم بحرٌ واسعٌ يمتـد بـامتداد الزمـن مـادام الإنسان موجوداً.

فتتواصل المسيرة العلمية عبر المسيرة الزمنية بوجود الإنسان المتعاقب جيـلاً بعد جيل. ومع ذلـك فـان استلهام الإنسـان العلمـي وعطاءاتـه العلميـة تبقـى محدودة بحدود قدرته، فالتقدم العلمي المذهل في عصرنا يدلـل علـى أن قدراتنـا العقلية و الحسية لا تستطيع أن تحيـط بالحقيقـة المطلقـة علمـاً. وتبـين أيضـاً أن المعرفة البشرية هي ليست كل مـالا تـراه أجهزتنـا ليس بموجـود، وربمـا ذلـك إشارة إلى أن هناك علم آخر، وهو علم الغيب وما وراء الطبيعة التي لا يصلهـا الإنسان، كما يقول ربنا سـبحانه وتعـالى: ﴿ وعنـده مفـاتح الغيـب لا يعلمها إلا هو﴾(٢) ، ويقول أيضاً: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾.(٣)

وكذلك يقول جل وعلا: ﴿ و الله يعلـم وأنتـم لا تعلمـون ﴾(٤) إلا في حدود ما انتم فيه مع ذلك فان القرآن اعتمد العلم، كما يقول سبحانه:

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾.(٥)

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥
(٢) سورة الأنعام آية ٥٩
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٥
(٤) سورة البقرة آية ٢١٦
(٥) سورة الأعراف آية ٥٢

و اعتبره منظاراً لمعرفة الحياة و الدخول إليهـا عـن طريـق معرفـة الديـن و الشريعة السـماوية، وقـد ذم الجهـل ودعـا إلى رفعـه بـالعلم و المعرفـة، ولكـي يكتمل العلم عند الإنسـان، وتصبـح رسـالة يتحمـل مسـؤوليتها أمـام البشـر، ويؤدي ما فيها على أكمل وجه دون أن يستغلها لأغراض شخصية، أو مصالح ذاتية على حساب الشعوب.

القرآن يقرن العلم بالإيمان:

العلم و الإيمان في المعادلة القرآنية يعني تكوين ضوابط وحدود من الضمير و الخُلق، وتنمية النوازع الإنسانية الفطرية حتى لا يصبح العلم أداةً ووسـيلة مدمرة للإنسان، فقد يصبـح الطبيـب متـاجراً بطبـه علـى حسـاب مرضـاه، و المهندس لا يبالي بقتل المئات إذا تطلب تخطيطه بطريقة تزيـد في دخلـه، حينئـذ يمسي العلم تجارة لا رسالة، ومهنة لا مسؤولية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**يتلو عليهم** آياته **ويزكيهم ويعلمهم الكتاب و الحكمة**﴾[1] وعدم تحمـل المسـؤولية الـتي أنيطت بهذا الإنسان يعتبر خيانـة للديـن وخيانـة للنـاس لـذا جـاء في الحديـث الشريف عن النبي (ص): ﴿ **تناصحوا في العلم، ولا يكتم بعضكم بعضاً فان خيانة في العلم اشد من خيانة في المال** ﴾.[2]

فالعلم يبدأ بالإيمان وينتهي إليه، لان العلم نور يهتدي به الإنسان إلى سبل الحياة وطرق النجاة، ولكي يكتمل العلم قرنه بالإيمان، فجعل أول الطريق إليـه تعلم القراءة و الكتابـة، وهـي الخطـوة الأولى في سـلم العلـم، جعلهـا مقرونـة بالإيمان حينما قال سبحانه: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان مـن علـق،**

(١) سورة الجمعة آية ٢
(٢) كنز العمال خ ٢٨٩٩٩

اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم ﴾.[1]

فجعل العلم الذي تكون خطوته الأولى هي تعلم الكتابة و القراءة ﴿علّمَ بالقلم ﴾ قراءته تكون باسم الرب، يتجلى فيها الإيمان به، فيكون العلم رسالة حملها الإنسان نابعة من رسالة النبي (ص) وهي القرآن فالرسالة التي بُعثت إلى النبي في أول لقاء بينه وبين الوحي، كانت الخطوة الأولى لهذه الرسالة العلم، وكانت بالقراءة و الكتابة، لكي تكون هذه الرسالة أساسها العلم و التعليم حتى ترتفع بالإنسان من حالة الحيوانية إلى حالة العلم، ويسمو به إلى آفاق التقدم.

ومن يتلبس بلباس العلم، ولا ينتفع به، ولا يتحول لديه إلى سلوك وممارسة، فلا فرق بينه وبين ذلك الحيوان الذي يحمل على ظهره الكتب، وقد شبّه القرآن ذلك بقوله: ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾.[2]

بين العيني و الكفائي:

تتأكد أهمية العلم من خلال بعض التشريعات التي وردت حوله في الأحكام الفقهية في مسألة وجوب تعلم العلوم ووجوب تعلم القرآن ؟ فهل هذا التعلم واجب شرعي ؟ وهل على العين أم الكفاية أم أحدها أم التفصيل ؟

من خلال ما تقدم من تعظيم القرآن للعلم، و اعتماده إياه، وتأكيد الروايات الواردة عن النبي (ص) و الأئمة الأطهار (ع) إلى جانب العقل، كل ذلك يدل على وجوب التعلم و التعليم، وهي دعوة القرآن الأساسية.

---

(١) سورة العلق آية (١-٤)

(٢) سورة الجمعة آية ٥

الفقهاء من جهتهم أشاروا إلى مسألة العينية و الكفائية بما يسقط التكليف، فقالوا: إن تعلم أصول الدين كالتوحيد و العدل و النبوة و الإمامة و المعاد، وتعلم بعض القرآن - كسورة الحمد و السورة لأجل الصلاة الواجبة واجب عيني، ولكن تعلم كل القرآن حفاظاً عليه من الإندراس و الضّياع، وتعلم الصناعات و المهن، و الاشتغال بالطب و المهارات التي يحتاج إليها الناس، كل ذلك واجب على الكفاية، فإذا قام بعض المجتمع بهذه الأعمال فانه تحمّل قسطاً كبيراً بقيامه بهذا الدور.

وفي هذه المسألة يذكر الفقهاء حكماً شرعياً، وهو أن الواجب العيني في مخالفته إثم يترتب على ذلك الفرد الذي خالف الواجب، وفي الكفائي لو لم يتحمل البعض إثم الجميع.

ماذا تعني هذه المسألة ؟ وعلى ماذا تدل ؟

ما تعنيه هذه المسألة في جوهرها وحقيقتها أن العلم أساس حياة الإنسان فيه يحيا و تحيا القلوب، وليس هذا الواجب - عينياً كان أم كفائياً - إلا من الضرورة العقلية التي أكدتها شرائع السماء ومنها القرآن، على أن الجهل حالة لا يرتضيها الإنسان وهي مذمومة من قبله، فلا يتقدم بها ولا خطوة واحدة.

للعلم قواعد و أسس:

القرآن تبيان لكل شيء، أي أنه يحوي لكل العلوم الطبيعية و الإنسانية وغيرها. ويُستدل على هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾.[1]

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٩

وفي الحقيقة القرآن لا يتحدث عن أمور تكون في زمن محدد وتنتهي، فليست الكيمياء و الفيزياء و الأحياء و الجغرافيا هي علوم ثابتة، بل هي متجددة ومتغيرة وقد تنشأ منها علوم جديدة.

و المراد من قوله: ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾[1] أي أن القرآن من شأنه أن يعطي للإنسان قواعد كيفية التعرف على العلوم، ويرشده إلى السبل و الطرق و الوسائل التي بها يكتشف العلوم. فمهمة القرآن تنحصر في هداية الإنسان و إرشاده ببيان الخطوط العامة، و القواعد الأساسية التي ينطلق منها لتكوين حياته، ليعيش وفق تلك الرؤى، و البصائر النابعة من القرآن، فالقرآن ليس كتاباً علمياً يتحدث عن مجموعة علوم مستحدثة، و إن ذكرها فمن باب الاستطراد، و إلا فهو كتاب أبعد من ذلك، و اكبر من أن يتحدث بهذا الشكل التفصيلي في قضايا متغيرة تحكم قواعدها تنظيرات و اكتشافات الإنسان غير اليقينية. إذاً فما هي أسس وقواعد العلم التي قدمها لنا القرآن لننطلق منها، ونكتشف الحياة وعلومها ؟

الأول: العلم بالقيم:

تحدث القرآن عن القيم ومنها قيمة العلم، العدالة، الحق، الصدق، الإخلاص... فإذا أردنا أن نتعلم من القرآن، و أن نأخذ العلم، فنأخذ بهذه القيم لأنها أصل الحياة، وهي التي تبعث الإنسان، وتحركه نحو التقدم و الرقي و التطور، وتجعل منه شخصاً طموحاً ميّالاً إلى الأفضل و الأحسن دائماً، ولذا جاء في الحديث عن أمير المؤمنين (ع): ﴿ العلم حياة ﴾ و ﴿ بالعلم تكون الحياة﴾

(١) سورة النحل آية ٨٩

و ﴿ و اكتسوا العلم يكسبكم الحياة ﴾.[1]

فبالعلم يحيا الإنسان ويتقدم، طريقه إليه هو التزامه بهذه القيم. فالقرآن يخاطب النبي (ص) قائلاً: **﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ﴾**[2] ، فلا يكون العلم الذي هو في مقابل الهوى إلا بمعرفة هذه القيم وتعلمها، فإنها هي أصل العلم، وما يؤكد هذه الفكرة هي هذه الحادثة التي تروى عن النبي (ص): **﴿ انه دخل المسجد فإذا جماعة قد طافوا برجل فقال ما هذا ؟**

فقيل: علامة.

قال: وما العلامة ؟

قالوا: اعلم الناس بأنساب العرب، ووقائعها و أيام الجاهلية وبالأشعار و العربية.

فقال النبي (ص): ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه.

ثم قال النبي (ص): إنما العلم ثلاثة، آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل ﴾.[3]

وهذه إشارة واضحة إلى أن العلم بالقيم التي يفهم الإنسان من خلالها كل العلوم.

الثاني: العلم بالواقع:

الكشف عن الحقائق ومعرفة الأمور بحاجة إلى محاكاة الواقع ميدانياً، و الاقتراب من المواضيع الخارجية التي تكون مورد الابتلاء للناس، ومعرفة الظروف، ولا يتسنى ذلك إلا لذوي البصيرة الثاقبة، و الرؤية العلمية السليمة

---

(١) غرر الحكم
(٢) سورة البقرة آية ١٢٠
(٣) أصول الكافي (ج١) ص٣٢

القائمة على قيم الدين وعلى العلم بها. فالعلم في هذه الصورة الثانية هو كشف عن واقع ملموس في الخارج و إلا كان مخزوناً في الصدور بلا فائدة منه.

وربما نقول بشكل أوضح أن العلم بالواقع هو ملامسة القضايا الخارجية لمعرفة الجانب التطبيقي، فلا يكفي أن تعلم، وأن تتحلى بصفة العلم، وتكون علاّمة زمانك إن لم يتحول العلم إلى آلية تتحرك في المجتمع، وتقنية تعالج مشاكله، ولذا خاطب القرآن أهل الكتاب، محذراً إياهم إن لم يحولوا ذلك العلم إلى واقع عملي.

فقال سبحانه: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة و الإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾**[1] وجاء رجل إلى رسول الله (ص)

فقال يا رسول الله: ما العلم ؟

قال: الإنصات.

قال: ثم مه ؟

قال: الاستماع.

قال: ثم مه ؟

قال: الحفظ.

قال: ثم مه ؟

قال: العمل به.

قال: ثم مه يا رسول الله ؟

قال: نشره.[2]

فالقرآن كتاب السماء يدلك على دراسة ذلك الواقع بالتوفيق بين العلم و

---

(١) سورة المائدة آية ٦٨

(٢) أصول الكافي (ج١)ص٤٨

العمل في عملية تطابقية بينهما، فتكون عاملاً بما تعلم، وعالماً بما تعمل، ورد في الحديث عن أمير المؤمنين (ع): ﴿ **يا حملة القرآن اعملوا به فان العالم من علم لم عمل بما علم وافق عمله علمه** ﴾.[1] ويؤيد هذا الحديث قوله تعالى: ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾[2] أي عالمون بالكتاب لكنكم غير مطبقين لآياته.

فالعلم بالقيم وحده لا يكفي، وبالواقع وحده لا ينفع، بل العلم بهما يستطيع الإنسان أن يوفق بين علمه وعمله بمعرفة الواقع، وبدافع من الوازع الإيماني.

(١) نهج البلاغة (ج٣) ص١٠٢
(٢) سورة البقرة آية ٤٤

التطوير و التحديث

التطور ضرورة حضارية، فالحياة التي نعيشها و المجتمع الذي نشكل جزءاً منه لا يبقى على حالة معينة أو كيفية خاصة، بل تجد دائماً هنالك تغيرات تحصل و أمور تتجدد. و الإنسان في كل يوم يبحث عن الأفضل ويلاحظ ذلك التغير لعله يجد ما ينفعه، ويحسن به حياته من طرق و أساليب ومبتكرات جديدة، لأن من طبيعة الإنسان التطلع إلى الأحسن، و النظر إلى الأفضل كي لا يبقى على حالة الجمود لأنها حالة مذمومة تؤدي إلى التكاسل، و الخمول لا إلى التطور، فالعلم في كل يوم يطالعنا بشيء جديد، باعتبار ما يمتلكه الإنسان من طموح لتحسين حاله.

قبل قرون من الزمن كانت أوروبا تعيش الجهل و التخلف، و إذا بها نفضت غبار ذلك عن نفسها، وخرجت من قوقعتها، و أصبحت في ركب التقدم و الحضارة، و أصبحنا نتطلع إليها علّنا نصل إلى ما وصلت إليه.

فالتطور ليس حالة خاصة بأوروبا أو بشعب دون شعب، بل هو ضرورة حضارية تفرضها الحياة المتجددة، و الطبيعة المسخرة لهذا الإنسان، و الكون الواسع الكبير، فلكي يستثمره الإنسان، ويستفيد منه، عليه أن يستخدم قواه العقلية، و إمكانياته الجسدية لتسخيرها في الطبيعة، بتحويلها من خامات طبيعية إلى تقنية حديثة، يستغلها لمصلحته في تحسين أوضاعه الحياتية.

وعلينا أن ننظر إلى المستقبل حينما نعيش الحاضر ونرى تلك التطورات التي تلفنا من كل حدب وصوب، فحينها نستطيع أن نعد أنفسنا، ونتهيأ له.

كيف يتحصن الإنسان من الكوارث الطبيعية، وكيف يقي نفسه من الأمراض الفتاكة، وكيف يقضي على مشكلة البطالة، و أزمة السكن، وكيف يعالج

وضعه الاجتماعي، ويقاوم الفساد و الانحراف، و الغزو الثقافي و الفكري عبر الأقمار الصناعية ومراكز الإنتاج للأفلام الموجهة ضد مجتمعاتنا عبر محطات التلفزة الفضائية ؟!

هذا التطور الحاصل الذي نعيشه اليوم وتمر به البشرية - ونحن منها - هل نستطيع مقاومته ؟ وكيف ذلك ؟ وهل هناك دعوة قرآنية في كتاب الله تنتشلنا من الواقع المظلم لكي نتطور في أساليبنا ومناهجنا، كي نلتحق بركب الحضارة!

القرآن يدعو إلى التطور:

التطور كلمة جميلة لأنها تحمل معاني إنسانية في غاية السمو، لا أحد من العقلاء إلا ويطمح ويحاول أن يبرمج حياته بطريقة متطورة. ولكن ماذا نعني بالتطور ؟

أليس هو الأخذ بالأحسن و الأفضل في الحياة ! فكلما تغيرت الحياة استجدت معها أمور، دائماً يبحث الإنسان عن أساليب ووسائل تتناسب مع تلك المستجدات، فأين ذلك من القرآن، وهل دعا إلى ذلك ؟

ربما لم ترد كلمة تطوير أو تطور في القرآن، لكن ورد ما يشير إلى ذلك المعنى وهي لفظة الأحسن. حيث دعا القرآن الإنسان إلى أن يأخذ بالأحسن في كل شيء، وتناسباً مع تلك الأهداف التي نطمح للوصول إليها، المنطلقة من تلك القيم الربانية و البصائر القرآنية، فلو خيّر الإنسان بين الركوب في السيارة أو الدابة للوصول إلى الحج، أو بين الطائرة و السيارة فانك تختار الأحسن الذي يوصلك أسرع، ويختصر عليك المسافة، ويقلل إنفاقك للوقت، كما أن التعب و الجهد يكاد أن يتلاشى. ولذا نلاحظ أن القرآن دعا إلى الأحسن في

كل شيء، في القـول وفي العمـل و الأسـلوب و الوسـيلة : ﴿ الذيـن يسـتمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾[1] ، وقال أيضاً: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾.[2]

إن البحث عن الأحسن في القول باعتباره نتاج الأفكار و العقـول وإلا لا يعني إتباع القول مجرداً دون أن تكون له خلفية فكرية أو نتيجة استنباط متطور متوافق مع الحيـاة، فحينهـا نبحـث عـن الأحسـن في القـول فنتبعـه، فليـس في استلهام الأفكار فقط و إتباع الأحسن فيها بل حتى في أسلوب الحوار وطريقة الكلام وحتى في معالجة المشاكل و القضايا الاجتماعيـة و السياسـية. علينـا أن نمكن انفسنا من استخدام الأحسن و الأكثر تطوراً، و إليك هـذه الآيـات الـتي تؤكد ذلك:

﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[3] ،

﴿ وإذا حيـتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها ﴾[4]

﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾[5]

﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾[6]

﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾[7]

وفي الجانب العمراني و الجوانب الأخرى هناك كثير من الآيـات الصريحـة في ذلك التي تطلب من الإنسان المؤمن أن يتقدم إلى الأمـام، ويخطـو خطـوات

---

(١) سورة الزمر آية ١٨
(٢) سورة الإسراء آية ٥٣
(٣) سورة النحل آية ١٢٥
(٤) سورة النساء آية ٨٦
(٥) سورة هود آية ٧
(٦) سورة المؤمنون آية ٩٦
(٧) سورة القصص آية ٧٧

يفوق بها غيره، ويكون هو الأحسن دائماً في كل شيء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾.[1]

فلينظر الإنسان إلى الآخرين المتطورين لينافسهم لا ليقلدهم تقليداً أعمى، يتوجب عليه أن يبدأ من حيث انتهوا، فحينما تنظر إلى مقومات ذلك التطور و القيم التي قام عليها لتستفيد منه دون أن تستغل ذلك التطور في الفتك بني البشر و الدمار فيكون وبالاً عليهم.

أوَليس العالم اليوم يشتكي من نتائج التطور مثل التلوث في البيئة، الغازات السامة، النفايات الكيماوية، وما تسببه المعامل النووية و المصانع من آثار على صحة الإنسان !

بهذه الروحية لا يستقر هذا التطور بل ينتهي إلى الحرب و الدمار وهلاك المجتمعات، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أحسن أثاثاً ورئيا ﴾.[2]

فالإنسان اليوم قادر على تدمير حياته بما يملك من وسائل ابتكرها بنفسه.

موقف شرعي:

مشكلة الإنسانية ليست في نحت المصطلحات بل في تأويلاتها وتفسيرها، وحيث أن العقول متباينة و الخلفيات مختلفة كان لابد من الاستهداء بموقف سماوي إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا فإن علينا أن نفهم كلمة التطوير من خلال الآيات القرآنية، فليس التطوير هو

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٦

(٢) سورة مريم آية ٧٤

استحداث - شيء أي شيء - حتى ولو كان خارج الموازين والمفاهيم الشرعية، وليس ما يذهب إليه البعض من إدخال شيء جديد في الدين لأن ذلك يُعد بدعة وهي محرمة فعن رسول الله (ص): ﴿كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة﴾.[1]

إن القرآن ثابت لا يتغير فيه شيء ولا يتطور، لان قيمه ثابتة، وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾.[2]

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾.[3]

وهذه القيم الثابتة هي المحور الرئيسي في القرآن، وهي تشكل دائرة الأهداف السامية للشريعة و الرسالة التي جاء بها النبي (ص)، فلا يكون فيها تغيير أو تبديل، و إنما التطوير في المناهج و الأساليب و الوسائل التي تكون ضمن دائرة الأهداف و القيم، وتتناسب معها، وضمن إطار الشريعة القرآنية.

إذاً فالشريعة لا تمانع من التطور مادام متوافقاً مع روحها، ومع المبادئ و القيم التي جاءت في القرآن، وتكون انطلاقة الإنسان مبتدأها الهداية القرآنية التي يتوجه الإنسان من خلالها إلى معرفة افضل الأمور.

كما أن للعقل دور في عملية الابتكار و الاختيار حينما يعمل الإنسان عقله، و يكون قد تغذى بالمفاهيم الإسلامية، فإنه يوصل صاحبه إلى أفضل النتائج، و يهديه إلى الأحسن و الأفضل. فبنور العقل يكتشف بل يهتدي إلى كثير من الحقائق حينما تتوفر له أجواء الحرية الفكرية التي ينطلق فيها ليحول

---

(١) بحار الأنوار (ج٢) ص٣٠١

(٢) سورة البقرة آية ٢

(٣) سورة فاطر آية ٤٣

ببصره في هذا العالم مكتشفا ومخترعا مما يساعد الإنسان على عملية النهوض الحضاري بتجاوز كل العقبات، و تذليل الصعاب.

باب الاجتهاد:

الاجتهاد الذي يعني بذل الوسع في استنباط و استخراج الحكم الشرعي من مظانه أو من الأدلة الأربعة - الكتاب والسنة و الإجماع و العقل - عملية تدعو إلى عدم الجمود على النص، و محاولة فهم النص بما يتوافق مع الشريعة و قيمها الثابتة، وفطرة الإنسان و طبيعته.

نعم الاجتهاد يحمل ذلك المعنى، و لكنه أبعد من ذلك أيضاً، إنه استنباط الأحكام الشرعية لكل مستجد في الحياة، و بيان موقف الشريعة من كل شيء فيها على ضوء النصوص القرآنية، والقواعد الفقهية حتى تتبين الوظيفة الشرعية للمكلف.

إذا الاجتهاد يعني عدم الجمود على النص، حتى نتعرف على تلك المفاهيم و البصائر والرؤى التي يحملها هذا النص، و محاولة فهم الواقع المعاش بتطبيق تلك النصوص عليه.

فالقرآن ليس دعوة إلى ذلك العصر و إلى أهل هذا العصر، بل هو دعوة متجددة دائماً في كل عصر.

فلا تختص بزمن دون زمن، و لم تكن تلك الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر العقل و البصيرة و الفقه وكانت هدفاً سياسياً للوحي إلا بغرض تحريك الإنسان وبعثه في التحرك نحو الأحسن، و البحث عن الأفضل بإزالة العقبات التي تعترض سبيل التطوير كتقديس الآباء، أو تقليد المجتمع، أو الجمود على

الماضي.

فجاء الإسلام عبر الكتاب الكريم ودعا إلى التحرر و الانطلاق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ويضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم﴾[1] وفق ضوابط حددتها الشريعة، وقوانين و أُطر تكفل إبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً، بياناً وتوضيحا.

فليست عملية التطوير و الإبداع و التحديث إلا استنباط حكم شرعي لمستجدات لم تكن موضوعاتها موجودة في زمن التشريع، ومع ذلك فهذا الاستنباط لهذه المستجدات لابد وأن يكون مستلاً ومستلهماً من روح الشريعة وقوانينها.

ولا نعني بالتطوير الذي يدعو إليه الاجتهاد ويكون باباً له هو تطوير في الدين، لأن ذلك مستحيل باعتبار أن الدين تام وكامل لا نقص فيه. وكما أسلفنا فان قيم الدين ثابتة لا تتغير مع مرور الزمن.

أهداف الدين واضحة وتعاليمه بينة، فيبقى علينا أن نجد الوسيلة و الأسلوب المناسب، الذي نطوّر به حياتنا وفق قيم الدين، وبرامج الشريعة.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧

الإنسان وبناء الحضارة

القرآن رسالة إلى الإنسان ولعله بُعدها الأول، حيث يمكن التعامل معه على أساس وجوده وحضوره و ارتباطه مع بعضه البعض، فليس هو شفاف لا وجود مادي له كالجن بل له كيان مادي في هذه الحياة.

و القرآن الكريم جاء لهذا الإنسان وعلى هذا الأساس لتنظيم أمور حياته الشخصية و الاجتماعية. فهو يشعره بهذا الوجود حينما يبرمج له حياته كي يعيش بتلك البرامج و المناهج و الأساليب و الوسائل التي وضعها له الاستقرار و الأمن و الطمأنينة في الحياة. فجاءت تعاليم هذا الكتاب لهذا الكائن البشري في الجانب الاجتماعي كالعلاقات الزوجية وما يستتبعها من حمل وولادة وطلاق أو أحوال شخصية ومدنية، كذلك جاءت تعاليمه في العبادة وفي الاقتصاد و السياسية وكل جوانب الحياة ومناحيها.

كما أن القرآن جعل هذه الأمور بمثابة محور ترتكز عليه علاقته مع بني جنسه من خلالها، فكانت العلاقات الاجتماعية و العلاقات الاقتصادية و السياسية فلم يتركها دون أن يضع لها برنامجاً يرتب هذه العلاقات وجعل الإنسان يعيش وفقها حتى لا يكون منزوياً عن المجتمع وبعيداً عنه.

فلم يترك القرآن هذا البعد وهو شخصية الإنسان، فقد وردت الآيات الكثيرة التي تحدثت عنه بلفظة الإنسان وبغيرها. بل إن القرآن كله جاء لهذا المخلوق البشري، ولتحديد ملامح شخصيته حتى تكون متوافقة مع برامجه فتكون شخصية قرآنية. لذا فكانت خلقته وتكوينه غير مشوبة بشيء وفطرته سليمه، فلم يكن عليه إلا أن يلتزم بما أمره الله وبما نهاه، فليس أمامه إلا طريق الإيمان و العمل الصالح. فقال سبحانه: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم

رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾.[1]

فالكتاب الكريم جاء لتحريك الإنسان بناءً على تلك الفطرة السليمة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾[2] لبناء نفسه، و الانطلاق من خلالها لبناء أمته ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس و الحجارة ﴾[3] و أراد القرآن بذلك أن يشيد صرح حضارة كبيرة قوية يعتمد عليها، يكون ركيزتها الإنسان المؤمن صاحب الإرادة الفولاذية الصلبة التي بها يتحدى الأعاصير، ويقف بصرح حضارته أمام الحضارات الأخرى. يقول ربنا ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.[4]

ويُذكرنا الكتاب الكريم بالماضي العريق لهذه الأمة، كي يحفزنا في أن نكون كما كنا أمة قوية ذات رسالة خالدة، وحضارة لها قيمها الثابتة حينما كانت ملتزمة بها تقود الأمم إلى الطريق السليم، وتُعلم الحضارات الأخرى بما لا تملك من مبادئ وشرائع. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس (حينما التزمتم) تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾.[5]

إنسان ومهمتان:

مهمتان كلف بها الإنسان في الأرض - الخلافة و العمارة -، ومسؤولية الخلافة في الأرض مهمة صعبة رفضتها مخلوقات أخرى لثقلها، وتحملها الإنسان فترتبت عليها عمارة الأرض و استصلاحها دون الفساد فيها، باعتباره

---

(١) سورة التين آية (٤-٦)
(٢) سورة الروم آية ٣٠
(٣) سورة التحريم آية ٦
(٤) سورة الرعد آية ١١
(٥) سورة آل عمران آية ١١٠

هو الذي يسكنها، فسبحانه حمّل الإنسان مسؤولية الخلافة ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾[1] وحمّله مسؤولية الأرض وعمارتها حيث جعلها له بقوله تعالى:﴿ و الأرض وضعها للأنام ﴾.[2] فما عليه إلا أن يحوّل تلك الخامات و الثروات الطبيعية إلى قدرات متطورة تتماشى وحياة الإنسان.

ولعل بناء الحضارة لا يقوم إلا على أساس الإنسان الخليفة وفق مسؤوليته المناط بها لعمارة الأرض، القائمة على قيم الله التي بعثها له عبر أنبيائه. و أهم ما في بناء الحضارة هي القيم المعنوية لا المادية، لان الامتداد الزمني الذي تتشكل منه الحضارة لكي تبقى عبر أجيالها المتعاقبة بالقيم المعنوية حتى لو كانت هناك تعثرات و اعوجاج في الأمة، أو انحراف في مسيرتها، فان القيم هي التي تصحح هذا المسار بفعل رجالات الأمة العاملين لها وفيها.

وحضارة المادة ليس لها امتداد زمني فهي حضارة وقت، تزول بزوال المادة، وتنتهي عند ذلك الحد كي يتغنى بها التاريخ ضمن ذكرياته.

ولعل الفارق بين حضارة المادة وحضارة القيم يكمن في زوال الأولى وبقاء الثانية.

ويضرب لنا القرآن أروع الأمثلة وأحسن القصص حينما يتحدث عن قوم لوط الذين هدموا حضارتهم بأيديهم بوضع بذور فنائها في أرضهم.

إن رفض الإنسان لقيم السماء و اللجوء إلى قيم الأرض المادية يعني الانهيار حتماً، و الدمار الكامل الذي يؤدي بنهاية الحضارة.

وقد صرح القرآن الكريم ببيان العوامل التي أدّت إلى انهيار هذه الحضارة،

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠

(٢) سورة الرحمن آية ١٠

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾.[1]

الانسياق وراء الشهوات، و الانحطاط الخلقي، و الشذوذ الجنسي، وممارسة الظلم ضد الضعفاء في المجتمع، و الاعتداء على الناس، و السطو على ممتلكاتهم، و التجاهر بالمعاصي و المنكرات علناً وبشكل مكشوف، كل تلك كانت عوامل أدّتْ إلى انهيار حضارتهم.

ويتطرق القرآن إلى حضارة شعيب حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال و الميزان إني أراكم بخير وأني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفوا الكيل و الميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾.[2]

هؤلاء قوم عاشوا بعد قوم لوط فلم يعتبروا منهم، فقد دعاهم شعيب إلى قيم الله و إلى عبادته، لكنهم رفضوا و اتجهوا إلى عبادة المصالح، و ابتزاز أموال الفقراء بعدم الوفاء بالكيل و الميزان، وعدم تطبيق العدل، و انتهاك الحقوق، وعدم الالتزام بمسؤوليات الإصلاح الاجتماعي.

ومن هذا نفهم أن محور الحضارة الإلهية هو عقيدة التوحيد و القيم الإيمانية التي دعا إليها الأنبياء، فهذه القيم هي نفسها كانت محوراً للحضارة الإسلامية التي دعا إليها النبي محمد (ص).

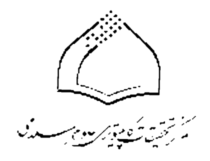
فاستبدال هذه القيم الإلهية بقيم أرضية، ومفاهيم بعيدة عن السماء يعني الانحراف ثم الانهيار.

---

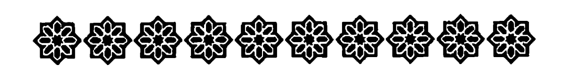
(١) سورة العنكبوت آية (٢٨-٢٩)

(٢) سورة هود آية (٨٤-٨٥)

إذاً مسؤولية الخلافة في الأرض ما هي إلا تكليف من السماء لهذا الإنسان للحفاظ على هذه القيم التي بها يتم عمارة الأرض، و استصلاحها، وبناء الحضارة الراقية القائمة على أساس الإيمان لا المادة.







11

كيف نستوعب القرآن

* قبل أن نفهم
* عقل البشر وفهمه
* كيف نفهم
* عربي .. هكذا نزل
* مكي ومدني
* محكم ومتشابه
* ناسخ ومنسوخ
* الفهم المطلوب





قبل أن نفهم:

القرآن كتاب لنا نحن الناس بدون تخصيص فئة معينة أو جماعة أو طائفة، فهو كتاب رب العالمين إلى من خلقهم بلا استثناء، فنلاحظ تكرار لفظة الناس في القرآن بدون تمييز بين أصنافهم و ألوانهم أو أجناسهم، فقد وردت مائة واثنتان وثمانون مرةً، فمنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾[1] ،

وقوله أيضاً: ﴿ و قرآناً فرقناه لتقرأه على الناس ﴾[2] ،

وقوله سبحانه: ﴿ ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾[3] ،

وقوله: ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾[4] ،

وقوله: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾[5] ،

وقوله: ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾[6] .

فإذا كان الكتاب لنا وبإسمنا فلا بد أن يخاطبنا بالمستوى الذي نفهم، وهكذا فعل ربّنا حيث يسر القرآن في توجيه الخطاب للناس، فما علينا إلا أن نرتفع إلى مستوى تقبّل هذا الخطاب حتى نفهم كتاب الله، أي علينا أن نفتح عقولنا، وان نتقبل القرآن بقلوبنا، فحينها نستطيع أن نرفع تلك الغشاوة. يقول

---

(١) سورة ابراهيم آية ١
(٢) سورة الإسراء آية ١٠٦
(٣) سورة الإسراء آية ٨٩
(٤) سورة يونس آية ١٠٨
(٥) سورة سبأ آية ٢٨
(٦) سورة الحج آية ٤٩

سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مّدّكر ﴾.[1]

نعم القرآن ميسّر لمن يطلب الفهم يكون تلميذاً متواضعاً له، ويرتفع إلى مستواه، فانه يدرك تلك المعاني، ويتوصل إلى تلك المفاهيم، فيبلغ أعماقه ويفهم آياته، فأما أن يبقى ولا يرتفع إلى مستوى الخطاب فانه لن يصل إلى شيء من ذلك.

وكتاب جاء إلى الناس وأراد الله منهم أن يفهموه، فلا يجب أن يكون كتاباً معقداً أو صعباً لا يفهمه ولا يدرك معانيه أحد. فالله الذي خلق الإنسان من ضعف اعلم بما في هذا الإنسان، وبما يحتاجه، فخرج إلى هذه الدنيا وهو لا يعلم شيئاً لا عن نفسه ولا عنها، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾.[2]

فكلام الله سبحانه وتعالى كلام الخالق العليم القدير إلى الإنسان المخلوق الضعيف الجاهل فكيف يتحدث العليم مع الجاهل فخطابه يكون موجهاً إلى عقولنا البشرية، حيث لا نسبة بين العالم الخالق القدير وبين الإنسان الجاهل الضعيف، فسبحانه يتصف بكل صفات الكمال المطلقة التي هي بالنسبة إلى الإنسان محدودة فلا تتجاوز ذاته وما يمتلك من طاقات وإمكانيات.

---

(١) سورة القمر آية ١٧

(٢) سورة النمل آية ٧٨

عقل البشر وفهمه:

الخالق القدير الذي أوجد هذا الكون بقدرته جعل فيه مجموعة من الحقائق الكبرى، و أراد للإنسان أن يفهمها من خلال توجيه الخطاب إليه والحديث معه عبر هذا الكتاب المبارك، فقسمٌ من هذه الحقائق يختص به مباشرة بحياته وممارساته وعلاقاته في هذا الكون كبشر تحكمه علاقة بما يوجد حوله من موجودات ومخلوقات أخرى، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقائق باعتبارها ملموسة للإنسان، فتحدث عن الطبيعة وما فيها من أمور ظاهرية يباشرها، ويتعامل معها يومياً، ويتأثر بها، وتؤثر عليه كحركات الأجرام السماوية والكواكب وبالأخص حركة كوكبنا الذي نعيش عليه، وما فيه من آثار على الإنسان والحيوان والنبات والأرض التي يعيش عليها.

وهناك قسم آخر من الحقائق فوق عقل البشر لا فهم البشر كما أسلفنا في حديث مضى، حيث هناك فرق بين عقل البشر وفهم البشر، فإذا كانت تلك الرؤى والبصائر وما يطرحه الرب في كتابه العزيز فوق مستوى الفهم فلا يفهمها العبد، ولا يفهم ماذا يريد الله ؟ فيكون الكتاب بالنسبة إليه غامضاً.

ولكن مع ذلك وحتى تبقى معجزة القرآن خالدة فإنه تجاوز عقل البشر المحدود لا فهمه، تجاوزه من حيث المستقبل أو ما نسميه بالغيب وما وراء الطبيعة، فإن هذه أمور فوق الحياة وليست هي من الأمور المحسوسة، ولذا أكد القرآن على مسألة الغيب والإيمان به وجعله جزءاً من الإيمان بالله. لكن القرآن لم يمنع الإنسان من استخدام كل طاقاته الحسية والعقلية والتجريبية لاكتشاف قوانين الطبيعة وما في الحياة.

فالقرآن الكريم دعا المسلم إلى ضرورة ذلك بشرط أن يكون مبنياً على

العلم فخاطبه قائلاً ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1] لكن مع تقدم الإنسان العلمي الذي يعمّق إيمانه بالله، يبقى الغيب هو حجر الزاوية، والركن الركين لكل دين سماوي، وقد وردت في القرآن الكريم اكثر من خمسين مرة كلمة الغيب منها قوله تعالى: ﴿و لله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾[2]

وقال أيضاً:﴿ وستُردُّون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾[3]

وقال أيضاً: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾.[4]

وهذه الحقائق تبقى من علم الله، وهو علم الهي شامل، وضبط لكل قواميس السموات والأرض التي لا يتسنى لأجهزتنا وقدراتنا الحسية المحدودة الإحاطة بها، حتى يبقى القرآن بها رفيعاً ومحتفظاً لا ينزل إلى مستوى العقل البشري المحدود، بل هو خطاب موجه إلى الإنسان يفهمه أن حاول أن يرتفع إلى مستوى الفهم، لان هذا الكتاب صحيح انه صغير في حجمه لكنه كبير في محتواه، فأراد الله أن يكون تبياناً لكل شيء وما يهم الإنسان في حاضره ومستقبله في دنياه و آخرته.

إذاً لا غموض في الكتاب ولا نقص فيه، وإنما الغموض فينا نحن، والنقص عندنا، فجاء القرآن ليرفع هذا الغموض، ويسد هذا النقص، وذلك بالاقتراب إلى كتاب الله حتى نفهمه.

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٦
(٢) سورة هود آية ١٢٣
(٣) سورة التوبة آية ١٠٥
(٤) سورة الأنعام آية ٥٩

كيف نفهم ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال هناك عدة أسئلة بحاجة إلى الإجابة عليها. بحاجة أن نمهّد أنفسنا إلى أن نفهم القرآن، وتكون لنا أرضية صلبة. فهناك مجموعة من التساؤلات في أذهاننا، الجواب عليها يشكل إطاراً عاماً لفهمنا لهذا الكتاب، لأنها ليست في تفاصيل الكتاب، وإنما هي أسئلة ترتبط بعموم القرآن ككتاب سماوي، وقد يرفع الجواب عنها كثير من الضباب والغمام عند من يريد أن يقدم على فهم هذا الكتاب.

فما هي هذه الأسئلة ؟ وما فلسفة ذلك منها ؟

لماذا نزل القرآن باللغة العربية ؟

لماذا نزل القرآن بالتدريج ؟

لماذا نزلَ في مكة والمدينة وما الفرق بين المكي والمدني ؟

ماذا يعني المحكم والمتشابه ؟

ماذا يعني الناسخ والمنسوخ ؟

عربي هكذا.. نزل:

قد أكّد القرآن على هذه المسألة في عدة آيات فقال سبحانه وتعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾[1] ،

وقال أيضاً:﴿ وكذلك انزلناه حكماً عربياً ﴾[2] ،

---

(١) سورة الزخرف آية ٣

(٢) سورة الرعد آية ٣٧

وقال في آية أخرى:﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾.[1]

لماذا نزل القرآن بالعربية مادام كتاباً عالمياً، ولكل النـاس ؟ ولمـاذا لم ينزل لكل قوم بلغتهم ؟ وهل للغة مدخلية في توجيه البشر والشعوب إلى وجهة معينة؟ وهل يكون لها دورٌ رئيسيٌ في توجيههم الوجهة الصحيحة أم لا؟

نعم اللغة لها دور كبير في توجيه الشعوب، فكل لغة تلعب دوراً، وتعطي ثقافة خاصة عبر مقرراتها إلى أهلها، ومن يتكلمون بها، لكن بالنسبة للغة العربية فإنها سمت على كل اللغات لما فيها من دقة وبلاغة، وتسمى لغة الضاد، لأنها من أفضل اللغات عند البشر، فهي تمتاز بالإفصاح والبيان عن الحقيقة، وما في الضمير بشكل واضح، ربما تفتقد اللغات الأخرى ذلك، ولذا قال النبي (ص) تأكيداً على سمو هذه اللغة ﴿ أحب العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي ﴾.[2]

والعربية مشتقة من الأعراب، وكما جاء في معاجم اللغة أن الإعراب يعني الإفصاح والإيضاح والبيان. فالعربية هي اللغة الأم عند الله التي بها نزلت كتب الله على أنبيائه، إلا أنها ترجمت عند الأنبياء بلغة قومهم بقدرة الله سبحانه و تعالى، لذا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (ع) ﴿ ما أنزل الله تبارك وتعالى كتابا و لا وحياً إلا بالعربية فكان يقع في مسامع الأنبياء بألسنة قومهم و كان يقع في مسامع نبينا بالعربية﴾.[3]

---

(١) سورة الشورى آية ٧

(٢) الدر المنثور (ج٤)ص٣

(٣) سفينة البحار (ج٦)ص١٩٢

عربية القرآن لا عروبيته:

استغل البعض عربية القرآن في حصره في العرب الذين نزل فيهم باعتبارهم أصحاب اللغة، وحاولوا أن يجعلوا ذلك شرفاً لهم لأنهم عرب، والقرآن جاء بلغتهم، وتحدث في مجموعة آياتٍ عنهم.

والعربية كلغة ما هي إلا أداة ووسيلة لإيصال الوحي الإلهي باعتبارها لغة واضحة لا تعقيد فيها، ولا غموض. وهي أوسع اللغات لأنه يتمثل فيها محتوى القرآن فهو محتوى الهي، وبرنامج سماوي. وهي ليست لغة ذات صفة تشريعية، وإنما المشرع هو الله خالق البشر جميعاً.

وحصر القرآن بأصحاب اللغة يعني حصر لقيم القرآن، ومعانيه، وما جاء به فهو ليس للعربي فقط بل هو ينتمي لهذا القرآن. ومن لم يعرف القرآن فهو أعجمي حتى لو كان عربياً.

فشرف العروبة ليست هي لكل عربي، و إنما هي لمن تعلم العربية و أخذ المبادئ السامية التي جاء بها القرآن الكريم، فعروبة الناس هي بمدى التزامهم بهذا القرآن، وتطبيق تعاليمه.

ولذا جاء في تفسير هذه الآية ﴿بلسان عربي مبين يبين الألسن ولا تبينه الألسن﴾.(1)

يقول العلامة المطهري وهو إيراني الأصل ونحن أيضاً مسلمون ولذلك ليست اللغة العربية لغة الحجاز ولا لغة اليمن إنها لغة القرآن. هل يستطيع قوم أن يقولوا أن القرآن قرآنهم ؟ الحجازيون اليمنيون المصريون أَلَهُمْ أن يقولوا إن

(1) تفسير الثقلين (ج٤) ص٦٥

القرآن قرآنهم ؟ ما من قوم له أن يدّعي بان العربيـة تختص بـه دون غـيره. أن اللغة هي العربية هي اللغة الدولية الإسلامية.[1]

والثقافة الـتي تجمـع المسـلمين هـي ثقافـة ذات إطـار أممـي عـالمي، تكـون ركيزتها التوحيد، فليست الثقافة قومية عربية كانت أو غيرها.

فنحن لا نملك ثقافة عربية وأخـرى فارسية أو أوربيـة بـل ثقافـة إسـلامية تتجلى في عدة لغات مختلفة. فأعداء القـرآن لا يحملـون العـداء للعـرب لأنهـم عرب ـ كما يدّعي بعض المثقفين من العرب ـ وإنمـا العـداء للثقافـة الإسـلامية التي يطرحها بلغته العربية.

و إذا كنا حقاً نريد البقاء لحضارتنا التي هـي دليـل شـخصيتنا و اسـتقلالنا فما علينا إلا أن نحافظ على هذه الثقافة النابعة من القرآن العربي.

و ما علينا إلا أن نسعى بالدرجة الأولى كواجب ديني للحفاظ على الثقافة الإسـلامية إلى تعلـم العربيـة تعلمـا متقنـا (عربـا وغـير عـرب) حتـى نسـتطيع الاستفادة من النصوص العربية قرآنا و حديثا.

لكن يبقى السؤال، الذي يراود الأذهان، بحاجـة إلى جـواب، و هـو لمـاذا يؤكد القرآن على عربيته يا ترى؟

أولاً: يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾[2] إنها دعـوة إلى سائر الناس أبناء آدم و حواء باعتبارهم ملزمين بالإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لإيجاد لغـة مشـتركة فيمـا بينهـم يتعلمونهـا بعـد أن ختمـت كـل الديانـات و نسخت بالدين الإسلامي، فعلى المسـلم أن يتعلـم هـذه اللغـة حتـى يسـتوعب

---

(١) دروس من القرآن ص١٢

(٢) سورة الشورى آية ٧

لطائف كتاب الله، و بلاغته التي تعجز الترجمة عن بيانها.

أليس العالم اليوم يدعو لإيجاد لغة مشتركة؟ أليست اللغة الإنجليزية هي من اللغات المشتركة فما من دولة و بلد و شعب عربي و غير عربي إلا و يتعامل بهذه اللغة، ففي مدارسنا و دوائرنا الحكومية و في كل شيء هذه اللغة لها وجود بينما لا تجد للغة العربية في الدول العربية و غير العربية وجود بهذه الكثافة الكبيرة!

و القرآن يدعونا إلى أن تكون هناك لغة عالمية مشتركة، يتفاهم بها المسلمون على مختلف لغاتهم فيما بينهم و مع غيرهم من غير المسلمين حينما تصبح لغة عالمية.

و اللغة المشتركة في الحقيقة هي في ترجمة القرآن إلى واقع عملي، فيكون ما نتحدث عنه من مفاهيم ورؤى و بصائر قرآنية هي اللغة المشتركة بين المسلمين، وبذلك تكون الحركة واحدة متجسدة في الاتجاه إلى قبلة واحدة، بصلاة تبدأ عند الجميع بلغة التوحيد، و برنامج عمل يلتزمه المسلم بعيداً عن انتمائه القومي، فيتحول إلى حج موحد، و صوم مشترك.

و اللغة كما بيّنا ما هي إلا أداة ووسيلة، فهي ليست حاجزاً أمام التفاهم مادامت القيم مشتركة، و المفاهيم واحدة تجمعهم تحت راية التوحيد، أليس القرآن يدعو المسلمين إلى الوحدة بمختلف لغاتهم **﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا﴾**[1] فهو يلغي كل أشكال التمزق الاجتماعي و التفرق على صعيد الجنس و الأرض، و لكن لا يضر مع ذلك لو تعلمنا هذه الوسيلة، و جعلناها أداوات مشتركة نتفاهم بها على ضوء تلك القيم و المفاهيم و الرؤى و

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

البصائر القرآنية المشتركة.

نعم أداة و وسيلة لا غاية و هدفا، و إن لم يكن كذلك فينحصر القرآن في قوم و جماعة، و تضيع تلك المبادئ السامية التي جاء بها كتاب ربنا، و لذا يقول سبحانه و تعالى: **﴿و لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾**.[1]

و لعل خطاب القرآن واضح فليس الهدف هو اللغة، و إنما هو الهدى و الشفاء الذي يتمثل في البرامج الحية، و التكاليف العملية التي يسعى المسلم جاداً في تطبيقها حتى تكون مشتركة بينه وبين غيره دون تمييز بلغة، أو قوم أو عنصر.

ثانياً: اللغة العربية ذات مميزات تختلف عن غيرها من اللغات، فهي اللغة الوحيدة التي تتسع لمعاني القرآن مالا تستطيع لغة أخرى أن تبين ذلك.

" ولقد كان الإعجاز القرآني خليقاً أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف على وجوه البلاغة القرآنية، و عن أسلوب القرآن الفذ في التصوير والتعبير".[2]

و لعل السبب في ذلك هو ما تمتاز به هذه اللغة من العمق والمرونة و السعة، و ما فيها من أبعاد لا تقتصر على الناحية البلاغية فقط. فيرى الرافعي أن القرآن يعتبر "نمطاً واحداً في القوة و الإبداع، و أن مرد ذلك إلى روح التركيب التي تتعطف على جوانب الكلام الإلهي. و هذه الروح لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، و بها انفرد نظمه، و خرج مما يطيقه الناس، و

(١) سورة فصلت آية ٤٤

(٢) مباحث في علوم القرآن ص٣١٢

لولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة، و تأليفها ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن هنا تعلق بعضه على بعض، و خرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت".[1]

و القرآن باعتباره رسالة إلى العالم، ويحمل برنامجاً إلهياً متكاملاً إلى الناس، فيه كل ما يحتاجونه إلى يوم يبعثون، فلابد أن تكون هناك لغة معبرة كي تتسع هذه المفاهيم و الرؤى القرآنية.

و قد امتاز القرآن في مفرداته و تراكيبه بإيصال المعنى إلى ذهن الإنسان بأقل قدر من التفكير، و بدون جهد و عناء، و بتصوير فني، وحس مرهف، و بإيجاز، و حذف للزوائد و الفضول، و الاستعارات بمعاني كبيرة و كثيرة و ألفاظ قليلة.

فإليك أمثلة على ذلك:

فمن آياته سبحانه وتعالى في وصف خمر أهل الجنة قوله تعالى: ﴿ ولا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾[2] أي لا يحصل لهم منها صداع و لا ذهاب عقل كلمتان فقط جمعتا كل عيوب و سلبيات خمر أهل الدنيا.

و قوله تعالى في ذكر فاكهة أهل الجنة: ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾[3] كلمتان أيضاً جمعتا كل المواصفات و حملت معها كل المعاني دون إطناب أو تطويل و يعني أنها لا مقطوعة في زمن معين و لا ممنوعة بثمن.

---

(١) تاريخ العرب (ج٢)ص٦٢
(٢) سورة الواقعة آية ١٩
(٣) سورة الواقعة آية ٣٣

و قد تكون سور القرآن في ألفاظها أو عباراتها و كلماتها ربانية، فتختصر الطريق على الإنسان في معرفة الرب و توحيده. و قد تشكل ثلث القرآن معنىً كما هو في سورة الإخلاص التي تبدأ بـ :

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، و لم يكن لله كفواً احد﴾[1] إنها تدل على التوحيد النقي الذي يكشف و بعبارات قليلة حقائق كبيرة في هذا الكون.

" إن التصور الكامل لأبعاد المضمون و استيعابه بحدوده لا يمكن أن يتم ـ خصوصاً في المرحلة الأولى من الرسالة ـ بلغة أخرى للتخاطب خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الكثير من المضامين القرآنية ترتبط بقضايا و آفاق بعيدة عن تصورات و آفاق الإنسان الجاهلي المعاصر لنزول القرآن، إما لارتباطها بعالم الغيب أو لطرحها مفاهيم عقائدية و اجتماعية و إنسانية تمثل طفرة في النظرة المحدودة لذلك الإنسان و للعلاقات الاجتماعية و الإنسانية".[2]

إن القرآن في بلاغته و فصاحته العربية فاق الزمان و المكان، بل لقد تغلب في أسلوبه على افتراءات و تخرصات أخيلة الشعراء و سبحات الأدباء، فهو لا يشبه شيئاً من كلام الفصحاء في أسلوبه الفذ العجيب، لأنه وحي يوحى، وتنزيل ينزل، و هدى رباني من الله إلى عباده المصطفين. فكل آية من آياته، بل و كل كلمة منه تعبر عن معنى كبير ذا قيمة واسعة، في عبارات موجودة ذات إيحاءات كبيرة.

ثالثاً: القدر الإلهي و الحكمة الربانية اقتضيا أن يحمل العرب رسالة النور و

---

(١) سورة الإخلاص آية (١-٤)

(٢) الهدف من نزول القرآن ص٩٨

الهداية إلى كل الأمم و الأجيال القادمة فأنزل الله لهم هذا الكتاب بلغتهم ولسانهم بالرغم من أن القرآن جاء هداية للبشرية، و رسم الطريق لهم بغض النظر عن ألسنتهم و لغاتهم و قومياتهم، فكان العرب هم الجماعة الأولى التي أراد الله مخاطبتها عبر كتابه لكي يحمّلهم مسؤولية تبليغ هذه الرسالة، و يقيم الحجة عليهم.

و قد كانت اللغة العربية عاملاً رئيسياً و مؤثراً في استجابة العرب للقرآن، و الاهتداء إلى تعاليمه، و ذلك بسبب الحواجز التي كانت تصدهم عن قبول أية دعوةٍ للتعصب. قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين**﴾.[1]

فالجاهلية العربية و مع ما كانت تعاني من أزمات اجتماعية و نفسية و فراغ روحي إلا أنها بحاجة إلى لغة معبرة حتى تتفاعل معها روحياً و نفسياً. فلو خاطبهم القرآن بغير لغتهم لم يتحقق ذلك التفاعل، فكان الخطاب بلغتهم أبلغ في إقامة الحجة عليهم و بالخصوص من كفر منهم، فقد بيّن القرآن أن السبب لم يكن في النبي (ص) الذي اتهموه، أو غموض في الوحي، لأن القرآن قد نزل بلغتهم، و خاطبهم لإثارة العواطف والأحاسيس، و لكي يتفاعل بعد ذلك مع عقولهم و فكرهم.

ذلك التفاعل قد تم نتيجة توجيه الخطاب لهم بلغتهم لتوضيح الحقائق لهم، و الالتزام بها لكي يتحمل هؤلاء العرب مسؤولية تبليغ هذه الرسالة إلى العالم بقيادة النبي العربي محمد بن عبد الله (ص).

---

(١) سورة الشعراء آية (١٩٨-١٩٩)

هكذا نزل القرآن:

للقرآن عطاء لا ينضب، و نبع لا يجف. فنزوله على قلب النبي (ص) كيفما كان لا يحط من قدر القرآن، و لا من مكانته، و لا يغير شيئاً من معالمه. فهو كتاب الله الذي نزل بأرقى صورة يحمل في طياته نوراً منبعثاً لهداية الإنسان، و إخراجه من الظلمات إلى النور.

يتساءل البعض عن كيفية نزول القرآن، و هل نزل دفعة واحدة أم كان نزوله مفرقاً على قلب النبي (ص)؟ والذي يهمنا من كل ذلك هو عطاؤه الإنساني عبر تلك النصوص التي ثبتت أنها آيات قرآنية نزل بها الوحي، و أبلغها النبي (ص) لنا، كما كان يصنع ذلك ربنا مع الأنبياء الذين سبقوا النبي محمد بن عبد الله (ص) فيقول سبحانه و تعالى: **﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾**.[1]

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يبعث الله نبياً للبشر خاتماً لهم، يُوحى إليه كي يكون متصلاً بالسماء عبر الوحي و تحت رعايته، حتى ظل متجاوبا مع الرسول يُرشده ويهديه و يثبّته و يزيده اطمئناناً و يبلّغه رسالة الله و ما فيها من تشريعات سماوية. فالوحي كان للنبي (ص) بمثابة الرفيق الأمين الذي واكب الدعوة طيلة ثلاثة و عشرين عاماً، و كانت هي المدة التي نزل فيها القرآن.

فنزول القرآن الذي جاءنا عبر الوحي لم يكن تصرفاً شخصياً من جبرائيل في طريقة نزوله و مجيئه إلى الرسول، و إنما كان ذلك النزول بأمر الله عز وجل، فلم يكن جبرائيل إلا مبلغاً و ناقلاً عن الله عز وجل، إلى النبي (ص)،

---

(١) سورة الشورى آية ٥١

فكان هذا التبليغ لهذه الرسالة السماوية دفعة وتدريجا.

آراء حول النزول:

نعم لربما هناك آراء في نزول القرآن فهل نـزل دفعـة واحـدة أم تدريجيـاً و تنجيما؟ نستعرضها و نرى الرأي المصيب منها.

و قد أورد الطبرسي هذه الآراء في تفسيره:

أولاً: "إن الله أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم أنزلـه على النبي (ص) بعد ذلك نجوما، و هو رأي بن عباس.

ثانياً: إنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقـات مختلفـة، وبه قال الشعبي.

ثالثاً: إنه كان ينزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ما يحتاج إليه في تلك السنة جملة واحدة، ثم ينزل على مواقع النجوم إرسـالاً في الشـهور و الأيـام، و هـو رأي ابن عباس.[1]

وهناك أيضا آراء أخرى كثيرة لسنا بصدد استعراضها، لكـن نلاحـظ أن هذه الآراء كلها تشير إلى ما ذكرناه في البدايـة، و هـو أن القـرآن نـزل مرتـين ويؤيد ذلك ظاهر الآيات القرآنية التي سنستعرضها فيما بعد، و هـي تشـير إلى نزول القرآن جملة على قلب النبي (ص)، ونزوله تدريجياً أيضا، ولقد أكّد هـذا المعنى ابن عباس بقوله: " أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر، و في ليلـة مباركـة جملـة واحـدة، ثـم أنـزل بعـد ذلـك علـى مواقـع النجـوم رسـلاً في الشـهور والأيام"[2] وفيما يؤكد هذا المعنى قوله تعـالى في نـزول القـرآن مـرة واحـدة

---

(١) مجمع البيان (ج١)ص٢٧٦

(٢) كتاب الأسماء و الصفات، للبيهقي ص٢٣٦

﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[1] وقوله أيضا: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾.[2]

و أما في نزوله مفرقا فقوله تعالى: ﴿و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾.[3]

ولعل في هذه الآية إشارة إلى أن القرآن نزل مرتين، و نفهم ذلك من كلمة التنزيل التي وردت بصيغتين مختلفتين، فمرة نزلناه و مرة أنزلناه، فكل منهما توحي إلى معنى، فما هو ذلك المعنى؟ يقول العلامة المدرسي" الفرق هو أن كلمة أنزلناه أي أنزلناه جملة واحدة (ونزلناه) أي على أقساط".[4]

و في نفس السياق يقول في مورد آخر حول آية ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾.[5]

" توحي كلمة التنزيل بنزول القرآن على مراحل بينما توحي كلمة الإنزال في الآية التالية ﴿إنا أنزلناه إليك﴾ بنزوله جملة واحدة، و لا تناقض في ذلك لأن القرآن نزل مرتين مرة واحدة في ليلة القدر و مرة بصورة منسجمة انسجاما مع الحوادث المتغيرة".[6]

---

(١) سورة الدخان آية ٣
(٢) سورة القدر آية ١
(٣) سورة الإسراء آية ١٠٦
(٤) من هدى القرآن (ج٦)ص٣٢٣
(٥) سورة الزمر آية ١
(٦) من هدى القرآن (ج١١)ص٤٢٧

نزل تدريجا .. لهذا السبب:

لنقف هنا على الجانب الحساس في هذا الموضوع لنتناول منه مسألة تنجيم القرآن على قلب النبي (ص)، و ما الحكمة منه؟

ربما لا نتساءل عن نزوله مرة واحدة حتى نقف على هذا الجانب، و نتحدث عنه بمقدار ما نقف على جانب تعدد النزول، فإن في ذلك أسرار و حكمة تتناسب وطبيعة هذه الرسالة المتدرجة في تعاليمها.

فما هي حكمة النزول بالتدريج؟

أولاً: المرحلية في طرح الرسالة:

التغيير سمة من سمات الأنبياء المصلحين، وشغلهم الشاغل، و سلاحهم في ذلك هو الكلمة التي تعبر عن الفكرة، و البرنامج الذي جاءوا به للناس، لنقلهم من واقع لم يحقق إنسانيتهم إلى واقع يرفعهم إلى مستوى الإنسانية. فكانت الكلمة المعبرة التي التزمها النبي لكي تتحول إلى فعل مُلزم في شخصية مؤمن يتحرك وفق تلك البرامج التي جاءت هدايته، و أنار الطريق له. فكان من العوامل التي ساعد على نجاح الفكر التغييري للأنبياء، نفاده إلى فطرة الإنسان، و تسلطه على عقله و قلبه فأخذ في بعث الحياة فيه من جديد، و تحولت الفكرة إلى فعل في تحديد مسار التاريخ، و صياغة مصيره، و إعطاءه القدرة على ممارسة مهمته في صنع الحضارة، و المشاركة في بنائها عبر المكان بامتداد الزمان.

إن الرسالة المحمدية التي جاءت معالمها في القرآن الكريم تهدف إلى تغيير فرد ضمن مجتمع كبير و واسع، وكلاهما مخاطب بالتغيير و كلاهما مؤثر في

الآخر. فلم تكن الرسالة تتجاوز الفرد على حساب المجتمع، و لا المجتمع على حساب الفرد، بل هي عملية تغييرية لا تحمل إلا بعدا واحداً بالنسبة إلى الفرد و المجتمع، و هو البعد الديناميكي باعتبارها حركة يتغير بموجبها المحتوى الداخلي للإنسان فتُغير بذلك المظاهر العامة للحياة.

ولعلنا نعزي السبب في فشل الأطروحات الأخرى التي تدّعي أنها تحمل فكراً تغييرياً على مستوى الحضارة لتقود المجتمع إلى السلام، لعل ذلك يرجع إلى ارتجالية أو عفوية أو اعتباطية هذا الفكر. وقد أشرنا إلى ذلك في موضوع سبق هذا البحث، وحيث أن الإسلام يريد أن ينشر رسالة ليغير بها عقائد الناس و أفكارهم، يضع قوانين و تعاليم جديدة عليهم لتنظيم حياتهم الفردية و الاجتماعية، فكانت تأتيهم هذه التعاليم متدرجة، لصعوبة التغيير المفاجئ للأفكار التي سبق و أن آمنوا بها وعشعشت في أدمغتهم، فما كان من الوحي الذي جاء ببديل لهذه الأفكار إلا أن يتدرج بالتشريع، و أن يكون الإقناع بالفكر الجديد خاضعاً للأسلوب و الوسيلة التي يختارها الله. بل و حتى الظرف المناسب و الوقت الملائم، و ذلك تحاشياً للهزات الاجتماعية العنيفة، و الصدام الذي يحدث فيما لو فاجأهم الوحي بكل ما لديه،، و بيان كل الانحراف الذي هم عليه مرة واحدة، فلابد من أخذهم رويداً رويداً بما يوافق تطويرهم من التشريعات والأنظمة والقوانين فيغير سلوكهم.

و كان للأسلوب دور كبير في التدرج على صعيد المجتمع. فبدأ النبي (ص) بالأقرب ثم الأقرب ثم بعشيرته و بمجتمعه و قبيلته. كذلك تدرج في الأسلوب، حيث كان القول الحسن ثم الإرشاد و الموعظة، و بيان المواقف السلبية و المقاطعات السلمية، و النهي عن الركون إلى الأعداء.

كما أنه ليس من الحكمة وضع كل ما جاءت به الشريعة في أيدي الناس و لو تم ذلك لما استطاع النبي (ص) أن يربي هذه الأمة. يقول الزرقاني في الحكمة من تدرج القرآن: "التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة، و عبادتهم الفاسدة، و عادتهم المرذولة. و ذلك بأن يروضوا على هذا التخلي شيئاً فشيئا، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئا. فكلما نجح الإسلام في هدم باطل انتقل بهم إلى هدم آخر، و هكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها، وهم لا يشعرون بعنت و لا حرج، و فطمهم عنه دون أن يرتكسوا في سابق فتنة أو عادة".[1]

وهذه كانت طريقة القرآن في تربية الأمة. و السياسة الرشيدة التي اتبعها النبي(ص) معهم - و لم تكن منه بل هي مستوحاة من كتاب الله - فأخذ يمهّد لهم الطريق كي يتحلوا بالعقائد الصحيحة، و يتركوا سلبيات الجاهلية، و لتزموا الأخلاق الفاضلة، و يتجهوا إلى عبادة الله بدل عبادة الأصنام بهذه السياسة الرشيدة. و لهذا بدأ القرآن بفطامهم عن الشرك و الإباحة، و بصرهم بالتوحيد، و عرفهم على المسؤولية في الحياة الدنيا، و بيّن لهم أن هناك بعث بعد الموت و جزاء وحساب، كل ذلك بالأدلة والبراهين.

بعد ذلك جاءت مرحلة العبادة التي بدأها الله سبحانه وتعالى معهم بفريضة الصلاة قبل الهجرة، و الزكاة و الصوم في السنة الثانية من ا لهجرة، ثم بعد ذلك بالحج في السنة السادسة منها.

كما أن القرآن زجرهم عن الكبائر، وشدد عليهم فيها ونهاهم عن الصغائر. كل ذلك بالرفق و اللين. و تدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (ج١) ص٤٩

فيهم كالخمر. و كانت الحكمة هي الغاية في هذا التدرج حتى نهاهم عنها وخلصهم من خطرها و شرورها. فالقرآن أنتج هذا الأسلوب في طرح رسالته فكانت الخطة التي اتخذها تنظر إلى البعيد إلى هداية الإنسان، لبناء حضارة شامخة تمتد جذورها في أعماق الأرض قائمة على تشريع رباني، و سياسة حكيمة.

ثانياً: صياغة شخصية القائد:

أليس الله هو الذي يبعث الأنبياء و يرسلهم إلى البشر؟ أليس الاختيار سبق البعثة ويكون على أساس حسن السيرة و السلوك للمبعوث؟

و المتتبع لحياة الأنبياء و سيرتهم يرى أن هناك لمسات إلهية مباشرة في إعدادهم، و رعايتهم الخاصة من أجل القيام بأعباء المسؤولية التي يحمّلهم إياها.

فكان الله يرعاهم قبل بعثتهم، فمنذ سني حياتهم الأولى يكونون موجودين بعيدين عن الأرجاس و الأوثان، يتحلون بالصفات الحميدة و الأخلاق النبيلة، و بعد بعثتهم و اتصاله مباشرة بهم، أو عن طريق الوحي يخضعون للون خاص من الإعداد الإلهي لحمل مشعل الهداية إلى الناس بعد أن اكتملت فيهم معالم الشخصية الربانية التي تحمل صفات المصلحين.

و هكذا كانت شخصية النبي محمد (ص) خاتم الأنبياء تحت رعاية الله و تربيته، و ما نزول القرآن منجماً إلا من أجل تحقيق هذه التربية، و إظهار عظمة النبي (ص) من خلال ارتباطه بالوحي.

فتجدد الوحي و تكرار نزوله من جانب الله إليه لتثبيت فؤاد النبي (ص) و

تقوية قلبه، كما قال سبحانه و تعالى: ﴿ **كذلك لنثبّت به فؤادك و رتلناه ترتيلا**﴾[1] ، وقوله أيضاً: ﴿**و كلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك**﴾.[2]

وذلك يعني أن هذه المسؤولية الملقاة على عاتق النبي (ص) أي النقلة الحضارية التي يجب أن يصنعها مع قلة الأنصار و كثرة الأعداء و اشتداد الخصام بينه وبين قريش و مع قلة الإمكانيات و الوسائل لمواجهتهم، فما كان من الوحي في كل نوبة من نوبات النزول إلا لتأييد النبي (ص) و تعهد الله إياه و تسليته، و بيان مدى الارتباط الإلهي، و أنه بعين الله، كما خاطبه سبحانه وتعالى: ﴿**و اصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا**﴾.[3]

فلم يكن النبي (ص) يمتلك إلا أصالة الرسالة و صفوة من أصحابه و أهل بيته لهذه المهمة الصعبة التي خاطبه الله قائلاً: ﴿ **واصبر كما صبر أولو العزم**﴾.[4]

فالقرآن الكريم إنما نزل بشكل تدريجي من أجل أن يثبت النبي الذي يمثل القيادة و القدوة الحسنة للمسلمين في هذه العملية التغييرية التي تواجه المصاعب و الآلام، و تحتاج إلى الصبر و الثبات.

"و هذا التثبيت ليس أمراً دفعياً آنياً بل هو عملية مستمرة و حاجة متجددة لأن النبي (ص) يواجه في عملية التغيير قضايا و مشاكل و آلاماً و مصاعب متجددة و مختلفة يحتاج فيها إلى الإمداد الإلهي، و التثبيت

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٢
(٢) سورة هود آية ١٢٠
(٣) سورة الطور آية ٤٨
(٤) سورة الأحقاف آية ٣٥

القرآني".[1]

و مهما يكن فالنبي (ص) بشر ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾[2] ففي طبيعته استعداد لجميع الانفعالات النفسية، فهو يشعر بما يشعر به البشر من الحزن و اليأس و ضيق الصدر، و لذا خاطبه القرآن قائلاً:﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾[3] وفي آية أخرى ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[4] و كان الغرض من نزول هذه الآيات التي هي كثيرة في هذا المجال لتسلية النبي (ص)، و تثبيت فؤاده، و إرشاده إلى الصبر في مقابل استمرار أذى المشركين، و اضطهاد الكافرين له.

و كل ذلك للارتفاع بالنبي (ص) إلى قمة الأسوة الحسنة بضبط النفس ليفكر و يخطط بقراءته للقرآن فيستلهم منه الصفاء و الإخلاص ﴿ كذلك لنثبّت به فؤادك و رتلناه ترتيلا ﴾.[5]

و لكي يكون التخطيط ناجحا يحتاج إلى قوة في النفس، و عزيمة تشده إلى مقاومة كل إغراءات الحياة، فيبعد عن نفسه نقاط الضعف و العقد و السلبيات.

فالقرآن بهذا التدرج في النزول، و تكرار نزول الآيات بهذه الطريقة، هي لتربية النبي (ص).

ثالثاً: تربية الأمة:

---

(١) الهدف من نزول القرآن ص٧٧
(٢) سورة الكهف آية ١١٠
(٣) سورة الأنعام آية ٣٣
(٤) سورة فاطر آية ٨
(٥) سورة الفرقان آية ٣٢

الأمـة الناشـئة كالأمـة الإسـلامية في ذلـك اليـوم بحاجـةٍ إلى التربيـة علــى صعيدي العلم والعمل، والقرآن بدوره أراد أن يبني حضارة قائمة علـى أسـاس العلم مقرون بالعمل لا ينفك عنه، والعمل إن لم يكن له حـظ مـن العلـم فهـو عمل المجانين الذين يعملون مالا يعون به، ولا يفكرون قبل الإقدام عليه. ﴿ قال رسول الله (ص) من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ﴾.[1]

فيمكن لنا أن نقول انهما في نسق واحد في حالة الحركة، ولو أنه لابد من سبق العلم على العمل حتى يكون ذلك العمل الذي تجسد في شخص الإنسـان على الواقع موفقاً.

والقرآن الكريم كتاب علم وعمل في آنٍ واحد، وليس هو مجرد نظريـات أو تشريعات يمكن لنا أن نخضعها للتجربة، ونرى مدى التجاوب معهـا، وأيـن يكمن الخطأ فيها فنقوم بإجراء تعديلات عليه، أن هذا هو شـأن البشـر وعقلـه المحـدد، بينمـا القـرآن كتـاب جـاء مـن اللامحـدود خـالق البشـر، فهـو كتـاب ﴿احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾.[2]

فليس الجانب العملي الذي تأكد من خلال ممارسـة المسـلمين الأوائـل إلا تطبيقاً للجانب العلمي لتنظيم شؤون الناس الحياتيـة، فكــانت تلـك التعـاليم التي أقرّها القرآن و واجبات الفرد و الجماعة و الحقوق العامة و إقامة الموازيـن بالقسط ليست تشريعات فحسب، بل هي تطبيقات جاءت مطابقة لسـنة الله، و مسايرة للتطور التدريجي في التغيير الذي حصل في المجتمع بفضل تنزيل القـرآن على الناس بهذه الطريقة ـ أي نزوله شيئاً فشيئا ـ يتغـير المجتمـع علـى أثـر هـذا النزول التدريجي حتى تتم عملية التغيير في كل جوانـب المجتمـع بـنزول القـرآن

---

(١) الكافي (ج١) ص٢٤

(٢) سورة هود آية ١

كاملاً في طيلة فترة الدعوة الإسلامية.

و كانت طريقة القرآن في بيان هذين الجانبين ـ العلم و العمل ـ هو مسايرة الحوادث و الطوارئ التي تستجد عند المسلمين. فكان المسلم يتعلمها و يعلمها غيره بعد أن عمل بها.

و كان الوحي يتردد في كل ما يستجد من أحداث و حسب احتياج الناس فيكون له الأثر التطبيقي البالغ في نفوس المسلمين و يكون للحكم النازل صفة الالتزام العملي المباشر. و هذه الكيفية من نزول القرآن مدرجاً على النبي(ص) هي التي أكسبته قوة التأثير فامتاز بإسلوبه العملي، و طريقته الفعالة في بيان الأحكام و التشريعات.

و هذا النزول التدريجي كان لابد منه لصياغة تلك النفوس في إطار جديد، و تربية صحيحة لأنها قريبة عهد بالجاهلية، و بكل ما فيها من مورثات و سلبيات و مفاهيم خاطئة و أعراف لا يقرها العقل، فكانت تلك النقلة الحضارية قائمة على أساس من العلم الممنهج من قبل السماء.

فكان التدريج هو الخطوة العملية التي تستجيب لها النفوس، و الأسلوب المناسب للتغيير الجذري. لأن النقلة الفورية و المفاجئة خطوة غير مدروسة، و عادة ما تكون ارتجالية، و غير عملية، و قد تسبب ردة فعل مضادة تهدم كل ما أرادته رسالة القرآن.

و لاشك أن الرسالة القرآنية كما هي قائمة على العلم قائمة على العمل المدروس، و المنظم الذي ليس فيه حشو و كثافة و تراكم، باعتبار أن هذه الجماعة التي آمنت بالرسول مبتدأة في تلقي أحكام جديدة فكان لابد من التمهيد لها في خطوات عملية متعاقبة لا متراكمة مع بيان الجانب العلمي، و

هو ما اشتملت عليه تلك الأحكام من منافع و مضار و مآثم.

رابعاً: ارتباط الأمة بوحي السماء:

و ذلك يحتاج إلى إرشاد المسلم إلى مصدر القرآن، و إنه قد جاء من الله وحده، و هو ليس بكلام من النبي محمد(ص)، و لا كلام بشر سواه.

و يتبين لنا من ذلك من خلال استعراضنا للقرآن و آياته، فلا نرى غير الإحكام في المعنى، و الدقة في اللفظ، و المتانة في الأسلوب، ناهيك عن البلاغة و ما فيها من إعجاز، فإنك لا تجد غير النظم بين الحروف و الكلمات و التنسيق بين الجمل و الآيات فتراها مترابطة في نسق واحد و سياق قرآني جميل، كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): ﴿ **إن القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق**﴾.[1] و إن هذا لسر من أسرار القرآن الإعجازية، و سمة فريدة تدلنا على مصدره الرباني ﴿ **و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾.[2]

هذه القوة الربانية المكينة أرادت أن تشد المسلمين و تربطهم به، فكانت طريقة النزول التدريجية ساعدت على ذلك حينما كانوا ينظرون حكماً في واقعة ما بشوق و لهفة ليستطلعوا على رأي السماء جرّاء هذا النزول المفرق. يقول آية الله السيد حسن الشيرازي: "لتجدد عهد الأمة بالسماء. لأن نزول القرآن يلهب حماس الأمة و يدلها على ارتباطها الفعلي بالسماء. فلو نزل دفعة واحدة لانتهى زخم التجديد فيه في فترة زمنية. و أما وقد نزل متفرقاً فكان

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٧٥

(٢) سورة النساء آية ٨٢

زخم التجديد فيه مستمراً، يروّي المشاعر الإيمانية بالدم الجديد".[1]

و هذا الارتباط أحدث تفاعلاً بين الجانب التشريعي و الجانب التنفيذي، فكان المسلم يسمع آية أو حكماً فيهرع لتطبيقه، و إبلاغه إلى بقية المسلمين.

فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: "حدّثنا من كان يُقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله (ص) عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخر حتى يعملوا ما في هذه من العلم و العمل".[2]

و هذا الربط الفعلي بين المسلم و كتاب ربه يجعله خاضعاً لإرادة الله ضمن تطبيق برامجه و تعاليمه الحقة، و يرفع عنه الضيق و الحرج حيث أن الله سبحانه يراقب تصرفات المسلمين، وما يواجهونه من أحداث، و وقائع تحتاج إلى بيان فيكون الوحي حاضراً عند النبي(ص) لإخباره بأمر السماء لما لهم فيه من حرج و ضيق.

"فالمصاحبة الزمنية بين الحكم الذي تنزل به الآية و الحديث أو الواقعة سبب متين للامتثال و تطبيق الأمر الذي أحدث ترابطاً و تلازماً بين التشريع و التنفيذ. و لهذا كان المسلمون إذا سمعوا عشراً من الآيات يهرعون لتطبيقها ثم يعودون للاستزادة، و لو فرض نزوله دفعة واحدة لما تحقق ذلك".[3] و من الجدير بالذكر أن نزول القرآن مفرقاً يركز في أذهان المسلمين تعاليم السماء شيئاً فشيئا، و بالإقناع دون الإكراه حتى تتشرب قلوبهم القرآنية، و يكون التأثير واضحاً على سلوكهم، فيشعر المسلم حينها أنه يؤدي هذه التكاليف

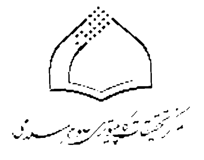
---

(١) خواطري عن القرآن (ج٢) ص٣٥٦

(٢) البحار (ج٩٢) ص١٠٦

(٣) موجز علوم القرآن ص١٢٣

دون تصنع أو إجبار أو رقابة أحد، و لعل هـذا الأسلوب يجعل المسلم أكثر قناعة بما يعمل فيمتثل لأوامر السماء، و يتصرف وفق هدى الشريعة، وما تمليه عليه تلك الآيات النازلة عبر الوحي.



مكي ومدني:

هناك طريقة أخرى جاء بها القرآن و قد تميزت به آياته، فقسم منها يسمى مكي والقسم الآخر يسمى مدني. فما الفرق بينهما؟ و لماذا هذا التفريق في النزول؟

لعل من تسمية الآيات بالمكية و المدنية نفهم أن قسماً من القرآن نزل على النبي (ص) في مكة، والقسم الآخر نزل في المدينة، وهذا يعني أن دعوة النبي (ص) مرت بمرحلتين حسب نزول الآيات. مرحلة الرسالة الأولى كانت في مكة قبل هجرة النبي (ص)، والمرحلة الأخرى كانت في المدينة بعد الهجرة. وليس من غرضنا في هذا البحث أن نستعرض بشكل مفصّل حول هذا الموضوع لأنه بحد ذاته بحث مفصّل يحتاج إلى إطناب وتحقيق في مكي القرآن ومدنيه، وهو بحث جدير بالاهتمام و التأليف لمعرفة ذلك بالتفصيل.

و مع ذلك نحاول أن نفهم الشيء اليسير عن الموضوع، و ما هي فائدة فهمنا لذلك؟ لنكون على بصيرة لكتاب ربنا.

للعلماء في تعريف المكي والمدني ثلاثة آراء:

الأول: ومنهم من اعتبر النزول أساساً في التفريق بين المكي والمدني.

الثاني: منهم من رأى أن المخاطبين هم الأساس في ذلك، فالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، و المدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

الثالث: و هو المشهور أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، و المدني

ما نزل بعد الهجرة و إن كان بمكة.[1]

و يرى الزرقاني أن الرأي الثالث هو الأصح فيقول: "و هو تقسيم صحيح سليم لأنه ضابط حاصر و مضطرد لا يختلف بخلاف سابقيه، و لذلك اعتمده العلماء و اشتهر بينهم وعليه فآية ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ مدنية مع إنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع، وكذلك آية ﴿ **أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ فإنها مدنية مع إنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح ".[2]

و يمكن لنا أن نقول هذا الرأي هو الأصح لأنه يضع أيدينا على الظروف و الملابسات التي نزلت فيها هذه الآية أو تلك، و بعبارة أخرى يبين لنا سبب نزول الآية في ذلك الموقع سواء كان المدينة أو غير ذلك من المواقع التي نزلت فيها آيات القرآن، فسورة الفتح نزلت بين مكة و المدينة عند رجوع النبي (ص) من الحديبية.

من ذلك نشير إلى أن الغالب في الآيات إنها نزلت في المدينة و في مكة، و سيتضح لنا من خلال بيان مواصفات و خصائص المكي و المدني لكن هناك دلالات تاريخية واضحة كما أشرنا إلى بعض ذلك أنها لم تنزل في مكة و لا في المدينة و مع ذلك أدرجت إما في القسم المكي أو القسم المدني، فبناءً على ذلك نقول أن أصح الأقوال هو الرأي الثالث فحينها نستطيع أن ندرج ما لم

---

(١) البرهان للزركشي(ج١) ص١٨٧

(٢) مناهل العرفان (ج١) ص١٧٧

ينزل في المدينة و لا في مكة ضمن هذا الرأي.

و لعل في هذا الرأي إشارة إلى عامل الزمن فيكون إلى جانب المكان الذي نزلت فيه الآية و الأشخاص المعنيين بها و الموضوع الذي تحدثت فيه عنهم.

و لكن لعامل الزمن دور كبير في معرفة التاريخ الإسلامي للدعوة المحمدية و التاريخ التشريعي للحكم التكليفي بمعرفة موضوع ذلك الحكم، و بهذا لا يمكن أن نتغاضى عن هذا العامل معولين على المكان أو الأشخاص أو الموضوع في التقسيم المكي و المدني، يقول الدكتور صبحي الصالح: " هذه سورة الممتحنة من مطلعها إلى ختامها نزلت بالمدينة إذا لاحظنا المكان، و كان نزولها بعد الهجرة إذا اعتبرنا الزمان و وقعت خطاباً لأهل مكة إذا أردنا الأشخاص، و اشتملت على توجيه اجتماعي محض قلوب المؤمنين إذا رغبنا بمعرفة، لذلك أدرجها العلماء في باب ما نزل في المدينة، و حكمه مكي و ذلك قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا**﴾[1] نزل بمكة إذا التمسنا المكان و يوم الفتح بعد الهجرة إن تحرينا الزمان، و الغاية منه الدعوة إلى التعارف و تذكير الإنسانية بوحدة أصلها إن راعينا الموضوع و هو - إن راعينا الأشخاص ـــ خطاب لأهل مكة و المدينة على السواء. فما سمّاه العلماء مكياً على الإطلاق و لا مدنياً على التعيين بل أدرجوه في باب ما نزل بمكة و حكمه مدني.

على أننا لم نتردد في تفضيل التقسيم الزمني للمكي و المدني لأننا نواجه موضوعاً وثيق الصلة بالتاريخ، فليس لنا أن نختار في مثله التبويب المكاني ما دمنا نرمي إلى تحديد ما نزل بمكة أو المدينة ابتداءً و وسطاً و ختاما، فإن هذه

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

الأطوار المتعاقبة تفرض أن يكون اختيار الترتيب الزمني أمراً بديهياً لا مجال للتردد فيه. أما تعيين الأشخاص و استخراج الموضوعات فأمران ثانويان يقعان موقعهما المناسب من الترتيب الزمني المترادف ترادف الوقائع و الأحداث".[1]

و لا شك أن المكان يلعب دوراً باعتباره يحدد موقع الآية دون أن يتجاهل البيئة و تأثيرها على الأشخاص، لكن عامل الزمن يبقى هو الواجهة الرئيسية في تقسيم القرآن إلى مكي و مدني.

التقسيم و موضوعات الآيات:

إن لهذا التقسيم أهمية كبيرة في معرفة موضوعات آيات القرآن و محتواها من حيث الظرف الزماني و المكاني الذي نزلت فيه. فلاشك أن الآيات المكية تختلف في موضوعها و محتواها عن الآيات المدنية، فالمكية كانت في بداية الدعوة فهي تتحدث عن أمر جديد في ظروف خاصة كان اهتمام الوحي بأمر السماء في أن تسير الدعوة وفق تعليمات تصدر من الله عز وجل، فكانت الآيات مرافقة لتلك الظروف والأوضاع التي كان يعيشها النبي (ص) مع ذلك المجتمع، فكان يحوطها نوع من السرية التامة، بينما الآيات المدنية اختلفت فيها الظروف و تغيرت الأحوال إلى أحسن حال، فاستتب الأمر إلى النبي (ص) و شكّل الحكومة الإسلامية في أُطرها و قوانينها النابعة من القرآن، فكانت تلك الآيات مرافقة للنبي (ص) في دعوته في المدينة عبر نظامه الذي أقامه فيها، لعل هناك مميزات تميّز المكي عن المدني نبيّها فيما بعد.

وأهم ما نستفيده بناءً على هذا التقسيم مجموعة من الحقائق:

(١) مباحث في علوم القرآن ص١٦٨

أولاً: معرفة تاريخ الدعوة و المراحل التي مرت فيها من خلال الآيات المكية و ما تتحدث عنه، و الآيات المدنية من مواقع و أحداث و أشخاص بمعرفة التسلسل الزمني لنزول هذه الآيات.

"كان العلم بالمكي و المدني إذا خليقاً بالعناية البالغة التي أحيط بها، و جديراً أن يعد بحق منطلق العلماء لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الإسلامية، و التعرف على خطواتها الحكيمة المتدرجة مع الأحداث و الظروف، و التطلع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة و المدينة و في البادية و الحاضرة، و الوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين و المشركين و أهل الكتاب".(١)

ثانياً: معرفة الجانب التشريعي من حيث النزول و التدرج و التاريخ. فلذلك دور كبير في فهم و معرفة الحكم التكليفي، فمن حيث النزول يدلّنا على الناسخ من المنسوخ، فالمكي و هو ما نزل قبل الهجرة قد يكون منسوخاً بالمدني و هو الذي نزل بعد الهجرة فيما إذا وردت آيات في موضوع واحد، فإحداها مكية و الأخرى مدنية فتكون المدنية ناسخة لأنها متأخرة رتبة.

و يدلنا أيضا على تاريخ التشريع و التدرج في الحكم، فأحكام الشريعة نزلت حسب النزول التدريجي للآيات فكان العلم بهذه الآيات يبرر لنا مواكبة هذه الأحكام الشرعية للحركة التغييرية التي بدأها الوحي بالتدريج على النبي (ص)، كانت مصاحبة للظروف و المتغيرات الزمنية التي تمر على المسلمين في أثناء دعوة النبي (ص) لهم بالإيمان به و تصديقه.

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص١٦٧

خصائص و مميزاته:

الذي يجعلنا نؤكد ذلك التفريق بين المكي و المدني هي مميزات كل واحد منهما في الموضوع والمحتوى. فإن آيات القرآن لا تحمل طابع التكرار بل كل آية من آياته تتحدث عن قاعدة عامة تدور حول الخط العام للقرآن الذي جاء للإنسان. و سعة القرآن لا تتحدد بآيات نزلت في مكان معين قبل الهجرة و بعدها، و إنما هي تتجدد و يتجدد معها القرآن في كل مكان و زمان و لكل الناس، فهذا التقسيم ما هو إلا بجرد تحديد لمكان نزول هذه الآيات. عن الإمام الرضا (ع) عن أبيه (ع) أن رجلاً سأل أبا عبد الله (ع) ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس إلا غضاضة؟! فقال:**﴿لأن الله تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد و عند كل قوم غض إلى يوم القيامة﴾**.[1]

فليس هناك فرق بين المكي و المدني في الدعوة إلى الله و هداية الإنسان إلى الطريق الصحيح. فكل آيات القرآن تشترك في شيء واحد و هو إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور. نعم قد يكون الاختلاف في الموضوعات التي تكون ضمن هذا السياق و الهدف، و هي التي تتلف باختلاف احتياجات هذا الإنسان في الحياة، و تعدد أغراضه، و تنوع أفكاره، و ما يتلاءم مع فطرته في الحياة الدنيا.

فعلى هذا الأساس جاءت الموضوعات المختلفة في القرآن. و من هذا المنطلق كانت للآيات المكية مميزات و خصائص في الجانب الموضوعي تختلف عن الآيات المدنية، فمحتواها يختلف انطلاقاً من الظروف المختلفة التي عاشتها

---

(١) البحار (ج٢) ص١٥

الدعوة و واكبتها في مراحلها التي مرت فيها.

مكة وبداية الدعوة:

المشكلة التي عالجها القرآن في المجتمع المكي تختلف باختلاف الظروف المحيطة به، والبيئة التي يعيشها، فقد كانت مشكلته جذرية حيث تطبع هذا المجتمع بطابع الوثنية واتسم بالا دينية، وكانت مكوناته الفكرية تعتمد اللا أخلاقية التي تميزت بتبني المسار الانتكاسي للروح والعقل، وكانت هذه المكونات الملتقطة هي الظواهر المرئية التي عبّر بها المجتمع الجاهلي عن عبادته للأصنام، فانعكست هذه العبادة الشركية عليه، وأخذت تتطبع ممارساته وسلوكه بطابع الشرك.

وتوحيد الله مشكلة المجتمع المكي التي بدأ القرآن يعالجها من اليوم الأول لأنها جذر المشاكل التي تنطلق منها كل الثقافات المنحرفة التي تمظهرت بشعائر وطقوس يمارسها الفرد لتبرير حالة الانتكاس والتردي التي أصيب بها المجتمع، فما كان من القرآن إلا أن يعالج جذر هذه المشاكل بتحويل العقيدة المشوهة لديهم عن الرب إلى عقيدة صادقة يتعاملون معها كحقيقة ثابتة و خاضعة لمنطق العقل لا الهوى، و منطق الرغبة الصادقة في المعرفة الموصلة إلى درب التوحيد إلى الله عز وجل.

فجاءت الآيات المكية، و كانت نصوصها قد بيّنت هذه الحقيقة و هي أن أساس الفكر الديني يتمثل في الاعتقاد بأن الله واحد وحيد لا وجود لإله سواه، و إنه الواحد الذي خلق كل شيء، و أوجد هذا الكون بقدرته. و كان طابع الدعوة فيها إلى أصول هذه العقيدة كالإيمان بالله، و نبذ الشرك، والخلافة في الأرض التي تحفظ عزتهم و وحدتهم المتمثلة في أمر النبوة، و التصوير الفني

الرائع لمشاهد الحساب و الجزاء و الجنة و النار.

يقول الزرقاني: "إنه حمل (أي القرآن) حملة شعواء على الشرك و الوثنية و على الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك و الوثنية، و دخل عليهم من كل باب و أتاهم بكل دليل، و حاكمهم إلى الحس، و ضرب لهم أبلغ الأمثال حتى انتهى بهم إلى تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب وقال: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً و لو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه ضعف الطالب والمطلوب﴾**[1]".[2]

و لم تقتصر الآيات المكية على الدعوة إلى التوحيد و نبذ الشرك. بل راحت تتحدث عن تلك العادات الشركية، و السلبيات التي ينتجها الكفر بالله كالقتل و سفك الدماء و وأد البنات و استباحة الأعراض و أكل مال اليتيم و دعتهم إلى تطهير النفس لتقبل فكرة التوحيد، فأكّدت على أصول الأخلاق، و فعل الخير، و اعتبرت ذلك منطلقاً للتحرك الاجتماعي، مما أكسب الدعوة رسوخاً في أذهان الناس.

فكانت الأخلاق و الحقوق الاجتماعية التي يجب أن تسود قائمة على فكرة التوحيد، فهي الركيزة الأساسية، و المنبع لهذه القيم، فجاءت الآيات المكية تحمل وصفاً عجيباً لهذه القيم الأخلاقية و الحقوق الاجتماعية.

وقد استخدم القرآن في مكة أسلوباً أبلغ للموعظة والإرشاد لإبطال هذه

---

(١) سورة الحج آية ٧٣

(٢) مناهل العرفان (ج١) ص١٩٥

الأفكار إلى أذهانهم. إنه قصّ عليهم تلك القصص التي تتحدث عن أخبار الرسل، والأنبياء السابقين، والأمم الغابرة. وكان ذلك أيضاً ميزة تميزت بها الآيات المكية ولم يكن إلى ذلك سبيل غير الإيجاز في الخطاب، ولذا جاءت هذه الآيات قصيرة في اللفظ، كبيرة في المعنى، بل حتى أن اكثر السور القصار قد نزلت في مكة، وذلك لكي تكون ابلغ في التأثير.

المدينة وقيام الدولة:

الحديث عن الآيات المدنية حديث عن المجتمع المدني الذي نزلت فيه هذه الآيات حينما استتب الأمر للنبي (ص)، وأقام صرح الدولة وبناء أنظمتها، فاختلف الموضوع هنا وجاءت الآيات المدنية متناسبة مع ما صنعه الرسول الأكرم (ص).

وكان ذلك الواقع الذي فرض في نفسه المدينة بعد جهد مرير بذله النبي (ص) وأصحابه بحاجة إلى بيان التصورات القرآنية لوضع أسس وبرامج لذلك المجتمع، ومعالجة مشاكله مع التجمعات الأخرى، وكيفية العيش معهم، وحدود تلك العلاقة التي يجب أن تكون.

فكانت الآيات النازلة على قلب النبي (ص) في المدينة المنورة تتحدث عن دقائق التشريع، وتفصيلات الشريعة، وإعطاء الخط العام والقواعد الأساسية لاستنباط القوانين المدنية التي يحتاج إليها الفرد والمجتمع في بناء علاقاته المختلفة.

ولم تقتصر على هذا المجال بل راحت تتحدث إلى النبي (ص) عن طريق الوحي بأدق التفاصيل في القضايا الاجتماعية- كالحقوق الشخصية والمشاكل الجنائية وغير ذلك مما يختص بالنظام الاجتماعي- ولم تكتف بذلك وإنما أدرجت هذه الأمور تحت ظل نظام له قواعد وركائز تحفظ للناس حقوقهم

الكاملة. فأقام النبي (ص) صرح الحكومة الإسلامية وفق تلك الآيات حيث دعته إلى تنظيم العلاقة بين الناس وإقامة الحدود والفرائض والقضاء وسائر ضروب العبادات والمعاملات وإقامة القوانين الاقتصادية والسياسية والمعاهدات والمواثيق الدولية وبيان أحكام الجهاد في الإسلام.

و كل ذلك قد أبرز هيبة النبي (ص) و قوته من خلال التفاف الجمع الكبير حوله في المدينة مما دعاه إلى إقامة هذا الصرح بأمر السماء، و كانت تلك الهيبة التي تحوطها أخلاقه و استتباب الأمر له. كل ذلك جعل الوحي يأتي بآيات من السماء تدعوا النبي (ص) لمناقشة أهل الكتاب و دعوتهم إلى الإسلام، و كانت سورة البقرة و آل عمران و المائدة و الفتح و غيرها حافلة بالآيات التي تعالج انحرافاتهم عن العقيدة الحقة و تحريفهم لكتب السماء. و قد تم بيان هذه الآيات لهم من خلال محاكمتهم إلى العقل و التاريخ، و إرجاعهم إلى جذورهم و فطرتهم إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب و ما فيه من براهين على صدق دعواه. لذا امتازت المدينة بطولها باعتبار التفصيل للأدلة على تلك الحقائق الدينية التي ساقتها هذه الآيات لردع أهل الكتاب عن غيهم، و إبعادهم عن طريق الانحراف، بعد تحكيم أسلوب الحوار الهادئ معهم، و بسط أسلوب الإقناع.

و لم يكن أهل الكتاب فقط مورداً للآيات المدنية بل كانت هناك فئة أخرى في المجتمع، فجاءت الآيات القرآنية تحذر النبي (ص) و هم أهل النفاق الذين تزعموا حركة سياسية مناهضة لم تكن ظاهرة للعيان، و كانت تحمل في داخلها أهدافاً ارتكزت على الحقد و المكر و الخديعة، فنجد القرآن النازل في المدينة يتحدث عنهم، و عن مواقفهم، و يحذرهم، و يتوعدهم بالعذاب الشديد.

محكم ومتشابه:

ماذا يعني المحكم و المتشابه؟

قد نجيب على هذا السؤال، و قد تكون الإجابة واضحة، و لكن ما هي فلسفة المحكم و المتشابه في القرآن؟ فهل هو نوع من التحدي أو الإعجاز أو هو نوع من التناقض (و العياذ بالله) أم ماذا؟

ماذا نعني بالمحكم أولاً وقبل الإجابة على تلك الأسئلة في اللغة أليس الإحكام يعني الإتقان و كمال الشيء ؟ فإذا أريد ذلك من القرآن فكله محكم من كل جوانبه فلا نقص فيه لا في الألفاظ والعبارات و لا في المعنى و إقامة البرهان و الحجة، فهو كتاب لا تشوبه شائبة، كما يقول سبحانه: ﴿ الر كتاب احكمت آياته ثم فصلت ﴾.[1]

أما المتشابه فإذا أردنا به التشابه فكل آيات القرآن متشابهة لأنها تنطلق ضمن الخط العام لهداية الإنسان، فهي متشابهة في الحق و الصدق و البلاغة و الإعجاز، فلا تجد آية من آياته لا تقوم على إحدى هذه الأمور، فكل آية هي حق و صدق، ولا يرقى إليها شك، و يعجز الإنسان عن أن يأتي بمثلها. فيقول عز وجل ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾[2] يشبه بعضه بعضاً في كل شيء، و لعل كلمة أحسن تدلنا على أن الأحسن لا قصور فيه من حيث الدلالة و البلاغة في ألفاظه و معانيه و في أغراضه و مقاصده، و ربما دلنا ذلك على الانسجام الكامل بين أحكامه و معارفه التي جاء بها، لكن مع ذلك لا ريب في أن القرآن يشمل على المحكم و المتشابه ليس بالمعنى الذي

---

(١) سورة هود آية ١

(٢) سورة الزمر آية ٢٣

ذكرنا، و بتصريح من القرآن نفسه حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب و أخر متشابهات**﴾[1] و في الآية صراحة واضحة و دلالة قوية على وجود المحكم و المتشابه، و هذا مال نريد أن نتوصل إليه. فماذا يعني المحكم و المتشابه؟ و ما هي فلسفة ذلك؟

يبدو من خلال الآية المتقدمة أن المحكم يقابل المتشابه، و لكنهما و من حيث العدد فإن مما لا شك فيه أن الآيات المحكمات هي الغالبة في القرآن أما الآيات المتشابهات فإنها قليلة، و هذا و ذاك مما يدعونا إلى أن نتعرف على كلاهما، و مع كثرة الآراء حول هذا الموضوع إلا أنها و بالنتيجة تصب في مصب واحد وهي " أن المحكم هو الذي يدل معناه بوضوح لا خفاء فيه، و المتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الراجحة معناه".[2]

" ووضوح الدلالة في المحكم يغنينا عن البحث عنه لأن قراءتنا له كافية لإفهامنا المراد منه، و لكن خفاء المتشابه جدير بأن يشغلنا بعض الشيء لكي نعرفه ثم نتجنبه فلا نتبعه كالذين في قلوبهم زيغ".[3]

هل يعني ذلك أن هناك آيات في القرآن واضحة و آيات غامضة لا يمكن لنا أن نفهمها، و كيف نوفق بين فهمنا للقرآن وتيسيره للناس و بين هذه الآيات الغامضة.

---

(١) سورة آل عمران آية ٧
(٢) الإتقان (ج٢) ص٥
(٣) مباحث في علوم القرآن ص٢٨٢

البحث عن حكمة المتشابه:

أولاً: معرفة الحقيقة

علينا أن نتعرف على حقيقة المتشابه ونتعرف على معناه من خلال الرجوع إلى مصادر اللغة أو إلى روايات أهل البيت المفسرة للقرآن دون أن نتعجل ونضع له تفسيراً من عند أنفسنا، أو نأوله تأويلاً لا يتوافق مع القرآن وحينما لا نصل إلى شيء من ذلك حكمنا عليه بالمتشابه يقول الإمام علي (ع) **﴿و إنما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلات من عند أنفسهم بآرائهم و استغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء﴾**.[1] فلا يعني ذلك أن هناك غموض في القرآن، و إنما الغموض هو في فهمنا، فيمكن لنا إذاً أن نرفع التشابه حينما نحاول أن نبحث عن حقيقة هذه الآية أو تلك، يقول العلامة الطباطبائي: التشابه يقبل الارتفاع بتفسير المحكم له[2]، وهذا ما يتضح لنا في النقطة الثانية.

ثانياً: رد المتشابه إلى المحكم:

ويمكن لنا أن نعّبر عن الآيات المحكمة هنا المتقنة التي لا يرقى إليها أدنى شك، فهي اصل الكتاب، ومنها نستنبط رؤى الدين وأحكامه، وعلى أساسها تقوم قواعد الإسلام وأركانه، فيكون العمل بها اجدر بدلالة وضوحها وبيانها للأحكام والبصائر الدينية، بينما المتشابه قد نؤمن به ولكن لا نعمل به لأنه متشابه ومتزلزل في مراده، ولذا سئل أبو عبد الله (ع) عن المحكم و المتشابه

---

(١) البحار (ج٩٢)ص٣٨٢

(٢) الميزان (ج٣) ص٦٨

قال: ﴿ المحكم ما يعمل به و المتشابه ما اشتبه على جاهله ﴾.[1]

وعنه أيضاً (ع): ﴿ إن القرآن محكم ومتشابه فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين و إما المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به ﴾[2]، ولكن في حالة رد المتشابه إلى محكم ومعرفة الآيات المتشابهة من خلال عرضها على الآيات المحكمة تدخل وبلا شك في مجال العمل بها في حالة الفهم التفصيلي لها أو الفهم الإجمالي فانهما يرفعان التشابه عن هذه الآيات ولذا نرى أن هناك توجيه لنا من أهل البيت في معرفة المتشابه برده إلى المحكم فيقول الإمام الرضا (ع): ﴿ من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم﴾.[3]

يقول العلامة الطباطبائي: "ما نفهمه من ملخص ما اثر عن أئمة أهل البيت (ع) هو نفي وجود آية متشابهة لا يمكن معرفة مدلولها الحقيقي بل الآيات التي لم تستقل في مداليلها الحقيقية يمكن معرفة تلك المداليل بواسطة آيات أخرى وهذا معنى إرجاع المتشابه إلى المحكم".[4]

و إليك مثال على ذلك في رد المتشابه إلى المحكم التي اعتبرها القرآن قاعدة من القواعد في فهم ومعرفة الآيات المتشابهة، وقبل أن نحكم عليها أن نرجع إلى هذه القاعدة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾[5] وللوهلة الأولى ربما نحكم عليها بالمتشابه باعتبار استحالة النظر إلى الله ورؤيته حتى يوم القيامة، حيث ذهبت بعض المذاهب إلى جواز رؤيته سبحانه يوم القيامة، بينما لو لاحظنا الآيات الأخرى في القرآن التي نرد إليها

---

(١) الميزان (ج٣) ص٦٦
(٢) الميزان (ج٣) ص٦٦
(٣) البحار (ج٩٢)ص٣٧٧
(٤) القرآن في الإسلام ص٤٩
(٥) سورة القيامة آية (٢٢-٢٣)

هذه الآية ونرجعها لها لرأينا انه يمكن لنا أن نفهم هذا المتشابه، فيقول سبحانه في آية أخرى ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾[1] وهذه تنفي نسبة النظر إلى الله لأنه ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[2] وربما المراد من الرؤية و النظر هنا هي الرؤية القلبية، كما تبينها لنا آية أخرى في كتاب الله حيث يقول ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾[3] فليست الرؤية هي المادية كما يتصور البعض بل هي البصيرة الباطنية التي ترى الله دون كيفية ولا إحاطة، كما بين لنا ذلك النبي (ص) في تفسير الآية الأولى ﴿ **إلى ربها ناظره** ﴾ فيقول: ﴿ **ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة** ﴾.[4]

ثالثاً: مستوى الفهم

الناس في الفهم و الإدراك مستويات مختلفة، ودرجات متفاوتة، و القرآن جاء لهم جميعاً فهو على درجات. فليس كل هؤلاء الناس يفهمون كل ما في القرآن، ففيه آيات عامة يفهمها الجميع يُبنى عليها قواعد الدين وسائر الأحكام، وهناك آيات خاصة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم الذين حصلوا على مرتبة من المعرفة، وهم متفاضلون في فهمهم للقرآن.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم** ﴾[5] "وربما يعتبر البعض من علماء الأحناف وبعض المفسرين أن الواو استئنافيه في قوله تعالى ﴿ **و الراسخون** ﴾ وبذلك يلغون مسألة فهم القرآن بالنسبة لمن وصل

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣
(٢) سورة الشورى آية ١١
(٣) سورة النجم آية ١١
(٤) الدر المنثور (ج٦) ص٢٩٠
(٥) سورة آل عمران آية ٧

إلى مرتبة من العلم و الفهم و الدراية و المعرفة، بينما يخالفهم علماء الجمهور فيقفون على كلمة العلم ويعتبرون الواو عاطفة.

فمن مفسري الشيعة ذهب لذلك الطبرسي في مجمع البيان فاعتبر الوقوف على كلمة العلم و الواو عاطفة، وفسّر المحكم بالذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل، و المتشابه الذي يحتمل اكثر من وجه وقال: ولذلك كان الصحابة لا يتوقفون في تفسير شيء من آي القرآن. وكان عبد الله بن عباس إذا قرأ هذه الآية يقول: (أنا من الراسخين في العلم وكان الإمام أبو جعفر الباقر (ع) يقول كان رسول الله (ص): **﴿أفضل الراسخين في العلم قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل و التنزيل و ما كان الله تعالى لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وهو و أوصيائه من بعده يعلمونه كله﴾**.[1]

فموقف المؤمن أن ينظر إلى الآية دون استعجال في الحكم عليها من أي نوع فإذا فهمها اخذ ما فيها من رؤى و أفكار وبصائر وعمل بها، و إن لم يفهم الآية وقف عندها، ولا يحق له أن يضيف عليها شيئاً من عنده، ولا يحاول أن يعطي تأويلاً بدون علم، بل لابد عليه من الرجوع إلى أهل العلم و المعرفة و الذكر و السؤال منهم، كما يقول سبحانه: **﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾**.[2]

وعلى الإنسان المؤمن أن يتحرز جيداً بالوقوف عند المتشابه ولا يتجاوزه بل يقف على المحكم كي لا يؤدي ذلك التجاوز إلى خلط في المفاهيم و الأفكار وعدم معرفة الحق من الباطل.

و المتشابه لا يعني وجوده في القرآن خلل في الصياغة، أو فساد في اللفظ،

---

(١) نحو تفسير علمي للقرآن ص٥٠

(٢) سورة النحل آية ٤٣

أو المعنى. فليس ذلك يرقى إلى القرآن فهو كتاب محكم، وقد تم إحكامه وصياغته من لدن خبير حكيم. كما انه لا يعني أن هناك آية من آيات القرآن لا يمكن معرفة معناها بطريق من الطرق، فالآيات المتشابهة ربما تحمل وجوهاً مختلفة تستلزم خفاء معنى مراد فعلينا أن نجدّ في البحث عنه، وهذا ما يؤكد عظمة القرآن وإعجازه، فقد تكون هناك حكمة وفلسفة معينة من وراء وجود ذلك في القرآن فما هي تلك الحكمة يا ترى ؟

للمتشابهات ثمرات:

أولاً: تجديد البحث العلمي:

المحاولة التي يبذلها الإنسان للوصول إلى الحقيقة لمعرفة البصائر القرآنية من خلال طرق الآيات المتشابهة في عملية علمية من أجل استحصال رأي حولها وتكون تلك المحاولة ضمن رد المتشابه إلى المحكم كرد الفروع إلى الأصول. فالآيات المحكمة هي بمثابة الأصل أو القاعدة و إعطاء المجال للإنسان بمستوياته العلمية المختلفة و المتفاضلة لمعرفة المتشابه، وما ذلك إلا نوع من توسيع لتلك المدارك العلمية. فمهما بلغ الإنسان من العلم مبلغاً فهو لا يزال عاجزاً أمام قدرة الله الخارقة. فما وصل إليه من حقائق قرآنية حتى في الآيات المحكمة لا يعني إنها الحقيقة النهائية بل ربما قد يستظهر أمراً آخر، حقيقة أوسع نطاقاً من تلك بإمعان النظر في القرآن، وكثرة التدقيق، و التدبر في الآيات من خلال الظواهر اللفظية التي يراها الإنسان أمامه، و التمعن فيها حسب المستوى العلمي للإنسان، فكلما كان على درجة كبيرة من العلم، وحدة في الذكاء و العقل استطاع أن يفهم الحقيقة الناصعة لهذه الآيات القرآنية. فعن الإمام زين العابدين (ع): ﴿ **كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء على العبارة و الإشارة و**

اللطائف و الحقائق فالعبارة للعوام و الإشارة للخواص و اللطائف للأولياء و الحقائق للأنبياء ﴾.[1]

وعن الإمام الباقر (ع): **﴿ إن للقرآن بطناً، وللبطن بطن، وله ظهر وللظهر ظهر،.. وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إن الآية لتكون أولها في شيء و آخرها في شيء آخر وهو كلام متصل على وجوه ﴾.[2]**

ولعل اشتمال القرآن على المتشابه وعدم اقتصاره على المحكم هي دعوة موجهة إلى الإنسان للإطلاع اكثر و التعمق في آيات الله. يقول الدكتور الوائلي: " أن يشتغل أهل النظر و الفقه برد المتشابه إلى المحكم فتشحذ قرائحهم ويطول نظرهم ويتصل فكرهم بالبحث عن معانيه فيثابون على اجتهادهم ويتميز العالم من غيره ولو كان كله محكماً لاستوى في معرفته العالم و الجاهل ولماتت الخواطر وخمدت القرائح إلى غير ذلك مما يذكر "[3] فإذا كان وصوله إلى الحقائق من الآيات المحكمة يحتاج إلى جهد علمي، وتحديد لذلك البحث لكي يرى مصداقية هذه البصائر فكيف بالآيات المتشابهة؟ فهي بحاجة إلى روح علمية تجتهد في فهم هذه الآيات، وتعرف كيف تتعامل معها؟.

ثانياً: تنمية العقل:

التقليد مشكلة الإنسان يفقده القدرة على كشف الحقائق، و الوصول إلى الغايات الحقة، و الأهداف النبيلة، ويجعل على عقله غطاء يحجبه عن الحقيقة فيصبح جاهلاً لأبسط الأمور لتوقف عقله عن التفكير في إتباع الغير، لأنها

---

(١) البحار (ج٩٢) ص٢٠

(٢) البحار (ج٩٢) ص٩٥

(٣) نحو تفسير علمي للقرآن ص٥٢

عملية غير مكلفة بالنسبة إليه.

فعلاً هذه من مساوئ التقليد فإنه يوقف العقل عن عملية التفكير، ويوقفه عند حدود معينة لا تتجاوز القضايا البسيطة اليومية التي يعيشها في حياته من مأكل ومشرب، حينها يقف النمو لهذا العقل، ولا يتحرك من مكانه.

ظلمة التقليد بحاجة إلى إزاحة عن عقل الإنسان ليحل محلها النور. ولعل القرآن أشار إلى هذا الموضوع في كثير من آياته، ووضع له الحلول، و البرامج في رفع هذه الظلمة، وما اشتمال القرآن على المتشابه إلا وهو برنامج من البرامج التي ترفع هذه الغشاوة حيث تضطر الناظر في القرآن وفي هذه الآيات إلى الاستعانة بالعقل و الأدلة العقلية، ويتحرك نحو التفكير الذي تعتمد عليه الدراسات و البحوث العلمية العميقة وتعطي النتائج الإيجابية. و القرآن الكريم قد حث الإنسان على عموم التفكير، و لم يخص جانباً معيناً فيكون من ضمنها التفكير و التدبر في الآيات المتشابهة.

ثالثاً: امتحان الإنسان:

وجود المتشابه في القرآن هو نوع من الابتلاء أو جده الله في القرآن ليكتشف به ثقة المؤمن بكتاب ربه أيؤمن بهذا الكتاب مع وجود هذه الآيات أم لا ؟ أيؤمن بالغيب وما وراء ذلك عن طريق الوحي على لسان النبي (ص)؟

وربما يتأكد هذا الابتلاء عند الباحثين و المصنفين حينما يختلفون في اتجاهاتهم و آراءهم بالنسبة للآيات المتشابهة، فقد يرى البعض رأياً ويتوقف البعض الآخر دون إعطاء الحكم، وربما يكون هناك قسم ممن يبدي رأيه يكون في قلبه مرض وزيغ فيعمل بما تشابه منه، وذلك يعني السقوط في الامتحان.

فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾.[١]

يقول الشيخ محمد عبده: " إن الله انزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به فانه لو كان كل ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأولياء و البلداء لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله و التسليم لرسله ".[٢]



(١) سورة آل عمران آية ٧

(٢) تفسير المنار (ج٣) ص١٧٠

ناسخ ومنسوخ:

النهضة الفكرية التي عاشتها الأمة الإسلامية في بداية الدعوة وفي المراحل الأولى لم تكن تواجه إشكالات أو تساؤلات إلا وكان الجواب حاضراً عند النبي (ص) و إن لم يكن، انتظر الوحي يأتي بالجواب فلم يقع المسلمون في حضرة النبي (ص) الموحى إليه أو الإمام الملهم في أمرٍ مشكل، مع ذلك كان هناك من يبث السموم و الأفكار المنحرفة و الدعايات المضللة في وسط الأمة بغرض إبعادها عن الحركة المحمدية الآخذة في التقدم و النمو نحو الكمال.

فقد حاول بعض أعداء الإسلام و القرآن من ملاحدة وزنادقة في زمن النبي(ص) و الأئمة (ع) أو مبشرين ومستشرقين في العصور اللاحقة أن يعيبوا على الإسلام من خلال تصويرهم للمسلمين أن هناك ثغرات قد خلّفها القرآن ضمن آياته، وكان سلاحهم أن اتخذوا النسخ في الشريعة الإسلامية سلاحاً مسموماً لينالوا به من قدسية القرآن الكريم فتصدى لذلك النبي (ص) و أئمة أهل البيت (ع)، وما كان منهم ألا أن وقفوا موقف المناهض لهذه الأفكار الضالة.

وهذه ظاهرة طبيعية تتلقاها أية حركة إصلاحية تريد أن تجتث الفساد من الجذور في مجتمع غلبت عليه الرذيلة و الانحراف، و البعد عن كل ما هو أخلاقي أو له قيمه إنسانية. فاستدعى ذلك أن تأتي هذه الشريعة بأساليب ووسائل تتناسب وواقع هذا المجتمع لانتشاله من براثن الجهل و التخلف، فكان يتطلب من النبي (ص) أن يبذل جهداً كبيراً حتى يُرشده ويرجعه عن ضلاله فخاطبه الله قائلاً له ﴿ طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾[1] وفي آية أخرى

(١) سورة طه آية (١-٢)

﴿لعلك باخع (أي قاتل) نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾.[1]

فمع الجهد الذي بذله النبي (ص) كان للوحي دور في رعايته، وفي إعطائه التشريع المناسب لكل مرحلة، ولكل وقت يتعرض المسلمون فيها إلى قضية تحتاج إلى حل، فلم يتركوا بدون أن يخبرهم النبي (ص) بذلك.

و لم يكن الوحي يفاجئ المسلمين بالتشريع بل كان يتدرج مع الأحداث و الوقائع، وقد تناولت الآيات النازلة بهذه الكيفية المشاكل الاجتماعية و العادات السلبية التي وقف الوحي منها موقف المتمهل و المتريث، بأمر السماء حتى يتسنى له أن يمهد الطريق، ويجعله سالكاً وفق التنظيم الزمني حتى لا تكون هناك فوضى في تلقي الأحكام.

وعند تقصي المراحل التي مرت فيها هذه الدعوة نرى أن ظاهرة النسخ تعد ضرورة من الضرورات التي اعتمدها الوحي في تربية الخلق، وكانت ضمن مراحل التدرج النزولي للقرآن، وقد عد الفقهاء الآيات المنسوخة فوجدوا أنها لا تتجاوز عشرين آية.

"وكانت ظاهرة النسخ أمراً لابد منه في كل تشريع يحاول تركيز معالمه في الأعماق، و الأخذ بيد أمة جاهلة إلى مستوى عالٍ من الحضارة الراقية. الأمر الذي لا يتناسب مع الطفرة المستحيلة، لولا الأناة و السير التدريجي المستمر خطوة بعد خطوة ".[2]

فمعرفة الناسخ و المنسوخ و الإلمام به يلقي الضوء على سير التشريع الإسلامي، ويبين للإنسان تلك الخطوات التي اتبعها الخالق ورسمها بدقة بالغة

---

(١) سورة الشعراء آية ٣

(٢) التمهيد (ج٢) ص٢٧٣

فاطلع الإنسان على تربيته له، وسياسته في الخلق، و لم تكن هذه المعرفة بالنسبة للنبي (ص) واضحة إلا ما بيّنه له الوحي، مما يدلل على مصدر القرآن الحقيقي وهو الله رب العالمين ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[١] فليس لأحد غير الله شأن في ذلك وحتى النبي (ص) نفسه. كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾.[٢]

وقد تكون هذه المعرفة لها مدخلية كبيرة في فهم كثير من آيات القرآن التي ترتبط بعقيدة الإسلام و يبني عليها كثير من المفاهيم، فربما تعتبر هذه المعرفة ركنا من أركان فهم الإسلام، فقد روى أن الإمام علي بن أبي طالب (ع) ﴿انه دخل يوماً جامع الكوفة فرأى رجلاً وقد تحلق عليه الناس يسألونه وهو يخلط الأمر بالنهي و الإباحة بالحظر فقال له علي (ع) أتعرف الناسخ من المنسوخ قال: لا. قال عليه السلام: هلكت وأهلكت﴾.[٣]

ولأهمية ذلك في فهم العقيدة اعتبره المفسرون علماً من العلوم التي يلزم فهمها لمعرفة القرآن، فلا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ و المنسوخ، فقد ورد عن الرسول (ص) قال: ﴿ من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه فقد هلك و اهلك ﴾.[٤]

وعن أبي عبد الله (ع) قال: ﴿ لا تكون مؤمناً حتى تعرف الناسخ من المنسوخ﴾.[٥]

وروى أبو عبد الرحمن السلمي أن علياً (ع) مرّ على قاضٍ فقال له:

---

(١) سورة الرعد آية ٣٩
(٢) سورة آل عمران آية ١٢٨
(٣) الطباطبائي و منهجه في تفسير الميزان ص٢٢٠
(٤) الكافي (ج١)ص٤٣
(٥) الطباطبائي و منهجه في تفسير الميزان ص٢٢٠

أتعرف الناسخ عن المنسوخ ؟ فقال لا فقال: ﴿هلكت و أهلكت، تاويل كل حرف من القرآن على وجوه﴾.[1]

ومن العقيدة ما يرتبط بها الجانب الفقهي فيكون للقرآن دور كبير في استنباط الحكم بل هو المصدر الأول له، ولذا قال الإمام الصادق (ع) لبعض متفقهة أهل الكوفة: ﴿ أنت فقيه أهل العراق ؟ قال نعم قال فبم تفتيهم ؟ قال بكتاب الله وسنة نبيه فقال له الإمام: أتعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ قال نعم قال: لقد ادّعيت علماً ما جعل الله ذلك إلا عند أهله﴾.[2]

وليس الجانب الفقهي وحده فقط مستنبطاً من الكتاب فنحتاج إلى معرفة الناسخ و المنسوخ في ذلك، بل أن سلوك الإنسان في الحياة و التزاماته قائمة على فهم العقيدة المبيّنة في كتاب الله. فعن أبي عبد الله (ع) في حديث احتجاجه على الصوفية لما احتجوا عليه بآيات من القرآن في الإيثار و الزهد، قال: ﴿ ألكم علم بناسخ القرآن ومنسوخه إلى أن قال وكونوا في طلب ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه ومتشابهه، وما أحلّ الله فيه مما حرم، فانه اقرب لكم من الله و ابعد لكم من الجهل دعوا الجهالة لأهلها فان أهل الجهل كثير و أهل العلم قليل وقد قال الله ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ ﴾.[3]

ما هو المنسوخ ؟

علينا أن نتعرف على النسخ لغة و اصطلاحاً ومعنىً، وماذا يعني في مدلول الفكر الإسلامي وما الهدف منه ؟

---

(١) تفسير العياشي (ج١) ص١٢

(٢) تفسير الصافي (ج١) ص١٣

(٣) وسائل الشيعة (ج١٨)ص١٣٥

النسخ لغة:

التعاريف اللغوية جاءت جميعاً لتشير إلى حقيقة واحدة وذلك من خلال ملاحظة المعاجم اللغوية التي تتحدث عن هذه الكلمة، فقد يُعرف "بإبطال شيء و إقامة آخر مقامه، يقال نسخت الشمس الظل أي أذهبته وحلت محله".[1] و النسخ يأتي بمعنى الإزالة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾.[2]

ويأتي بمعنى التبديل ﴿ و إذا بدلنا آية مكان آية﴾[3] وبمعنى التحويل كناسخ المواريث، ويأتي أخيراً بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه حاكياً للفظه وخطه".[4]

النسخ اصطلاحاً:

ليست الشريعة بعيدة عن اللغة بل هناك تقارب في المؤدي و النتيجة فتعريف الشريعة للنسخ وإن اختلفت مع اللغة في هذا التعريف شيئاً ما: لا أنهما متقاربان.

فقال شيخ الطائفة: " أن استعمال هذه اللفظة في الشريعة على خلاف موضوع اللغة و إن كان بينهما تشبيهاً. ووجه التشبيه أن النص إذا دل على أن مثل الحكم الثابت بالنص المتقدم زائل على وجه لولاه لكان ثابتاً بمنزلته المزيل

---

(١) مجمع البيان (ج١-٢) ص٣٤٥

(٢) سورة الحج آية ٥٢

(٣) سورة النحل آية ١٠١

(٤) مباحث في علوم القرآن ص٢٥٩

لذلك الحكم، لأنه لولاه لكان ثابتاً "[1] و الإزالة ليست حقيقية و إنما من باب التشبيه كما قال.

وعن السيد الخوئي قدس سره قال: " هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه سواء أكان ذلك الأمر من الأحكام التكليفية أم الوضعية وسواء أكان من المناصب الإلهية أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى بما انه شارع".[2]

وعن الفخر الرازي: "أن الناسخ هو اللفظ الدال على ظهوره انتفاء شرط دوام الحكم الأول.

وعن الغزالي: هو الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراضيه".[3]

النسخ في المفهوم الإسلامي:

يتصور البعض أن النسخ نقص في التشريع الإسلامي، فحينما يتبدل الحكم الأول إلى رأي آخر ويلغي فيصبح الحكم الثاني ساري المفعول لخطأ أو نقص في التشريع، فلا يمتاز الأول بالشمولية و الكمال فتبدل إلى ما هو احسن، وقد يكون الثاني يحتاج إلى إعادة نظر وهكذا يتبدل إلى ثاني وثالث مادام احتمال الخطأ و النقص وارد.

وهذا التصور قد ينطبق على أولئك الذين يضعون القوانين أو يستنبطون الأحكام دون أن يحيطوا علماً بالمصلحة والمفسدة فلا يمتلكون الإحاطة الشاملة

---

(١) عدة الأصول (ج٢) ص٢٥
(٢) مجمع البيان ص٢٧٧
(٣) الفصول في الأصول ص٢٣٢

بالواقع وبما وراءه من الأمور و الخفايا، أما بالنسبة لعلام الغيوب ربّنا سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾[1] فلا ترد عليه هذه الأمور فهو العالم بالخفايا قبل الخلق وبعد الخلق مكاناً وزماناً وطولاً وعرضاً فيمتنع عليه الخطأ، ويستحيل عليه النقص، أو يفوته أمر ما يكون غافلاً عنه، فحاشا لله ذلك. إذاً ماذا يعني تبديل الحكم هل هو نسخ فعلاً أم تبديل لحكم مؤقت وتشريع محدود من أول الأمر حيث انه سبحانه لم يشرعه إلا وهو يعلم أن له مدة محددة و إن المصلحة اقتضت التشريع المؤقت.

يقول العلامة الطباطبائي: "النسخ في القرآن معناه: انتهاء زمن اعتبار الحكم المنسوخ ونعني بهذا أن للحكم الأول كانت مصلحة زمنية محددة و اثر مؤقت بوقت خاص تعلن الآية الناسخة انتهاء ذلك الزمن المحدود وزوال الأثر".[2]

ولعل هذه الطريقة في تغيير الحكم بما يناسب المجتمع وفق الحالات التي يمر فيها، وكأنما الحكم الأول و الثاني كلاهما ضمن سياق واحد أو دائرة واحدة، أو قل كلاهما حكم واحد صدرا من الخالق في علمه فكانا في اللوح المحفوظ في علمه في آن واحد ولكن حسب الترتيب، فحينما تنتهي فترة الأول يبدأ الثاني، ثم أن الله قادر على تبديل حكمه وفق المتغيرات والظروف التي يمر فيها المجتمع، وذلك بهدف التدرج في الرسالة ثم تعويد المسلمين على تلقي الحكم.

والنسخ في الحقيقة كما يقول آية الله المدرسي: "هو تطوير أسلوب الحكم بما يتناسب مع تطور الحياة بالرغم من وجود ذات الحكم مثل حكم الصلاة

---

(١) سورة آل عمران آية ٥

(٢) القرآن في الإسلام ص٦٥

كـانت إلى المسـجد الأقصـى في الشـرائع السـابقة فتحولـت إلى الكعبـة فالصلاة هي الصلاة ولكن تغيرت قبلتها ".[1]

فالمصلحة اقتضت أن يوجد الحكم الأول إلى وقت محـدد ثـم انتهـى ذلـك الوقت بناءً على المصلحة وجاءهم الحكم الثـاني كمـا في آيـة التوجـه في قولـه تعالى: ﴿ ولله المشـرق و المغرب فأينمـا تولـوا فثـم وجه الله إن الله واسـع عليـم ﴾[2] فيذكـر في تفسـير ابـن كثـير في تفسـيره لهـذه الآيـة عـن ابـن عبـاس[3] : أنهـا منسوخة بقوله تعالى ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.[4]

وعن تفسير النعماني الـذي نقلـه المجلسـي ولخصـه السـيد علـم الهـدى في رسالة المحكم و المتشابه عن علي (ع): أنه كان رسول الله في أول مبعثه يصلي إلى بيت المقدس جميع أيام بقائه بمكـة وبعـد هجرتـه إلى المدينـة بأشـهر فعيّرتـه اليهود وقالوا: أنت تابع لقبلتنا فأحزن رسول الله (ص) ذلـك منهـم فـانزل الله تعالى عليه، وهو يـقـلـب وجهـه فـي السـماء وينتظـر الأمـر ﴿ قـد نـرى تقلـب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[5].[6]

حكمة النسخ:

ليس في القرآن غموض أو تشويش في اللفظ و المعنى بل ذلـك في أنفسـنا لعجز في فهمنا القاصر المحيـط و المـدرك بكـل شـيء في هـذا الكـون، فـالنفس

---

(١) من هدى القرآن (ج١) ص٢٢٩
(٢) سورة البقرة آية ١١٥
(٣) تفسير ابن كثير (ج١) ص١٥٧
(٤) سورة البقرة آية ١٤٤
(٥) سورة البقرة آية ١٤٤
(٦) بحوث في تاريخ القرآن و علومه ص٢٢١

ترتاح حينما يرتفع ذلك الغموض، وتتضح للإنسان معالم الأمور الخافية عليه، ويزول اللبس و الشك حول تلك الشبهات و الوساوس عندما يتعرف على الحكمة من أمر خفي عليه. ولعل معرفة الحكمة من نسخ الله لآياته يزيد الإنسان ثقة على ثقته بالله، وتطمئن تلك النفس، كما أراد النبي إبراهيم (ع) أن يطمئن ليزداد ثقة فوق ثقته بالله، ويرى ذلك عياناً، ويكون علمه مرئياً فسأل ربه حينما قال سبحانه: ﴿ و إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾.(١)

فمعرفتنا للحكمة من النسخ لأجل الاطمئنان وزيادة الإيمان و البصيرة و المعرفة في كتاب الله.

نسخ الشريعة وفي الشريعة:

النسخ وقع الشريعة الإسلامية وفيها، فبالشريعة الإسلامية نُسخت كل الأديان و الشرائع السابقة، ولو لم يكن ذلك قد حصل لما بقيت رسالة سيدنا محمد (ص). فالنسخ جائز وواقع الرسالات يشهد على ذلك، فهي لم تبق كما بقى الإسلام خاتماً لها وناسخا إياها، وحكمة ذلك ترجع إلى وصول البشرية إلى مرحلة النضج التي انتهت إليها، و الدورة الحضارية التي وصلت إليها، فجاء التشريع الإسلامي على أكمل وجه ليفي بحاجات الإنسانية و أغراضها.

وكان ذلك التناسب لهذه المرحلة أمر طبيعي بغرض الهي لتلك الفطرة الإنسانية التي تتقلب في أدوار الحياة، فكان ولابد أن يكون لكل دور برنامج ومنهج يناسبه. فالبشرية مّرت في مراحل عديدة كالطفل الذي يتقلب في الحياة

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠

إلى أن يصبح رجلاً، فيمر في دورة الطفولة فبلوغ مرحلة الشباب ثـم الكهولـة ثـم الشيخوخة. فـالضعف و الجهالـة و البسـاطة و السـذاجة كـانت مميـزات لمجتمعات ما قبل الإسلام، نتيجة قصور في العقـل، وعمـي في البصيرة، وعـدم وعي للقلب على تفاوت بين أفراد تلك المجتمعـات. كـل ذلـك جعـل مـن الله سبحانه أن يتـدرج الأب مـع الطفـل في مراحلـه إلى أن يكـبر، فكـانت تلـك الرسـالات تمر علـى البشرية في مراحلهـا حتـى إذا بلغـت مرحلـة النضـج و الاستواء جاءت شريعة الإسلام الحنيف متممة لتلك الشرائع وخاتمة لها. فكـان على البشرية أن تدين بهذا الدين الـذي جمـع كـل القيـم الإنسـانية، و احتـوى على القواعد و القوانين الشمولية، وحافظ على المطـالب المادية، حينمـا وفّـق بين الروح و الجسد، ونظّم علاقة الإنسان بالله وبالعـالم وبمـا فيـه مـن أفـراد و أسر وجماعات و أمم، وكل ما يدور حوله مـن حيـوان وجمـاد، وكـان العلـم سيداً في هذا الدين فبقي خالداً إلى يوم يبعثون.

أحكام مؤقتة:

وقد يقع النسخ في الشريعة أي في بعـض أحكامهـا الـواردة في كتـاب الله العزيز، كما يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿ **و إذا بدلنا آية مكان آية و الله اعلم بما يـنزل** ﴾[2] وآيـات القـرآن كلها محكمة وثابتة و الأصل فيها ذلك، و النسخ لم يرد إلا على بعض الآيـات القليلة التي لم تتجاوز الثلاثين آية من مجموع آيات القرآن وحتى هـذه الآيـات

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٦

(٢) سورة النحل آية ١٠١

لم يثبت بعضها لدى فقهاء الإمامية وهي موضع نقاش ومحل بحث عندهم كالسيد الخوئي رحمه الله في كتابه البيان.

فالآية المنسوخة لابد أن تكون قائمة على دليل صريح واضح حتى يتم معرفتها و التعامل معها على أساس أنها منسوخة.

و أما الحكمة التي اقتضت هذا النسخ لهذه الآيات القليلة هي سياسة القرآن لتعهد تربية هذه الأمة، و السير معها خطوة خطوة ببيان مواقع ضعفها من قوتها، وقدرتها على تحمل أي نوع من الأحكام بما تملك من طاقات ومواهب. فالأمة الإسلامية حينها كانت تمر في مرحلة انتقال صعب، فما كان من الوحي إلا أن يمحّصها، ويرى مدى تجاوب هذه الأمة في ترك ماضيها السلبي وعقائدها الخرافية و العادات الجاهلية.

تلك الحكمة كانت وليدة الرسالة، ونابعة من صميم الأحداث التي عاشتها الدعوة متدرجة نحو السير بالمجتمع قدماً إلى الأمام، صاعدة به إلى مدراج الرقي و التقدم في سبيل إيجاد ثقافة اجتماعية بعيدة عن التعقيد، تقوم بحل المشاكل العالقة في المجتمع بدون أن تواجه هذه الثقافة ردّات الفعل الارتجالية. ومن ابرز معالم هذه الثقافة القرآنية في توجيه خطابها إلى الإنسان. إنها تنظر إلى الجانب العقلي و الغريزي في استجابته إلى أوامر القرآن وإلى الحكم الأنسب له، وفق المصلحة التي تستدعي بقاء ذلك الحكم أو نسخه بحكم آخر.

فإذا كانت الاستجابة نابعة من العقل، فان التسرع أيضاً نابع من الجهل و الحمق، فكما أن الثقافة القرآنية تريد أن تؤكد بعملية النسخ جانب الاستجابة فإنها ترفض جانب التسرع عند الإنسان في الحكم.

و القرآن لا يحوي على الناسخ و المنسوخ فقط، و إنما هناك عام وخاص، و إطلاق وتقييد، ومحكم ومتشابه، فلا يحق لأحد أن يتسرع بإصدار الأحكام دون معرفة الآيات ونوعيتها، كما قال أمير المؤمنين (ع) إلى قاض مر عليه **﴿هل تعرف الناسخ من المنسوخ فقال القاضي لا. فقال أمير المؤمنين (ع) إذن هلكت و أهلكت﴾**.(١)

فمن هنا جاءت فكرة النسخ لتخلق في الإنسان حالة الاستجابة الثابتة القائمة على الحق. فالاستجابة وحدها لا تكفي بل لابد من الثبات، وقد أكد ذلك ربّنا بقوله سبحانه وتعالى: **﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية و الله اعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون، قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾**.(٢)

وما أثاره المشركون في قولهم أن النبي (ص) كاذب في تبديله للحكم "قال ابن عباس كانوا يقولون يسخر محمد بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر و انه لكاذب يأتيهم بما يقول من عند نفسه"(٣) أرادوا بهذه الإثارة خلق حالة من التردد في نفوس المسلمين، و إيجاد الشبهات لإبعادهم عن الإيمان الراسخ في قلوبهم، وزلزلة ذلك الثبات عندهم بإضعاف إيمانهم. يقول: صاحب الميزان "وبتجدد الحكم حسب تجدد المصلحة يؤتون ثباتاً على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول".(٤)

فحكمة الرب عز وجل في مقابل شبهات الشيطان التي ترد على ألسِنَةِ المشركين لإضعاف المؤمنين كانت مرصاداً لتجعل الذين آمنوا يعتصمون بروح

---

(١) البحار (ج٩٢) ص٩٥
(٢) سورة النحل آية (١٠١-١٠٢)
(٣) مجمع البيان (ج٥) ص٥٩٥
(٤) الميزان (ج١٢) ص٣٤٦

القدس مع التمسك بتعاليم القرآن وقيادة النبي (ص) لهم لكي يثبتوا على ما هم عليه، ويبتعدوا عن غواية الشيطان.

فائدة بقاء المنسوخ في القرآن:

وهنا قد تثار شبهه من الشبهات حول الآيات المنسوخة فما الفائدة من بقائها في القرآن مادام ارتفع حكمها ولا يعمل بها، ولماذا تُثبت في القرآن مادامت هي منسوخة ؟ فإنها تبقى بجرد ألفاظ تقرأ عبر القرون بدون فائدة ويعني ذلك أن النسخ للحكم دون التلاوة فتبقى تلاوة الآية في القرآن ويرتفع حكمها، وعلى ذلك قسموا النسخ إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: نسخ التلاوة دون الحكم وقد ذهب السيد الخوئي إلى بطلانه و اعتبر ذلك نوع من التحريف في القرآن حيث أن الآية قد سقطت من القرآن بنسخها وبقي حكمه موجوداً. كما يدعي اكثر علماء أهل السنة أن بعض القرآن قد نسخت تلاوته. و إليك ما يروي البخاري روى ابن عباس أن عمر قال فيما قال وهو على المنبر: " أن الله بعث محمداً - ص - بالحق و انزل عليه الكتاب فكان مما انزل الله آية الرجم فقرأناها، وعقلناها، ووعيناها. فلذا رجم رسول الله (ص) ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل و الله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها و الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال.[١]

و آية الرجم كما يقول الزرقاني " انه صح عن عمر بن الخطاب و أبي بن كعب انهما قالا كان فيما انزل من القرآن (الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) أي كان هذا النص آية تتلى ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها معمولاً

(١) صحيح البخاري (ج٨) ص٢٦ صحيح مسلم (ج٥) ص١١٦

إلى اليوم".[1]

بربك أليس هذا تحريف القرآن و ادعاء النقص فيه ؟! ومن أين جاءت هذه الآية و كيف غابت عن ذهن رسول الله ؟ و لم يسمعها أحد إلا عمر !

ثانياً: نسخ التلاوة و الحكم معاً وهذا كالأول في وضوحه ودلالته على التحريف في القرآن الذي لا يقره أي مسلم. وقد مثّلوا لذلك ما عن عائشة حيث روى عمر عنها أنها قالت " كان فيما انزل من القرآن: عشرُ رضعات معلومات يُحرمن ثم نُسِخْنَ بـ: خمس معلومات فتوفى رسول الله (ص) وهن فيما يقرأ من القرآن".[2]

ثالثاً: نسخ الحكم دون التلاوة وهذا المشهور بين العلماء و المفسرين حيث يقر هذا النسخ بقاء الآية في القرآن و ارتفاع حكمها فقط، وهذا ما يؤكد على حفظ القرآن وصيانته من التحريف و النقص فيبقى القرآن كما هو تام بناسخه ومنسوخه لا يعتريه أي خلل أو تشويه ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾.[3]

وهذا القسم هو الذي تثار حول شبهة الفائدة من بقائه في القرآن، مادام حكمها قد نسخ فينتهي دورها بإلغاء حكمها فما هي الفائدة المتوخاة من وجودها في القرآن ؟

ماذا نستفيد من ذلك ؟

أولاً: نتعرف من خلال هذه الآيات المنسوخة التي جاءت تحمل في داخلها المرحلية في التدرج الحكمي الرحمة و اللطف الإلهي بعباده.

---

(١) مناهل العرفان (ج٢) ص٩٢
(٢) صحيح مسلم (ج٤) ص١٦٧
(٣) سورة الحجر آية ٩

وقد تجلت هذه الرحمة في رعاية الله للمسلمين وحسب استعدادهم النفسي و البدني في تقبلهم للأحكام، وحسب مراحل الضعف و القوة التي مرّت على الأمة جمعاء.

ثانياً: إن الآيات المنسوخة وجودها في القرآن يسجّل لنا تلك الظاهرة الحكيمة لسياسة الإسلام مع الناس، وطريقة تعامله معهم، كما إنها تسجل هذه الظاهرة جزءً من التاريخ ومرحلة من مراحل الدعوة، فبقاؤها يثبت تلك المرحلة التي مرّت فيها الأمة الإسلامية، فنتعرف على التاريخ من خلالها باعتبارها تشكل حلقة ضمن التسلسل الزمني لنزول الآيات القرآنية و الأحداث المصاحبة لها.

ثالثاً: الآية القرآنية وقد تحمل عدة جهات ففيها الحكم وفيها البلاغة وفيها الإعجاز وفيها العلم. فإذا نسخت من جهة الحكم تبقى من حيث البلاغة و الإعجاز و العلم، وذلك إنها ذات جهات أخرى تعطي لها صلاحية البقاء في القرآن، وتؤكد البلاغة القرآنية انه بحذفها ربما يوجد تشويه للنص القرآني.

رابعاً: الإيمان بها جزء من الإيمان بالقرآن، و الإيمان بالقرآن من الضرورات، فبالتالي تكون ضمن الآيات التي يتلوها الإنسان في كتاب الله عز وجل فيترتب على تلاوتها الثواب.

الفهم المطلوب:

هناك حقائق لابد من التسليم بها كمقدمة لكي نتوصل إلى فهم هذا الكتاب بالشكل المطلوب، وكما يريد القرآن نفسه لا كما نريد نحن، فعلينا أن نسلم بهذه الحقائق وهي اقرب إلى البديهة من أي شيء آخر.

أولاً: إن هذا القرآن جاء للناس باختلاف مستوياتهم وعقولهم ودرجات فهمهم و المواهب التي يمتلكونها، فلم يكن الكتاب لطبقة خاصة من المجتمع، ولا لفئة معينة تحمل مواصفات متميزة عن باقي أبناء المجتمع وإنما ﴿ **هذا بيان للناس**﴾.[1]

ثانياً: أن لغة التخاطب في القرآن كانت لغة موجهة إلى البشر لا إلى غيرهم مع هذا الاختلاف فهم المخاطبون بالقرآن جميعاً.

و الخطاب القرآني لم يتحدد بزمن معين ولا مكان خاص ولا جماعة معينة، فليس الخطاب موجّهاً إلى النبي (ص) ومن كان معه وفي مكة بالتحديد، وتحديد القرآن بفترة زمنية وجماعة معينة ومكان خاص فذلك يعني تحديد صلاحية هذا الكتاب فينتهي دوره بانتهاء تلك الفترة الزمنية وموت من نزل فيهم. فالخطاب إذاً موجّه إلى كل الناس على مر العصور و الأزمان وفي كل مكان بدون تحديد لذلك، لأنه اعتمد في التوجيه على أمور مشتركة غير اللغة التي ربما تختلف فيها. فقد لا تكون لغة القرآن لغةً لمسلم يتحدث باللغة الفارسية أو الإنجليزية، فهذه اللغة التخاطبية اعتمدت الاستدلال المنطقي كأسلوب ووسيلة للتوصل بها إلى الحق. فكانت عبارات القرآن معناها مشترك عند كل الناس، حيث أراد لهم أن تكون هي اللغة المنطقية القائمة على البرهان

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٨

و الحجة و الدليل لا على الكلمات، فهو حينما يوجه الخطاب بكلمات عربية لكنه معنى مشترك فيقول للناس ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[1] أو قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾.[2]

فالقرآن ليس بجرد كلمات أو عبارات و إنما هو برهان فيه هدى لحياتنا، فهو يحمل في جنباته كل قيم الخير و العطاء، فهو بالتالي توضيح لتفاصيل الجوانب العامة لهذه الحياة.

وهذا البرهان الذي يستدل به الإنسان على الحياة، ويتوصل به إلى معرفة الهدى، ويربطه بربه يكون استدلالاً مشتركاً بين كل البشر.

وربما قد يكون هذا البرهان هو البصائر و الرؤى و البرامج و التعاليم التي يهتدي إليها الإنسان حينما يحركه القرآن، بأن يأتي ببرهان آخر في مقابل برهان الله، وذلك بإيقاظ عقله من سباته و إعطائه شحنات دفعية لتثير فيه التفكير المسؤول لرفض الأفكار الدخيلة و اللامسؤولة التي توحي بتعطيل دور الإنسان في الحياة.

و استخدم القرآن أيضاً طريقة أخرى في التخاطب مع بني البشر، فقد كان للغة الإحساس الموجه إلى الفطرة دور فعال في تحريك الضمير الإنساني، وهزة من الداخل للتغلب على المشاكل النفسية قبل السطحية، فالعلاج في الخطاب القرآني جذري يدخل إلى العمق، ليتغير الظاهر تلقائياً، فهو موجّه إلى القلب لأنه الذي يمثل جانب الإحساس عند الإنسان.

فالمشاعر و الأحاسيس قد تثار عند الإنسان بوسائل شتى فتؤثر على

---

(١) سورة البقرة آية ١١١

(٢) سورة النساء آية ١٧٤

روحه، وتجعله يعيش عالماً خاصاً وسلوكاً معيناً، فما كان من القرآن إلا أن يوجه خطابه إلى القلب كما هو موجه إلى العقل، فيثير فيه الحس الديني ويحرك الفطرة للبحث في هذا الوجود عن الصانع و المدبر الذي احسن صنعاً لهذا الكون ولهذا الخلق.

ونلاحظ أن الطريقتين: استخدام الاستدلال المنطقي و الإحساس النابع من القلب قد اعتمد فيهما القرآن على العقل، فالخطاب القرآني موجه إلى عقل الإنسان فما عليه إلا أن يستخدم هذا العقل حتى ينفتح على القرآن.

ثالثاً: حقيقة العلم وهي نابعة من أن العلم ليس للتعلم فقط بل لابد أن يتحول هذا العلم إلى ميدان عمل تتحرك فيه طاقات الإنسان وقدراته بما يملك من مواهب، فلم تكن آيات القرآن في تأكيدها على العلم إلاّ لهذا الغرض حتى يتحول العلم إلى مدارس فكرية يستطيع أن يتأقلم، ويتكيف معها، وينتج من خلالها ما يطور بها الحياة، فيتطور هو بتطوير وسائل الإنتاج و أساليب الدفاع وسبل المواصلات وقوانين الحياة. فإذا تحول العلم إلى حالة جمود و أغلقت أبواب التفكير و التطلع عند الإنسان فان ذلك يعني حالة التراجع و الانتكاس الحضاري، فحينها عليه أن يتجاوز هذه الحالة عبر المرور بمراحل التفكير التي يدعوه العلم إليها، لكي يأخذ بالمناهج التي رسمها له القرآن فيسعى في سبيل تجديد الحياة بابتكار الوسائل و الأساليب، وتطوير وسائل الإنتاج، وتقنين ذلك وفق رؤى الشريعة وفي إطار الدين.

وهناك حقيقة أخرى وهي كما في الحديث الشريف: **﴿ ليس العلم بالتعلم إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه ﴾**[1] فإذا كان العلم

(١) بحار الأنوار (ج١) ص٤١١

نوراً، فماذا يستفيد منه الإنسان وكيف يستفيد ؟

أليس النور يستضيء به الإنسان في الظلام الدامس ألا ينقشع الظلام حينما يحل النور محله، ويرى الإنسان بذلك النور كل شيء أمامه واضحاً ! هكذا هو العلم فدوره كدور النور وفي مقابله الجهل. فبالعلم وبالحصول عليه يرتفع الجهل عن الإنسان، وقد عبرّ القرآن في كثير من آياته عن الجهل بالظلام و العلم بالنور. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾.[1]

فالقرآن حينما يريد من الإنسان أن يتعلم يجعل ذلك العلم كالنور ليضيء له الطريق فيهتدي به، ويستطيع أن يتخطى الظلام، ويصل إلى ما يريد.

تعالوا نفهم القرآن:

من خلال تلك الحقائق نرى أن فهم القرآن يمر عبرها، فالقرآن للناس وخطاب لهم، و العلم قاعدة أساسية لفهمه و إدراك معانيه، فكيف يا ترى نفهم هذا الكتاب ؟

هناك نوعان من الفهم لهذا الكتاب العزيز، الفهم العمقي و الفهم الحيوي.

أولاً: الفهم العمقي:

للقرآن طريقته الخاصة في فهم الناس له، فأراد أن نفهمه بهذه الطريقة التي صرّح بها في كتابه ضمن آياته الكريمة، فكانت تعتمد على إدراك الإنسان لتلك الحقائق التي ذكرناها فبالتالي يستطيع أن يستوعب الآيات وفقها فيقوم

(١) سورة إبراهيم آية ١

بعملية التفكير العميق لمعرفة محتواها و المغزى منها.

القرآن أراد لنا أن نفهم عمق الآيات وصلبها لا سطحها أو ظاهرها. فعن النبي (ص) قال ﴿اعربوا القرآن و التمسوا غرائبه﴾[1] فان في القرآن عمقاً لا نصل إليه من خلال قراءة عادية بل نحن بحاجة إلى أن نسبر غوره حتى نكتشف تلك الأسرار الملكوتية التي أودعها الله في كتابه. لذا قال النبي (ص) في وصف القرآن ﴿ و له ظهر و بطن فظاهره حُكم و باطنه علم ظاهره أنيق و باطنه عميق له نجوم و على نجومه نجوم لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة ﴾.[2]

و قد يدلل القرآن على هذا الفهم من خلال طرحه لمجموعة تساؤلات ليبيّن لنا مدى أهمية هذا الفهم في الحياة، وعلى الإنسان أن لا يعيش السطحية و الهامشية، و إنما يحاول أن يكون في عمق الأمور تفكيراً وعملاً و اجتهاداً وفي صلب القضايا معرفةً وتوجهاً وفهماً.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلّةِ قل هي مواقيت للناس و الحج﴾.[3]

ويقول أيضاً: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين و الأقربين﴾.[4]

ويقول سبحانه: ﴿ يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾.[5] ويقول سبحانه: ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً

(١) بحار الأنوار (ج٩٢) ص١٠٦
(٢) الكافي (ج٢) ص٥٩٩
(٣) سورة البقرة آية ١٨٩
(٤) سورة البقرة آية ٢١٥
(٥) سورة الإسراء آية ٨٥

بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ﴾.[1]

ماذا نلاحظ في الإجابة على هذه التساؤلات التي طرحها القرآن أليس بإمكان القرآن أن يجيب على هذه الأسئلة بتفصيل لكنه اضرب عن الإجابة ليبين أن الأهم هو صلب الموضوع لا الهامش! وهذه إشارة موجهة إلى الإنسان لكي لا يشتغل بالتوافه، ويضع في حسابه وتفكيره الأمور المهمة ذات القيمة العالية. وقد تكون دعوة قرآنية مباشرة يمارسها المسلم أثناء قراءته للقرآن فتعيش في ذهنه، وتتحول إلى سلوك ينتجه حينما ينظر إلى آيات القرآن، ويتمعن فيها فيكون بعيد المدى قد ذهب ببصره إلى العمق و الباطن لا السطح و الظاهر.

في قراءتنا لهذه الآيات التساؤلية نرى أن إجابات القرآن تربط الإنسان وتشده إلى جعل اهتماماته في الحياة إلى اللباب دون القشر، و إلى الواقع العملي دون النظري، وحتى لو أفاد القرآن وتحدث عن الدورة الفلكية للقمر فإنهم لايعون تلك الحقائق لعمقها، وهذا هو البشر لم يصل إلا إلى النزر القليل من هذه العلوم. ثم أن هذا الكتاب ليس كتاباً للعلوم التجريبية، ولا هو كتاب فلك فإذا كان كذلك فقد قيمته. فالمهم من هذه الأسئلة هو أن يضبط الناس مواعيدهم ﴿ مواقيت للناس ﴾ فيرشدهم إلى أهمية وقيمة الزمن من خلال طرحه لهذه الآية في شتى احتياجاتهم الدينية و الزمنية ﴿ وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب ﴾[2] ومعرفة أمور دينهم و التزاماتهم العبادية كأشهر الحج ﴿ مواقيت للناس و الحج ﴾ وشهر رمضان وغير ذلك من الأمور التكليفية التي ترتبط بالأشهر الهلالية.

---

(١) سورة الكهف آية ٢٢

(٢) سورة يونس آية ٥

وكذلك الآية الأخرى في السؤال عن الروح حيث المهم أن نعلم إنها من الله حتى يستفيد منها في الأعمال المشروعة، ويصرفها في طاعة الله.

وعن آية ﴿ ماذا ينفقون ﴾ فليس المهم ماذا ينفق الإنسان و إنما كيف يتصرف وفي أي وقت و أين يضع هذا الإنفاق. وفي آية أصحاب الكهف فليس المهم عددهم ومن معهم و إنما المهم أن تعرف قصتهم، وما هي الأحداث التي مرّت عليهم، وكيف انهم آثروا الحق على الباطل حتى يكون لك درساً دون أن تذهب إلى الهوامش، وتبحث عن عددهم، وكم كانوا ومن معهم ؟

وهل معرفة هذه الأمور يجب ألا تكون ؟ نحن لا نقول على الإنسان أن لا يبحث في هذه الأمور بل لا يكون ذلك على حساب الفهم العمقي للقرآن لنشره، ونشر تلك الرؤى و البصائر التي يستفيد منها الإنسان في حياته للعمل بها في المجتمع حتى يتطبع بطابع القرآن وفق ما أراد لا وفق ما نريد، ففهمنا يجب أن يكون وفق هذا المنحى الذي أراده القرآن.

ثانياً: الفهم الحيوي:

حيوية القرآن تتجسد في المعرفة التطبيقية له بربط آياته وما فيه من أحكام وقوانين في مختلف الاتجاهات الاجتماعية بالواقع و الحياة. فطريقة الفهم هي التي تحدد كيفية الارتباط و التطبيق على الواقع. فالأجيال الأولى التي واكبت الدعوة الإسلامية فهموا القرآن على انه كتاب للحياة، وبرنامج للعمل، وخريطة للتحرك، فكان الواحد منهم حينما يقرأ القرآن يترجم ذلك إلى عمل عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: "حدثنا من كان يُقرئنا من الصحابة انهم كانوا يأخذون من رسول الله عشر آيات فلا يأخذون في العشر الآخر حتى

يعلموا ما في هذه من العلم و العمل".[1]

و الرعيل الأول الذي عاصر النبي (ص) كان يرى كل مشاكله و الأزمات التي تعصر به من خلال القرآن فيلجأ إليه حينما يريد أن يهتدي إلى السبيل الواضح، والحل الأمثل والقرار الحازم يتجاوز بذلك منطقة الخطر التي يمر فيها.

أما الأجيال التي جاءت بعد ذلك الجيل أساءت الفهم إلى القرآن، و اعتبرته أثراً من الآثار عليها أن تحتفظ به في متحف من المتاحف التاريخية، وأخطأت حينما اعتقدت أنه كتاب من الكتب القديمة التي كانت تتحدث عن القصص التاريخية، وبعض الأمور الطقوسية، فهو كتاب لا يرتبط بالحياة لا من بعيد ولا من قريب !.

وهذا الفهم أساء إلى الأمة الإسلامية و لم يسيء إلى كتاب الله لأنه فهم مغلوط، ولأن ما في الكتاب باق على حقيقته لا يغيره هذا الفهم الخاطئ، وقد لعبت عدة عوامل وأسباب في تكريس هذا الفهم. لذا فإن الأجيال المتعاقبة ساعدت على التخلف، والتراجع عن القرآن والدين باعتقاد انهما سبب هذا التخلف، بينما لم تكن تعي الأمة أن سبب تخلفها هو ابتعادها عن كتاب الله.

و من تلك العوامل أيضا التي ساعدت في هذا الفهم هو إبعاد القرآن عن ميدان العمل، وساحة النشاط، وبالتالي إبعاده عن مسرح الحياة والأحداث، وذلك كي يتسنى للإنسان المسلم التهرب من الضوابط والقيود الشرعية ويطلق العنان للأهواء والشهوات تلعب دورها دون قيد أو شرط فينطلق في الحياة كما يشتهي ويريد، لا كما يريد القرآن منه والدين. فبالتالي نرى أن هذا

---

(١) منية المريد ص٢١٦

الإنسان ليس مستعداً أن يتنازل عن رغبة من رغباته، ولاعن علاقاته ومنصبه، وما يملك. وكان للأفكار الدخيلة و الأفكار المسمومة والثقافات المنحرفة والجاهلية دور آخر في هذا الفهم الخاطئ عندما وردت التيارات الفكرية التي غيرّت من سلوك المسلم، وأبعدته عن ثقافته، وعمّقت لديه الانحراف متجاوزاً بذلك كل قيمه ومفاهيمه الخيرة، آخذا بالركض وراء الشيوعية والوجودية والرأسمالية والمذاهب الفلسفية والاقتصادية والسلوكية و الإطلاقية عله يجد فيها ما يشفي غليله ويعالج مشاكله التي تعصف به.

ومن هنا كان على العلماء والمفكرين والكتاب أن يزيلوا هذا الفهم الخاطئ بتكثيف الجهود لبيان حقيقة القرآن وفق منهجية مدروسة تقوم على أسس علمية وقواعد رصينة نابعة من ذات الرسالة ليتم بها استخراج المفاهيم الأصيلة والأفكار النقية التي تدفع المسلم إلى الأخذ بها، والعمل وفقها.

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي يدل الإنسان على النجاة، ويرشده إلى الطريق، ويزيل عنه تلك الشبهات، ويبعده عن الطرق الملتوية، ويأخذ بيده إلى الصواب، ويخرجه من الظلمات إلى النور.

لذا يأتي النبي (ص) ليقول أن العلاج هو بالقرآن وفي القرآن فقط بعد أن يشير في رواية إلى حركة الزمن والتغير الذي يحدث، وان الدنيا لا تبقى على حال، فكأنه يستقرئ ما سيحدث للأمة من تركها للقرآن، وفهمها الخاطئ له فتصبح بعيدة عنه فيضع لنا هذا النص فيقول: **﴿ أيها الناس إنكم في دار هدنة و انتم على ظهر سفر و السير بكم سريع وقد رأيتم الليل و النهار و الشمس و القمر يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود فاعدوا الجهاز.**

قال: فقام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله وما دار الهدنة قال: دار بلاغ وانقطاع فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع،

مشفّع وما حلٌ مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه، نجوم لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره ينج من عطب، ويتخلص من نشب، فان التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص﴾.[1]

فإذا أردنا أن نزيل اللبس، ونقضي على الفتن، فعلينا بفهم القرآن فهما صحيحاً وسليماً.

ولكن كيف ؟

فهم الأبعاد الحقيقية للقرآن ولا يتم ذلك إلاّ بربط القرآن بالحياة والواقع و استيعاب المتغيرات الزمنية، والوعي بما يجري وملاحظة المستجدات التي تطرأ على الساحة الإسلامية، كل ذلك يجعل الواحد منا يفهم أن القرآن جاء ليواكب هذه الأمور ولكي لا يكون كتاباً ميتاً فيحيا هذا الكتاب حينما ينظر المسلم إلى هذه الأمور من خلاله، كما قال لنا النبي (ص) في الرواية الماضية.

كما إننا بحاجة إلى دراسة التاريخ التطبيقي للفترة الزمنية التي نزل فيها القرآن، لنرى كيف فهم أولئك القرآن ؟ وكيف تمت الممارسة الفعلية له ؟ وكيف كانوا حينما كان فهمهم له سليماً ؟

فما هو مفهوم الوحدة عندهم حسب نظر القرآن وكيف جسدوها على واقعهم. وكيف كانت الاخوة التي انطلقت من أساس الإيمان بعد إلغاء

(١) ميزان الحكمة (ج٨) ص٦٥

العصبية واللون والجنس والدم والعرق وعموماً كيف فهم أولئك المسلمين القرآن وطبقوه على حياتهم ؟ أليس لأنهم التزموا بقيادة النبي (ص) باعتباره مرسلاً من السماء لهم.

فالتزامهم بالقيادة الرسالية كان على أساس قيم ومبادئ قرآنية لا على أساس مصالح دنيوية أو مكاسب مادية، فكانت كل مفاهيم القرآن و رؤاه وبصائره التي اكتسبوها من الوحي عبر النبي (ص) الصادق لدلالة واضحة على سيادة هذه الأمة في ذلك اليوم حيث خاطبها القرآن ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾[1] ولكن حينما تبدلت القيم، وتغيرت المفاهيم، و اصبح القرآن بعيداً عن الحياة، والنبي (ص) اصبح جسداً لا رمزاً ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا** ﴾.[2]

ونحن اليوم كيف نفهم القرآن يكون مصيرنا ! فإذا كان فهمنا له كما فهمه أصحاب النبي (ص) وعلي (ع) والمقداد وعمار وسلمان وحمزة نتقدم، و إذا كان فهمنا له غير ذلك فقد نزداد تخلفاً وتراجعاً إلى الوراء.

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤





١٢

كيف نقرأ القرآن

* لماذا نقرأ القرآن
* قبل أن نقرأ القرآن
* القراءة الرسالية
* لكي تكتمل القراءة



لماذا نقرأ القرآن ؟

ما تقدم من حديث يدلل على أننا بحاجة إلى القرآن، و لا نستغني عنه. فنحن لا نقرأ إلاّ ما نحتاج إليه، ونستفيد منه، لكن نضم إلى ذلك أن القراءة تختلف عن الاستماع لأن لها مميزات كالوضوح والتفاعل، فهي تخلق نوعاً من التجاذب بين النص المقروء وذلك الإنسان القارئ، فيكون التأثير ملازماً لتلك القراءة، وبالخصوص حينما يكون النص المقروء مقدساً كنصوص القرآن الصادرة من الله عن طريق الوحي، والنصوص الواردة من الأنبياء والأئمة. فقراءة النص المقدس تربط الإنسان حينما يعتبر تلك القراءة نوعاً من العبادة.

عن أبي عبد الله (ع) قال: **﴿قلت له جعلت فداك إني أحفظ القرآن عن ظهر قلبي افضل أو أنظر في المصحف ؟ قال فقال لي بل اقرأه وانظر في المصحف فهو أفضل ما علمت أن النظر في المصحف عبادة﴾**.[1] وقراءة القرآن لا تترك بحال كما يقول سبحانه وتعالى: **﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾**[2]

وفي نفس الآية **﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾**.[3]

نعم على المؤمن أن لا يترك قراءة القرآن، هذه الرسالة الربانية لأنه قد يستغني عن كثير من المستحبات الأخرى لكنه لا يستغني عن قراءة هذا الكتاب، ولو بضع آيات حتى ولو كانت القراءة غير صحيحة، حيث أجاز بعض الفقهاء لمن لا يجيد القراءة أن يقرأ القرآن في حالة عدم ضبطه للحركات والسكنات.[4]

---

(١) القرآن ثوابه و خواصه ص٢١٥
(٢-٣) سورة المزمل آية ٢٠
(٤) أجوبة المسائل الشرعية ص٣٠٥

فهذا الكتاب المقدس ليست قراءته حكراً على طائفة معينة أو جماعة خاصة، وإنما هو كتاب المسلم فعليه أن يقرأه، أو ما تيسر منه، فهو بصائر وهدى له في حياته مهما كانت الظروف.

قال النبي (ص): ﴿ **إن الرجل الأعجمي من أمتي ليقرأ القرآن بعجميته فترفعه الملائكة بعربيته** ﴾.[١]

فلا يجوز للإنسان أن يعتذر عن قراءة القرآن، فهي الوسيلة المباشرة التي يتعرف بها على كتاب ربّه، ولذا كانت أول آية نزلت على النبي (ص) تأمره بالقراءة ﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق ﴾[٢] و ﴿ **اقرأ و ربّك الأكرم** ﴾.[٣] ولفظة القرآن أوضح دلالة على القراءة حيث يقول صاحب مجمع البيان: " القرآن معناه القراءة في الأصل وهو مصدر قرأت أي تلوت وهو المروي عن ابن عباس وقيل هو مصدر قرأت الشيء أي جمعت بعضه إلى بعض".[٤]

وهذا يعني أن للقراءة أبعاداً نلمسها من خلال قراءتنا لهذا السفر العظيم، فعلى ذلك جاءت روايات لأهل البيت (ع) في هذا المجال لتؤكد على أهمية القراءة، وتحث المسلم على مزاولتها، وعدم تركها لما فيها من عظيم الثواب والأجر، ومعرفة العلوم الإسلامية والأحكام الشرعية ومعالم الثقافة الإسلامية.

فورد عن النبي (ص) ﴿ **أفضل العبادة قراءة القرآن** ﴾[٥]

وعنه أيضاً (ص) ﴿ **من قرأ القرآن حتى يستظهره أدخله الله الجنة وشفّعه في**

---

(١) عدة الداعي ص٢١

(٢) سورة العلق آية ١

(٣) سورة العلق آية ٣

(٤) مجمع البيان (ج١-٢) ص٨٢

(٥) مجمع البيان (ج١) ص١٥

عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار ﴾.[1]

وجعلت هذه الروايات من قراءة القرآن الحصول على البركة والخير الكثير والنعمة، وذلك أن الإنسان إذا تتطبع بالقرآن، وتحول من عبارات يقرأها إلى سلوك وعمل وممارسة في كل مجالات حياته فانه سينعم بالسعادة والرفاه، ويحصل على الرزق، لأنها آيات تلاوتها دعوة إلى التحرك نحو التوجه إلى كل فرص الخير في الحياة فعن النبي (ص) قال: **﴿ نوروا بيوتكم بتلاوة القرآن ولا تتخذوها قبوراً كما فعلت اليهود والنصارى، صلوا في الكنائس والبيع وعطلوا بيوتهم فان البيت إذا كثر فيه تلاوة القرآن كثر خيره، واتسع أهله، وأضاء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الدنيا ﴾.**[2]

وعن الرضا (ع) عن النبي قال: **﴿ اجعلوا لبيوتكم نصيباً من القرآن فان البيت إذا قرأ فيه القرآن تيسر على أهله، وكثر خيره، وكان سكانه في زيادة، وإذا لم يقرأ فيه القرآن ضيق على أهله، وقل خيره، وكان سكانه في نقصان ﴾.**[3]

فكما أن القراءة وسيلة إلى العلم والثقافة وفهم معالم الدين فهي أيضاً وسيلة للحصول على السعادة والرفاه، فينعم الإنسان بحصوله على هذه الوسيلة على الخير والبركة حيث العلم طريق إلى سعادة الإنسان. كما أن القراءة هي وسيلة لتحقيق جانب كبير من الراحة النفسية واطمئنان القلب وسكون النفس، فقراءة القرآن تهدئ من روع الإنسان، وتخفف عليه آلام الحياة، وترفع عنه كثير من المشاكل الاجتماعية والنفسية حينما يتمعن في تلك الآيات بصفاء الذهن وروية العقل والتفكير، فينظر من خلالها إلى آفاق نفسه والى آفاق الكون فيرتاح باله وتطمئن نفسه كما يقول ربنا: **﴿ ألا بذكر الله**

---

(١) مجمع البيان (ج١) ص١٦
(٢) عدة الداعي ص٢١٢
(٣) القرآن ثوابه و خواصه ص٣١

تطمئن القلوب﴾.[1]

قبل أن نقرأ القرآن:

هل هناك نوع محدد من القراءة ؟ وهل هناك عدة قراءات للقرآن ؟ وهل ثبتت هذه القراءات ؟ وما هي درجة صحتها وهل لها تأثير على وحدة القرآن أم لا ؟

فقبل أن نحدد نوع القراءة المطلوبة للقرآن من الوجهة القرآنية والثقافة الإسلامية فنلقي الضوء على هذه القراءات التي وردت حول القرآن ولو بشكل مختصر حتى نتوصل إلى رأي صائب حولها.

ما هي القراءات ؟

قبل أن نتحدث عن نشوئها ومتى بدأت هذه القراءات ؟ نعرف القارئ عليها ليكون في الصورة حتى يتسنى له فهم الموضوع بشكل واضح.

القراءات تعني أن هناك عدة صور يُقرأ بها القرآن. وكان ذلك أن جماعة من أصحاب النبي (ص) وفي حياته اشتغلت بقراءة القرآن تعلماً وتعليماً فكانت تترقب نزول الآيات على الرسول (ص) فتحفظها عن ظهر قلب ثم يقرؤونها عند النبي (ص) بعد ذلك ليستمع إليهم.

وكان هؤلاء الحفظة يعلّمون غيرهم ما يأخذونه منه (ص) فينقل عنهم على شكل رواية مسندة مع القراءة المروية عن ذلك الشخص. وكان هؤلاء التلاميذ الذين يأخذون عن الحفظة وهم يقرؤونها بعدة وجوه نتيجة الخط الكتابي المعمول به - الخط الكوفي - حيث أن الكلمة كانت تقرأ بعدة طرق،

---

(1) سورة الرعد آية ٢٨

ولم تكن آنذاك ثقافة خاصة باللغة العربية أو قواعد معينة لها مدونة ومتفق عليها عند كل العرب، فكان كل واحد يقرأ حسب طريقته أو لهجة القبيلة التي ينتمي إليها، فانتقلت هذه القراءة من الطبقة الأولى وهم من قرّاء الصحابة - وكانت من بينهم امرأة تسمى بأم ورقه بنت عبد الله بن حارث - إلى تلامذتهم وهم الطبقة الثانية من التابعين، وهؤلاء كانت لهم حلقات في تعليم القرآن في مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام حيث أرسل إليها المصحف الشريف، وفي النصف الأول من القرن الثاني انتقل إلى الطبقة الثالثة، وهم جماعة من مشاهير قرّاء القرآن أخذوا عن الطبقة الثانية ومن بينهم القراء السبعة الذين اشتهرت بهم القراءات السبع وهم:

١- عبد الله بن كثير "مكي"

٢- نافع بن نعيم "مدني"

٣- عاصم بن أبي النجود "كوفي"

٤- حمزة بن حبيب الزيات التميمي "كوفي"

٥- علي بن حمزة بن عبد الله فيروز الفارسي "كوفي"

٦- أبو عمرو زبّان بن العلاء "بصري"

٧- عبد الله بن عامر الشافعي الدمشقي "دمشقي"

هؤلاء هم القراء السبعة وتتبعهم القراءات السبع ويتلوها في الشهرة أيضاً قراءات ثلاث مروية عن أبي جعفر ويعقوب وخلف.

أما نشوؤها فهناك اتجاهان يوضحان ذلك:

الأول: وهو كما يدعي من يقبل بهذه القراءات أنها نشأت في عهد النبي (ص)، فكان أولئك ينطقون بها كما ينطق بها النبي (ص) وكما نزلت عليه

وحياً من الله تعالى بغض النظر عن كتابة المصحف فهي تسند كرواية قطعية مع اختلافها حتى تتصل بالنبي (ص) هذا بالطبع إذا تحققت أسانيد هذه القراءات.

الثاني: إن المصحف الكريم أول ما كُتب كُتب مجرداً عن الحركات والسكنات والنقط، مما أدّى إلى أن يكون نطق عبارته مختلفة نتيجة الاحتمالات لعدم وجود ما يساعد على وحدة العبارة لكل القراء، فنشأت نتيجة ذلك قراءات متعددة للوصول إلى حقيقة اللفظ المكتوب.

"وقد ادّعى المستشرق المجرى جولد تسهير إن نشأة القراءات كانت بسبب تجرد الخط العربي من علامات الحركات، وخلوه من نقط الاعجام".(١)

" وذكر المستشرق الألماني كارل بروكلمان فقال: " حقاً فتحت الكتابة التي لم تكن قد وصلت بعد إلى درجة الكمال مجالاً لبعض الاختلاف في القراءة لا سيما إذا كانت غير كاملة النقط ولا مشتملة على رسوم الحركات فاشتغل القرّاء على هذا الأساس بتصحيح القراءات واختلافها ".(٢)

عدم صحة القراءات:

ليس القصد من الحديث عن هذا الموضوع هو الغوص في أعماق هذا البحث العلمي بمقدار ما نريد أن نتوصل إليه فقط بان القرآن الكريم كتاب بعيد عن هذه الاختلافات التي تؤدي إلى اختلاف في معانيه نتيجة اختلاف ألفاظه وعباراته، وذلك يشكل ورود النقص على كتاب الله عز وجل الذي

(١-٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص(٨-٩)

يقول عنه سبحانه وتعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.[1]

فمناقشة هذه القراءات غرضها بيان وحدة القرآن، والحفاظ على اصله وجوهره بوحدة عباراته وألفاظه.

وقد صرح علماء الفريقين بأدلة كافية في رد مسألة تواتر القراءات حيث ادّعوا أنها متواترة عن النبي (ص) وقد ثبت العكس تماماً قطعاً فذكر السيد الخوئي في كتابه البيان ما يثبت نفي تواتر هذه القراءات فيما يلي:

الأول: "إن استقراء حال الرواة يورث القطع بأن القراءات نقلت إلينا بأخبار الآحاد فكيف تصح دعوى القطع بتواترها عن القرّاء على أن بعض هؤلاء الرواة لم تثبت وثاقته.

الثاني: التأمل في الطرق التي أخذ عنها القرّاء يدلّنا دلالة قطعية على أن هذه القراءات إنما نقلت إليهم بطريق الآحاد.

الثالث: اتصال أسانيد القراءات بالقرّاء أنفسهم يقطع تواتر الأسانيد حتى لو كان روّاتها في جميع الطبقات ممن يمتنع تواطؤهم على الكذب، فان كل قارئ إنما ينقل قراءته بنفسه.

الرابع: احتجاج كل قارئ من هؤلاء على صحّة قراءته، واحتجاج تابعيه على ذلك، وإعراضه عن قراءة غيره، دليل قطعي على أن القراءات تستند إلى اجتهاد القراء وآرائهم، لأنها لو كانت متواترة عن النبي (ص) لم يحتج في إثبات صحتها إلى الاستدلال والاحتجاج.

الخامس: إن في إنكار جملة من أعلام المحققين على جملة من القراءات دلالة

---

(١) سورة الحجر آية ٩

واضحة على عدم تواترها.[1] وذهب السيد الخوئي (قدس سره) إلى عدم حجية القراءات شرعاً.[2]

ويقول الإمام الشيرازي: " الأقوى عندنا عدم جواز القراءة إلا بما تعارف رسمه في المصاحف، فإنه هو المتواتر يداً بيد حتى يصل إلى صاحب الرسالة (ص)، ويدل على ذلك ما نشاهده في المصاحف الخطية القديمة، والتي ينسب بعضها إلى الإمام أمير المؤمنين (ع) أو الحسن (ع) أو إلى غيرهما من الأئمة (ع)، فإنه كالقرآن الذي بأيدينا اليوم بلا زيادة ولا نقيصة، والقراءات المشهورة كالقراءات الشاذة كلها اجتهادات لا تفيد علماً ولا عملاً، ومن لاحظ التاريخ في شدة اعتناء المسلمين بالقرآن من أول نزوله إلى اليد في كل عصر ومصر يظهر له أن ما بأيدينا اليوم هو القرآن النازل على الرسول (ص) بغير تغيير أو تبديل.[3]

ويقول الإمام بدر الدين الزركشي: " اعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان مغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد (ص) للبيان والإعجاز. والقراءات: هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها.

ثم قال: " والقراءات السبع متواترة عند الجمهور وقيل: بل مشهوره... والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة. أما تواترها عن النبي (ص) ففيه نظر، فان إسناد الأئمة السبعة بهذه القراءات السبعة موجود في كتب القراءات، وهي نقل الواحد عن الواحد لم تكمل شروط التواتر في استواء الطرفين

---

(١) البيان ص١٥١
(٢) البيان ص ١٦٤
(٣) موسوعة الفقه (ج٢١) ص٧١

والواسطة".[1]

" ولنعلم أن التواتر يعني القطع بأمر معين يحصل معه اليقين والاطمئنان بأنه صدر من النبي (ص). فإذا كانت هذه القراءات متواترة أي إنها مقطوع بها فلا يجرأ أحد أن يرفضها فإذا كان ذلك فكيف يُنكر الإمام أحمد بن حنبل على حمزة كثير من قراءاته وكان يكره أن يصلي خلف من يقرأ بقراءة حمزة وهو من القراء السبعة. وكان أبو بكر بن عياش يقول قراءة حمزة عندنا بدعة. وقال ابن دريد إني لاشتهي أن يُخرج من الكوفة قراءة حمزة. وكان المهدي يقول لو كان لي سلطان على من يقرأ قراءة حمزة لأوجعت ظهره وبطنه. وكان يزيد بن هارون يكره قراءة حمزة كراهة شديدة".[2]

أليست هذه متواترة ومقطوع بها ؟ فلماذا يعمل هكذا في روايات وردت عن النبي (ص)، وما الذي يجعل قراءة رسول الله يعاقب عليها، ويخرج من يقرأها ؟ أليس ذلك يدل على الشك في نسبة ذلك إلى الرسول وعلى عدم التواتر فهل يتجرأ أحد أن يرفض ما يتواتر عن النبي (ص) أو ما يقطع به المسلمون انه صدر عنه.

الأحرف السبعة:

ولنا أن نتساءل ما هي الأحرف السبعة وما صلتها بالقراءات السبع والقرّاء السبعة وهل هناك مناسبة أو صلة بينها أو لا تناسب بينها ؟

حاول البعض أن يستدل على القراءات السبع برواية قيل إنها صادرة عن

(١) البرهان (ج١) ص(٣١٨-٣١٩)
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر (ج٣) ص(٢٧-٢٨) نقلاً عن التمهيد (ج٢)ص٦٥

النبي (ص) "هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه".[1]

فما هي هذه الأحرف السبعة ؟ وما هو المراد منها ؟ وهل يصح الاحتجاج بما لا يفهم معناه وبما لا يعرف مؤداه ؟ إذا هو احتجاج باطل لا يوصل إلى نتيجة.

إذا كانت الأحرف السبعة تعني القراءات السبع التي أمر بها النبي (ص) بعد أن نزلت من قبل الله بواسطة جبرائيل فيعني إنها قاعدة من القواعد القرآنية التي يجب أن نعتمد عليها في قراءتنا لهذا الكتاب، فهي بالتالي تشريع من الله عز وجل، فلا يجوز لنا أن نرد هذا التشريع.

وإذا كانت هذه الأحرف تعني القراءات فكيف صح لخليفة المسلمين عثمان أن يتجاوز هذه الأحرف ويلزم المسلمين بقراءة القرآن على حرف واحد، ولم يعترض عليه كبار الصحابة وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (ع) ؟ هذا ما يدلل على عدم صحة هذا الحديث. وكيف يصح هذا الحديث ؟ وقد ذكر الطبري هذه الرواية وتعقبه الأستاذ احمد محمد شاكر في تعليقه فقال: " هذا حديث لا أصل له، رواه رجل كذّاب هو عيسى بن قرطاس قال فيه ابن معين ليس بشيء لا يحل لأحد أن يروي عنه. وقال ابن حيان: يروي الموضوعات عن الثقات، لا يحل الاحتجاج به. وقد اخترع هذا الكذّاب شيخاً له روى عنه وسماه: زيد القصار، ولم نجد لهذا الشيخ في ترجمة في شيء من المراجع.[2]

وليس ذلك فحسب بل الرواية لم ترد بهذه الصورة فقط وإنما وردت روايات عن النبي (ص) أيضاً مختلفة في عدد الأحرف، فبعضها يقول سبعة

(١) صحيح البخاري (ج٦) ص١٨٥
(٢) جامع البيان (ج١) ص٢٤ نقلاً عن دراسات قرآنية ص١٠٤

وبعضها يقول خمسة وبعض يقول أربعة وأخرى تقول ثلاثـة وأخـرى عشـرة. فما هو الصحيح في هذه الروايات ؟ وكـم يكـون بالتـالي عـدد القـراءات ؟[1] ولماذا هذا العدد بالتحديد السبعة لم لا تكون اقل من ذلك أو اكثر !

ثم يا ترى ما هو الغـرض مـن هـذه القـراءات ؟ حيـث ذكـر بعضهـم أن الحكمة في نزول القرآن على الأحرف السبعة هو التيسير على الأمة الإسلامية، خصوصاً الأمة العربية التي شوفهت بـالقرآن فإنهـا قبـائل كثـيرة وكـان بينهـم اختلاف في اللهجات.[2]

أليس هذا الكلام بعيـداً عـن المنطـق ؟ وهـل التسـهيل في أيجـاد لغـات متعـددة ولهجات متفرقة أم توحيد الأمة بقراءة واحدة ؟ ثم إن هذا الكتاب ليس كتابـاً للعرب فقط أو للعرب في ذلك الزمن بـل هـو كتـاب لكـل النـاس، فلابـد أن تكون لغته واحدة وعباراتـه واحـدة ومـؤداه واحـد فـإذا وجـد الاختـلاف في كتاب الله فما بال من يتبعون هذا الكتاب ؟!

ثم أن الغموض حول تحديد معنى الأحرف ما هـي ؟ ومـاذا تعـني ؟ فهـل هي أحرف اللغة العربية ؟ فلماذا حددت بسبعة وليس اكثر ؟ أم هي التشـكيل والإعراب والبناء ! فليست هناك دلالة واضحة على ذلك وبالطبع لو اقتضـت وجود هذه الأحرف المختلفة من قراءة إلى قراءة علـى أيـة فرضيـة فإنهـا تعـني وجود زيادة لحرف أو كلمة أو جملة وذلك مما يغيّر في القـرآن، وينفـي وحـدة النص القرآني، كما هو حاصل بالنسبة للاختـلاف الموجـود في الإنجيـل حيـث يختلف النص من إنجيل إلى إنجيل.

---

(١) تراجع هذه الروايات في جامع البيان للطبري (ج١) ص (٢٤-٢٦) و مستدرك الحاكم (ج٢) ص ٢٢٣ و كنز العمال (ج٢) ص٢٢٣.

(٢) الزرقاني في كتابه مناهل العرفان (ج١) ص١٣٨

فعلى أي حال إن القول بالقراءات بهذه الكيفية يعني القول بالتحريف في القرآن واليك أمثلة على ذلك، فمثلاً ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾[1] وكذا في سورة الفرقان ٤٨ والنمل ٦٣، بالباء.

هذه هي قراءة عاصم وحده، قال أبو زرعه وحجته قوله تعالى: ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾[2]

وذلك أن الريح تبشر بالمطر، قال: "وكان عاصم ينكر أن تكون الريح تنشر، وكان يقول: المطر ينشر أي يحي الأرض بعد موتها، يقال: نشر وانشر إذا أحيى.

وقرأ حمزة والكسائي "نَشْراً" وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "نُشُراً" وقرأ ابن عامر "نُشْر" ودلائلهم في ذلك غير وافيه.

ومن سورة مريم قرأ نافع والكسائي ﴿ يكاد السماوات يتفطرن منه ﴾ بالياء. وقرأ عاصم والباقون "**تكاد**" بالتاء وهو خطأ محض مخالف لما هو موجود في القرآن.

ومن سورة طه قرأ أبو عمرو: ﴿ إن هذين لساحران ﴾ بالتشديد والياء وهو مخالف للقرآن.

وقرأ عاصم والباقون: ﴿ إن هذان لساحران... ﴾ بالتخفيف والألف[3] وهو الموافق لكتاب الله.

والأمثلة على ذلك كثيرة من شاء فليراجع ذلك في مضانه حيث اقتصرنا

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٧

(٢) سورة الروم آية ٤٦

(٣) يراجع في ذلك كتاب التمهيد في علوم القرآن (ج٢) ص(١٤١- ٢٦٠)

على أمثلة ثلاثة للتدليل على أن هـذه القـراءات تهـدم وحـدة النـص القرآنـي، وبالتالي تؤدي إلى نقصه، والتغيير في معناه.

"ومن الواضح إن هذا ضرب من ضروب التحريـف في القـرآن ولا نفهـم معنى لان ينزل جبرئيل ويقول للنبي (ص) الآية الواحدة علـى الوجـوه الكثـيرة المختلفة حسب اختلاف القرّاء في قراءتهـا فيكـرر القـرآن عليـه، وفقـاً لتلكـم الاختلافات الكثيرة، فان هذا لا يعدو عن أن يكون لعباً وعبثاً بالقرآن الكريم، ومهزلة من مهازل العقل البشري لا مبرر لها، ولا منطق يساعدها".[1]

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مما يساعد على وحدة النـص القرآني، وانه نزل على حرف واحد أي أن كلام الله ليس فيه اختـلاف، وإنمـا حصل من قـراءات مـا هـي إلا اجتهـادات مـن قبـل هـؤلاء القـراء ومـن عنـد أنفسهم، فكلٌ اخذ يقرأ القرآن بطريقته الخاصة أو بلهجة قبيلته، لا كمـا نـزل على النبي(ص) وكما جاء به الوحـي مـن عنـد الله، يؤكـد ذلـك مـا ورد عـن الفضيل بن يسار قال: " قلت لأبي عبد الله (ع) إن الناس يقولـون: إن القـرآن نزل على سبعة أحرف فقال ﴿ كذبوا أعداء الله ولكنه نزل على حـرف واحـد مـن عند الواحد﴾.[2]

وعن أبي جعفـر (ع) قـال: ﴿إن القـرآن واحـد نـزل مـن عنـد واحـد ولكـن الاختلاف يجيء من قبل الرواة.﴾

فمصدر هذه القراءات هي اللهجات والقرّاء وليس القرآن حيث لا علاقة لها به، وإنما نشأت نتيجة اختلاف لهجات تلك القبائل العربية التي أسلمت.

---

(١) حقائق هامة حول القرآن الكريم ص٢٩٧

(٢) الكافي (ج٢) ص٦٣٠

وقد تبنى هذا الرأي الدكتور طه حسين فاعتبر اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي (ص) وعشيرته قريش، اعتبر ذلك أساساً لاختلاف القراءات، فقرأته هذه القبائل كما كانت تتكلم، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش، ومدّت حيث لم تكن تمد، وقصّرت حيث لم تكن تقصر، وسكنت وأدغمت و أخفت وثقّلت.[1]

وأخيراً:

إننا لا نجد أية صلة بين الأحرف السبعة وهذه القراءات التي ادّعى إنها نزلت على النبي (ص) حيث نجد أن هناك تأويلاً لهذه الأحرف السبعة من أئمة أهل البيت (ع) ومن علماء الفريقين.

والذي يظهر من روايات أهل البيت (ع) إن الأحرف السبعة هي إشارة إلى بطون القرآن وتأويلاته، وان آيات القرآن يمكن أن تتحمل عدة وجوه من المعاني المتفقه مع قواعد القرآن وأقوال النبي (ص)، ولذا ورد عن الإمام الصادق (ع): **﴿ إن القرآن نزل على سبعة أحرف وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه ﴾**.[2]

وما ورد عن الإمام الباقر (ع) قال: **﴿ تفسير القرآن على سبعة أحرف منه ما كان ومنه ما لم يكن بعد ذلك تعرفه الأئمة ﴾**.[3]

وما يدلل على أن الأحرف لا صلة لها بهذه القراءات ما ورد عن أمير

---

(١) الأدب الجاهلي ص٩٥ نقلاً عن دراسات قرآنية ص١٠٦

(٢) الخصال (ج٢) ص٣٥٨

(٣) بصائر الدرجات ص١٩٦

المؤمنين (ع) قال: ﴿ أنزل القرآن على سبعة أقسام كل منها شاف كافٍ وهي: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، ومثل وقصص ﴾.[1]

لذا قال الشيخ شهاب الدين "أبو شامه": " وأما من يهول في عبارته، قائلاً إن القراءات السبع متواترة لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف. فخطؤه ظاهر لان الأحرف السبعة المراد بها غير القراءات السبع على ما سبق تقريره"[2] بالطبع في كتابه هو.

وما يبدو لي هو إن للقرآن سمة خاصة ومميزات بعيدة كل البعد عن التعقيد الذي يجعل المسلم بعيداً عن كتاب ربه حتى لا يشتغل بأمور سطحية وجزئية تدور حول الكلمة واللفظ ليترك المعنى والفكرة جانباً.

فالأحرف هي ليست الألفاظ والكلمات التي تقرأ بأي شكل من الأشكال وإنما هي الأقسام التي ذكرتها الرواية المنقولة عن أمير المؤمنين (ع) حتى ينشغل الإنسان بالجوانب الأخرى في القرآن، كالجوانب التربوية والحقائق التاريخية، لكي يتعلم الإنسان من القرآن ما يتبصر به من خلاله في المجتمع، فتكون حينها سمة القرآن، والميزة التي تميزه الحيوية والحركة.

إذاً فليست الأحرف هي ألفاظ وحركات وسكنات تشغل ذهن الإنسان بعيداً عن عمق القرآن في تلك الجوانب.

نعم المطلوب قراءة القرآن بالشكل الصحيح عربياً ولغوياً كما جاء به النبي (ص) لاكما جاء به القرّاء السبعة.

---

(١) تفسير الصافي (ج١) ص٣٩

(٢) المرشد الوجيز ص١٤٦

القراءة الرسالية:

يا ترى كيف نقرأ القرآن ؟ فهل المطلوب أن نتبع إحدى هذه القراءات التي لم تثبت مدى جديتها ؟ أم إن القرآن كما بيّنا جاء على قراءة واحدة أقرأها جبرئيل للنبي (ص) ؟ وهل المطلوب هو تفكيك رموز وعبارات القرآن أم إن المطلوب هو القراءة بالشكل السليم الموافق لما هو في الكتاب المحفوظ إلى يوم القيامة ؟

بالطبع قراءة القرآن كما أنها بحاجة إلى ضبط قواعدها لمن يستطيع أن يضبطها من تشكيل وإعراب وبناء، كذلك تحتاج إلى قراءة ذات مواصفات متميزة يتحلى بها القارئ حتى لا ينطبق عليه الحديث الوارد عن الرسول (ص): ﴿ رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه ﴾.[1] فكما أن الصلاة التي يؤديها الفرد يجب أن لا تتحول إلى مجرد حركات بل تنهاه عن الفحشاء والمنكر، كذلك قراءة القرآن كما يخاطبنا الرسول فيقول: ﴿ أنت تقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه ﴾.[2] فالقراءة هي في إدراك المعاني والتدبر في آيات الله ضمن آداب القراءة التي علمنا إياها أهل البيت (ع)، وقراءة القرآن هي حديث العبد مع الله بواسطة هذا الكتاب. فعن الرسول (ص): ﴿ إذا أحب أحدكم أن يحدث ربه فليقرأ القرآن ﴾[3] ولكن ضمن الشروط والمواصفات التي تجعل الإنسان يقرأ القرآن بكامل قواه العقلية غير منشغل الذهن متوجهاً بتفكيره إلى هذه القراءة. فيا ترى ما هي المواصفات المطلوبة في هذه القراءة ؟ وكيف نقرأ هذا القرآن ؟

---

(١) بحار الأنوار (ج٩٢) ص١٨٤

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج١٠) ص٢٣

(٣)

أولاً: قراءة الاستعاذة:

لقوله تعالى: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.[1]

ماذا تعني الاستعاذة ؟ هل هي مجرد الصيغة التي وردت في روايات أهل البيت (ع) ﴿ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴾[2] أم إنها ليست مجرد ألفاظ وإنما هي سلوك لإزالة ما يقف حاجزاً أمام فهم القرآن من وساوس الشيطان !

والحقيقة إن الاستعاذة وبمجرد اللفظ ليست واجبة قبل قراءة القرآن وإنما هي مستحبة بلا خلاف في الصلاة وخارج الصلاة كما ذكر ذلك صاحب مجمع البيان.

" إنما هي راجحة للقراءة حيث القراءة في نفسها غير واجبة إلا قدر الواجب من المعرفة فكيف تجب الاستعاذة وبالأحرى في غير قراءة ولكنها قلبياً وعملياً واجبة إرشادية لكي لا يقع المؤمن في فخ الشيطان".[3]

وتأكيد القرآن عليها لإزالة كل ما يعترض فهم الإنسان لينفتح قلبه على هذا الكتاب، ويرتفع الحجب، والحواجز النفسية. لذا ورد في الحديث عن الإمام الصادق (ع): ﴿ فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء قلب خاشع وبدن فارغ وموضع خال فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان " قال الله تعالى: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾.[4]

---

(١) سورة النحل آية ٩٨

(٢) مجمع البيان (ج٥-٦)ص٥٩٣

(٣) الفرقان في تفسير القرآن (ج١٣-١٤)ص٤٨٠

(٤) مصباح الشريعة ص٩٧

والاستعاذة تعني فصل الشيطان عن قارئ القرآن أثناء قراءته، وهي نوع من الالتماس والطلب والدعاء إلى الله بإلحاح في إبعاد الشيطان وأحابيله وفي رفع تلك الحجب التي تشكل خطراً على الفهم واستيعاب آيات الله وبالتالي إبقاء الإنسان على حالة الجهل لمعالم هذا القرآن الكريم.

وهنا الاستعاذة بالقلب وسائر الأحوال الباطنية والظاهرية فيما سوى اللسان، تحلقّ على جو القراءة على أية حال وهي باللسان كإذاعة لما في الجنان تكون في البداية والنهاية دون حال القراءة حذراً من الاختلاط فقل: أعوذ بالله.. أولاً وقل أعوذ بالله آخراً، وكن أعوذ بالله في نفسك وكل كيانك أولاً و آخراً وفيما بينهما.[1]

والشيطان حقيقة واضحة وهو عدو الإنسان ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾[2] فيحتاج هذا العدو إلى مقاومة فعلية ليستطيع الإنسان أن يحول بينه وبين نفسه حين القراءة والتأمل في آيات الله لفظاً ومعنى.

فالقراءة التأملية التي تعطي لهذا القارئ أثراً روحياً تبعد الشيطان وخطره عن الإنسان بالاستعاذة منه، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾.[3]

والشيطان الذي يستعيذ منه الإنسان بقراءته للقرآن يتوخى بتلك الاستعاذة الشر والخطر المحدق الذي يترصد به للإنسان هو وأولياءه فقد يجّند الشيطان هؤلاء لحجبه عن قراءة القرآن، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وقل رب**

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن (ج١٣-١٤) ص٤٧٩

(٢) سورة يوسف آية ٥

(٣) سورة الإسراء آية ٤٥

أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾.[1]

وأشدّ خطراً حينما يتجسد في صورة القوى الفاسدة، فيدخل الخوف والجبن في قلب الإنسان، فيتحدى بذلك إرادته بالضرب على نقاط ضعفه التي هي من طبيعة هذه النفس، فتكون الاستعاذة هنا هي العلاج المباشر حيث هي طلب ملح من الله لدفع مشكلة الخوف والجبن من مواجهة الحقيقة.

فالاستعاذة، قد تشكل نوعاً من المواجهة العقائدية مع الشيطان لأنه تحدى الإنسان في عقيدته، أراد أن يهدم البنية التحتية له، فهو يراقب مركز الحياة عند الإنسان وهو قلبه، فعن النبي (ص): **﴿ إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس ﴾**[2] فإذا أردنا أن نبعد الشيطان وأفكاره الباطلة، وننتصر عليه في هذه المواجهة، فما علينا إلا أن نلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى: **﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾**.[3] فإن الشيطان لا يقوى على مقاومة المؤمن **﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾**[4] لأن قدرة الشيطان لأولئك الذين فقدوا كل موازين الحياة، وخارت عزيمتهم، و إرادتهم، وعشش الجهل في أدمغتهم فلم يستخدموا عقولهم، و لم يفتحوا قلوبهم على كتاب ربهم، فهؤلاء يتسلط عليهم الشيطان **﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾**.[5]

---

(١) سورة المؤمنون آية (٩٧-٩٨)
(٢) نور الثقلين (ج٥) ص٧٣٥
(٣) سورة حم السجدة آية ٣٦
(٤) سورة النحل آية ٩٩
(٥) سورة النحل آية ١٠٠

ثانياً: قراءة الحق:

لقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾[1] فالقرآن حق، وهو قائم على هذا الأساس، فقراءته لابد وان تقوم على أساس الحق، يعني ذلك أن تكون قراءة تامة أليس إعطاء الحق يعني تمام الشيء، فتلاوة القرآن لابد أن تكون تامة أي تحمل كل الأبعاد، فليست قراءة الثواب فقط وإنما قراءة التفكير والتدبر والعمل والشفاء والثواب. كذلك لا تتحقق الاستجابة من المؤمن في قراءته للقرآن إلا إذا كانت مبنيّة على أساس الحق، فحينها يمكن له أن يقوم بتنفيذ الأوامر القرآنية التي يقرأها.

فعن النبي (ص) في تفسير الآية السالفة الذكر قال: ﴿ يتبعونه حق اتباعه ﴾.[2] ونسب إلى الإمام الباقر (ع) في تفسيرها أيضاً انه قال: ﴿ **يتلون آياته ويتفقهون فيه ويعملون بأحكامه ويرجون وعده ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه ويأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده إنما هو.. قول الله تعالى " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته فالذين آتاهم الكتاب وشرفهم بذلك يحزنهم ترك الرعاية والقصور والتقصير في مراعاته والذين آتاهم الشيطان الكتاب أو أخذوه من الآباء بحسب ما اعتادوه أو تلقفوه من الرجال بحسب ما تدارسوه فإنهم يعجبهم حفظ الرواية ولا يبالون بترك الرعاية** ﴾.[3]

ولذلك جعل أمير المؤمنين (ع) التلاوة الحقة التي تحمل كل الأبعاد، من قواعد الإسلام السبع التي ذكرها في الحديث لسؤال كميل بن زياد قال:

---

(١) سورة البقرة آية ١٢١

(٢) الدر المنثور (ج١) ص١١١

(٣) تفسير بيان السعادة (ج١)ص١٤١ نقلاً عن تفسير الفرقان (ج٢) ص١١٦

سألت أمير المؤمنين عن قواعد الإسلام فقال: **قواعد الإسلام سبعة أولها العقل وبنى عليه الصبر.**

و الثانية صون العرض وصدق اللهجة.

و الثالثة تلاوة القرآن على جهته.

و الرابعة الحب في الله والبغض في الله.

و الخامسة حق آل محمد (ص) ومعرفة ولايتهم.

و السادسة حق الإخوان والمحاماة عليهم.

و السابعة مجاورة الناس بالحسنى.(١)

فحينما تكون التلاوة قاعدة من قواعد الإسلام فهي إذاً ليست تلاوة عادية وإنما هي تلاوة لفهم قاعدة من قواعد الإسلام، بل هي ركيزة أساسية لفهم كتاب الله الذي يرشد الإنسان إلى طريق النجاة. لذا يقول سبحانه وتعالى: **﴿ فإذا قرأناه فاتبّع قرآنه ﴾**(٢) أي أن هذه القراءة تتحول إلى إتباع واستلهام البصائر القرآنية والمناهج الربانية.

فالحق لا يتجسد في هذه القراءة إلا إذا أحكمت من كل نواحيها. وكان هَمّ القارئ هو البحث عن الحقيقة، والمعاني السامية، والمفاهيم القيمة حين التلاوة للقرآن للارتفاع والسمو ولإدراك البصائر والحقائق، ولذا كان من دعاء علي بن الحسين (ع) عند ختمه القرآن **﴿ اللهم فإذا أفدتنا المعونة على تلاوته وسهلت جواسي ألسنتنا بحسن عبارته فاجعلنا ممن يرعاه حق رعايته ويدين لك**

---

(١) تحف العقول ص١٣٨

(٢) سورة القيامة آية ١٨

باعتقاد التسليم لمحكم آياته ﴾.[1]

وهذه القراءة تحتاج إلى توجه كامل إلى الله، وفراغ القلب من أية أفكار أخرى، أو وساوس شيطانية ليتوصل بها إلى معرفة الحق، وتكون وسيلة إلى المعرفة.

ثالثاً: قراءة التدبر:

لقوله تعالى: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾[2] التدبر في القرآن، وإمعان النظر فيه لا يكون إلاّ بعد القراءة.

من المميزات التي تميز المؤمن عن غيره هو التدبر في القرآن الكريم، لأنه قد انفتح قلبه على القرآن، وغير المؤمن قد اقفل قلبه عن المعرفة والإيمان والعرفان. كما ورد في تفسير أية ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[3] عن الإمام الصادق (ع) قال: ﴿ فإقفال القلوب ثلاثة إقفال عن المعرفة وأخرى عن الإيمان بعد المعرفة وثالثة تقفل الإيمان العرفان عن التجلي في عمل الأركان وهو الأصل المعني بالتدبر ﴾.[4]

والتدبر نعني به التفكير في الجانب التطبيقي للقرآن، وتجسيد تلك الآيات في الواقع العملي، أو هو استقصاء وبحث عن الآيات لتطبيقها على أنفسنا.

وربما قد نقصد بالتدبر هو القراءة العميقة في مقابل القراءة السطحية لإعطائنا البصيرة والرؤية السليمة في الحياة، ولا يكون ذلك بالقراءة السطحية.

---

(١) الصحيفة السجادية دعاء ٤٢

(٢) سورة ص آية ٢٩

(٣) سورة محمد آية ٢٤

(٤) تفسير الفرقان (ج٢٧) ص١٢٢

لان الغاية من نزوله هو التدبر في آياته ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلـوب أقفالها** ﴾.[1]

فتدبر الإنسان بعـد القـراءة في هـذا الكتـاب مما يقـوي الرابطـة مـع الله، ويشده اكثر إلى معرفة المزيد من الحقائق والعلوم، فكلما تدبّر في آيـة اكتشـف انه لم يصل بعد إلى عمقها. كما عن زين العابدين (ع): ﴿ **آيات القرآن خزائـن العلم فكلما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر فيها** ﴾.[2]

" والتدبر أن نسير بأفكارنا إلى عاقبـة الأمـور أو دبرهـا. وحـين نتدبـر في القرآن فإننا نتفكر في تطبيقات الآيات الكريمة، وتجسّدها في الواقع العملي".[3]

وقد دعا القرآن المسلم إلى القراءة القرآنية، وحثه عليها مع التدبر في آياته. فعن أمير المؤمنين (ع) قال: ﴿ **ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر** ﴾.[4]

وعنه أيضاً (ع) قال: ﴿ **تدبّروا آيات القرآن واعتبروا بـه فإنـه أبلـغ العـبر**﴾[5] كما نهى أهل البيت (ع) عن القراءة السـريعة الـتي ليـس فيهـا تـأنّي حيـث لا تجدي نفعاً، ولا توصل المؤمـن إلى غايـة القـراءة وهـي التدبـر فيـه، قـال النـبي (ص): ﴿**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث** ﴾[6] وعن محمّد بن عبد الله قـال قلت لأبي عبد الله (ع): ﴿ **اقرأ القرآن في ليلة ؟ قـال: لا يعجبـني أن تقـرأه في أقـل من شهر**﴾[7] وكل ذلـك لأهـميـة الـتـدبـر الـذي لا يختص بـفئـة معينـة فهــو

---

(١) سورة محمد آية ٢٤
(٢) بحار الأنوار (ج٩٢) ص٣١٦
(٣) من هدى القرآن (ج١٣)ص٢٥٨
(٤) بحار الأنوار (ج٩٢) ص٢١١
(٥) غرر الحكم
(٦) كنز العمال خطبة ٢٨٢٨
(٧) الكافي (ج٢) ص٦١٧

كتاب الله الموجه إلى الإنسان، فآياته خطاب لكل المكلفين شريطة معرفة لغته، وإمعان النظر في معانيه، وبالتفكير فيه، وبالانفتاح عليه. وتتكرس هذه الأهمية في أن التدبر يجعل من المسلم يعيش جو الإيمان حينما يقف على الواقع الذي يعيشه، فتنعكس على شخصيته وسلوكه باعتباره الوسيلة إلى المعرفة، حيث أن الله أودع في كتابه كل ما يحتاجه البشر من برامج وعلوم ووسائل إلى يوم يبعثون.

والعمل بالقرآن وسيلة المعرفة الناتجة من التدبر في ظواهره والوقوف عند معانيه، ومحاولة معرفة خلفياتها، فكان الإمام الصادق (ع) له دعاء خاص قبل أن يقرأ القرآن يبين فيه هذا المعنى فيقول حين يأخذ المصحف بيمينه: ﴿**اللهم إني نشرت عهدك وكتابك. اللهم فاجعل نظري فيه عبادة وقراءتي تفكراً وفكري اعتباراً. واجعلني ممن اتعظ ببيان مواعظك فيه واجتنب معاصيك ولا تطبع عند قراءتي كتابك على قلبي ولا على سمعي ولا تجعل على بصري غشاوة ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبر فيها بل اجعلني أتدبر آياته وأحكامه آخذاً بشرائع دينك ولا تجعل نظري فيه غفلة ولا قراءتي هذرمة إنك أنت الرؤوف الرحيم**﴾.[1]

فما علينا إلا أن نفتح هذه القلوب المقفلة حتى يتيسر لنا معرفة القرآن فيتحرك فينا العقل لنتدبر فيما نقرأ، ويتواتر التفكير لدينا بعيداً عن الهوى والشهوات، وضغوط الحياة، والأفكار المنحرفة، فتكون حينها نظرتنا استنباطية تجردية تحمل معها معاني آيات الله فقط دون أي آراء أخرى.

رابعاً: قراءة الترتيل:

لقوله تعالى: ﴿ **ورتّل القرآن ترتيلاً** ﴾.[2]

---

(١) بحار الأنوار (ج٩٨) ص(٥-٦)

(٢) سورة المزمل آية٤

وهي القراءة بصورة متوازنة من أجل التأثر والفهم والوقوف عند الآيات لبيان معناها والتدبر فيها.

والمعنى اللغوي للترتيل في القرآن التأنّي، وتبيين الحروف بحيث يتمكن السامع من عدّها. وعن أمير المؤمنين (ع) ﴿ **احفظ الوقوف وبيان الحروف**﴾.[1]

والترتيل بهذا المعنى يقرّب الفهم، ويجعل منه كتاباً ميسراً نفهمه حينما نتأنى في قراءته. فعن الإمام الصادق: ﴿ في قوله تعالى ﴿ **ورتّل القرآن ترتيلاً**﴾[2] **قال: هو أن تتمكن فيه وتحسن به صوتك** ﴾.[3]

وقراءة القرآن بغير هذه الطريقة تفقد أهدافها، ولا يستفيد القارئ من تلك القراءة شيء، ولا يتوصل إلى التدريج لتسهيل قراءته على المسلمين، وتيسير فهمه، لقوله تعالى: ﴿ **وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً** ﴾[4] ومعنى مكث مهل وتؤده فإنه أيسر للحفظ، وأعون في الفهم.[5]

فإذا أراد المؤمن أن تنعكس هذه القراءة على شخصيته وسلوكه، وتتضح آثار القراءة جلية فعليه بترتيل القرآن بهذا المعنى، و أن يتعامل معه كما يتعامل أصحاب الإمام علي (ع) المتقين حيث يصفهم في خطبة له ويبين مدى أثر قراءة القرآن على شخصيتهم حيث يقول ﴿ **أما الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا. يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم**

---

(١) مجمع البحرين (ج٥) ص٣٧٨
(٢) سورة المزمل آية ٤
(٣) الوسائل (ج٤) ص٨٥٦
(٤) سورة الإسراء آية ١٠٦
(٥) تفسير كنز الدقائق (ج٧) ص٥٣٠

وشهيقها في أصول آذانهم جانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم واكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم ﴾.[1]

ولذلك أكد أئمة أهل البيت (ع) على أن القراءة الحسنة والمتأنية هي المطلوبة، حيث لها وقع في النفس فتزداد إيماناً وتعلقاً بربّها. فعن عبد الله بن سليمان قال سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل و رتل القرآن ترتيلا قال: قال أمير المؤمنين(ع): ﴿ بيّنه بياناً و لا تهذّه هَذَّ الشعر و لا تنثره نثر الرمل و لكن افزعوا قلوبكم القاسية و لا يكن هم احدكم آخر السورة﴾.[2]

وعن علي بن حمزة قال: قال أبو عبد الله (ع): ﴿ إن القرآن لا يقرأ هذرمة (الإسراع في القراءة) ولكن يرتل ترتيلاً، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها، واسأل الله الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها، وتعوذ بالله من النار﴾[3]

وروى عن أم سلمة قالت: (كان رسول الله (ص) يقطع قراءته آية آية).[4]

لكي تكتمل القراءة:

لقراءة القرآن آداب كآداب التلميذ عند أستاذه، فكما أن التلميذ حينما يقدم إلى أستاذه باعتبار التلمذة ليأخذ الدرس منه، فعلى المؤمن أن يقوم بعدة تعليمات تكون مكملة لهذه القراءة المطلوبة فعليه:

أولاً: الاستعداد النفسي للقراءة:

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٩٣

(٢) الكافي (ج٢) ص٦١٤

(٣) الكافي (ج٢) ص٦١٧

(٤) كنز الدقائق (ج١٣) ص٤٩٨

وذلك بالوضوء قبل البدء ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾[1] فجدير بهذا القارئ إذا أراد لمس حروف القرآن أن يتطهر حتى يحق له لمسها، كما ورد عن أمير المؤمنين (ع): ﴿ قال لا يقرأ العبد القرآن إذا كان على غير طهور حتى يتطهر ﴾.[2]

بل حتى إن الروايات أمرت بتطهير الفم على وجه الاستحباب لقراءة القرآن. فعن النبي (ص) قال: ﴿ نظّفوا طريق القرآن قيل: يا رسول الله وما طريق القرآن ؟ قال أفواهكم. قيل بماذا ؟ قال: بالسواك ﴾.[3]

فكل من يريد أن ينتفع بالقرآن تمام الانتفاع عليه بتحصيل الاستعداد النفسي وذلك يتوقف على طهارته، ونظافته من الأوساخ والقاذورات، للإقبال على الحديث مع الله. حيث من يقرأ كأنما يتحدث مع ربّه، ومن يريد أن يكون بحضرته يستعّد للقائه. كما يستعد للقاء الأمراء والملوك بأفخر الملابس و أجملها وأنظفها.

ثانياً: الصوت الحسن:

للصوت وطريقة القراءة تأثير على القارئ نفسه والمستمع أيضاً، فكلما كان الصوت حسناً وجميلاً مع ضبط المخارج للحروف كان الكلام أبلغ في التعبير وأوضح للسامع. ولحروف اللغة العربية مميزات تختلف باختلاف المخارج، فكل حرف مختص بجرس معين وإيقاع مناسب.

قال يحيى اليمني في كتاب الطراز " ما من واحد من الأحرف العربية إلا وهو مختص بنوع فضيلة لكنها متفاوتة في الصفاء والرقة، ولهذا فانك تجد

---

(١) سورة الواقعة آية ٧٩

(٢) الوسائل (ج٤) ص٨٤٧

(٣) بحار الأنوار (ج٩٢) ص٢١٣

(العين) انصع الحروف جرساً وألذها سماعاً، والقاف مختصة بالوضوح والمتانة وشدة الجهر، فإذا وقعا في كلمة حسّناها لما فيها من تلك المزية. وهكذا كل حرف منها له مزية لا يشاركه فيها غيره، فسبحان من انفرد في الأشياء دقيق حكمته، واحكم المكونات بعجيب صنعته. فمتى روعيت هذه الاعتبارات وألفت الكلمة من هذه الأحرف السهلة كان الكلام في نهاية العذوبة وجرى على أسلات الألسنة بالسلالة وخفة المنطق".[1]

ومن هنا نلاحظ أن العرف يتذوق الأصوات فيعجب بها، وينسجم معها، باعتبار أن الصوت أداة اللفظ للتعبير عن الأفكار والكلام المراد إيصاله إلى السامع. فإذا كان حسناً وجميلاً وخارجاً من القلب فانه يؤثر، ويدخل في قلب المستمع عند الإنصات إليه. ولذا ورد عن أئمة أهل البيت (ع) في قراءة القرآن بالصوت الحسن. فعن النبي (ص): ﴿ إن حسن الصوت زينة للقرآن﴾[2]

وعنه أيضاً: ﴿ إن لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن ﴾.[3] وعنه كذلك: ﴿زيّنوا القرآن بأصواتكم ﴾.[4] وعن الرضا (ع): ﴿حسّنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً ﴾[5] وعن الصادق (ع) يقول: ﴿ كان علي بن الحسين صلوات الله عليه أحسن الناس صوتاً بالقرآن وكان السقاءون يمرّون فيقفون ببابه يسمعون قرآنه، وكان أبو جعفر أحسن الناس صوتاً﴾.[6]

ولذا نرى أن القرآن قد نهى عن الصوت المنفر بشكل عام سواء كان في

---

(١) الطراز (ج١) ص١٠٦
(٢) بحار الأنوار (ج٩٢) ص١٩٠
(٣) الكافي (ج٢) ص٦١٥
(٤) الترغيب و الترهيب (ج٢) ص٣٦٣
(٥) عيون الأخبار (ج٢) ص٦٩
(٦) الكافي (ج٢) ص٦١٦

أثناء الحديث أو قراءة القرآن. فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾[1] و صدور التلاوة من المؤمن للقرآن بالصوت الحسن فإنها ترهف وتشجي القلوب، وتنقاد إليها النفوس، وتصغي إليها الأسماع، ويقبل العقل عليها بالتدبر في معانيها، باستحسان بلاغة آياتها وشدة تأثيرها فتحرك القلوب المتحجرة بهذا التعبير الصادق والصوت الحسن.

ثالثاً: الخشوع:

هو تأثر خاص يضفي على الإنسان حالة الخضوع تجاه من يخشع إليه. فعندما يأخذ المؤمن القرآن بيده ليقرأه فليشعر نفسه انه بحضرة الله الخالق العظيم، وان ما بين يديه هو رسالة منه إلى هذا العبد الضعيف، فلينظر ماذا يريد منه الله في هذه الرسالة. فيقول سبحانه: ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** ﴾.[2]

فالخشوع بالقلب هي صفة من صفاته، فكلما قرأ الإنسان آية من آيات كتاب الله زاد تأثره، وانتفع بها. فآيات الوعد والوعيد والإنذار والتبشير تثير فيه الأمل والخوف، فيتحرك فيه الشوق والخشوع. فعن أبي أسامة قال زاملت أبا عبد الله (ع): ﴿ **قال: فقال لي اقرأ فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها فرّق وبكى. ثم قال: يا أبا أسامة ارعوا قلوبكم بذكر الله** ﴾[3] فقراءة القرآن بحالة من الخشوع مطلوبة لتحلّق بالإنسان إلى عالم الطهر لانفصالها عنه في غير هذه الحالة، فيدرك المؤمن حينها مدى الهجران بينه وبين الله، فيجهد نفسه للتقرب منه بواسطة السير الروحي والسلوك القلبي. فعن النبي (ص): ﴿**اقرأ بالحزن فانه**

---

(١) سورة لقمان آية ١٩

(٢) سورة الحديد آية ١٦

(٣) روضة الكافي ص١٦٧

نزل بالحزن ﴾[1] وعن جابر عن أبي جعفر (ع) قال: ﴿ قلت: إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حُدّثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يداه أو رجلاه لم يشعر بذلك ؟ فقال سبحان الله ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا إنما هو اللين والرّقة والدّمعة والوَجل ﴾.[2]

(١) الوسائل (ج٤) ص٨٥٦
(٢) الكافي (ج٢) ص٦١٦

مصادر الكتاب

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم.

٢. القرآن في الإسلام / الطباطبائي.

٣. القرآن/ أنور الجندي.

٤. القرآن حكمة الحياة / السيد محمد تقي المدرسي.

٥. التهذيب / الطوسي.

٦. البيان / السيد الخوئي.

٧. الصياغة الجديدة / آية الله الشيرازي.

٨. التعريفات / الجرجاني.

٩. الاختصاص / الشيخ المفيد.

١٠. المراجعات / السيد عبد الحسين شرف الدين.

١١. الوسائل / الحر العاملي.

١٢. أصول الكافي / الكليني.

١٣. التبيان / الشيخ الطوسي.

١٤. الإتقان في علوم القرآن / السيوطي.

١٥. أخلاقيات أمير المؤمنين / السيد هادي المدرسي.

١٦. المحاسن / البرقي.

١٧. الفقه حول القرآن الكريم / آية الله الشيرازي.

١٨. الدر المنثور / السيوطي.

١٩. أصول الفقه / الشيخ محمد رضا المظفر.

٢٠.البرهان في علوم القرآن / بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي.
٢١.الهدف من نزول القرآن / السيد محمد باقر الحكيم.
٢٢.التمهيد في علوم القرآن ج٢ / محمد هادي معرفت.
٢٣.الطباطبائي و نهجه / علي الأوسي.
٢٤.الفصول في الأصول / الشيخ محمد حسين الحائري.
٢٥.القرآن ثوابه و عقابه / الشيخ محمد رضا الحكيمي.
٢٦.الفقه ج٢١ / آية الله الشيرازي.
٢٧.الخصال / الشيخ الصدوق.
٢٨.الصحيفة السجادية / الإمام زين العابدين(ع).
٢٩.الترغيب و الترهيب / المنذري.
٣٠.الطراز / يحيى اليمني.
٣١.أمالي الطوسي / الشيخ الطوسي.
٣٢.أجوبة المسائل الشرعية / آية الله الشيرازي.
٣٣.المعجم المفهرس / محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٤.بصائر الدرجات / الصفار.
٣٥.بحوث في تاريخ القرآن و علومه / أبو الفضل مير محمدي.
٣٦.بحار الأنوار / العلامة المجلسي.
٣٧.تفسير القمي / علي بن إبراهيم.
٣٨.تفسير العياشي / العياشي.
٣٩.تفسير كنز الدقائق / الشيخ محمد بن محمد رضا القمي.
٤٠.تفسير الميزان / السيد محمد حسين الطباطبائي.
٤١.تفسير القرطبي / القرطبي.

٤٢.تفسير الفرقان / د. محمد الصادقي.
٤٣.تفسير نور الثقلين / الحويزي.
٤٤.تفسير من هدى القرآن / السيد محمد تقي المدرسي.
٤٥.تفيسر المنار / محمد رشيد رضا.
٤٦.تفسير الصافي / الكاشاني.
٤٧.تاريخ آداب العرب.
٤٨.ثواب الأعمال / الشيخ الصدوق.
٤٩.جامع الأصول / لابن الأثير.
٥٠.جريدة الحياة.
٥١.جامع البيان / أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
٥٢.حقائق هامّة حول القرآن الكريم / السيد جعفر مرتضى العاملي.
٥٣.دراسات قرآنية / د. محمد حسين علي الصغير.
٥٤.دروس من القرآن / قراءتي.
٥٥.سفينة البحار / الشيخ عباس القمي.
٥٦.شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد.
٥٧.جمع البخاري / أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.
٥٨.جمع مسلم / أبو الحسين مسلم بن حجاج النيسابوري.
٥٩.طب الأئمة / ابن بسطام.
٦٠.علل الشرائع / الشيخ الصدوق.
٦١.عدة الداعي / ابن فهد.
٦٢.عدة الأصول / الطوسي.
٦٣.عيون الأخبار / ابن قتيبة.

٦٤.غرر الحكم / القاضي الامدي.

٦٥.فرائد الأصول / الشيخ الأنصاري.

٦٦.كتاب الأسماء و الصفات / أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي.

٦٧.كنز العمال / المتقي الهندي.

٦٨.مجمع البيان / الطبرسي.

٦٩.مع القرآن في عالمه الرحب / د. عماد الدين خليل.

٧٠.مباحث في علوم القرآن / د. صبحي الصالح .

٧١.معالم على طريق الحوار / للمؤلف.

٧٢.مستدرك الحاكم / الحاكم.

٧٣.مذاهب التفسير الإسلامي / جولد سهير (مستشرق مجري)

٧٤.ميزان الحكمة ج٨ / محمدي ري شهري.

٧٥.مصباح الشريعة / الإمام الصادق(ع).

٧٦.مناهل العرفان / محمد عبد العظيم الزرقاني.

الفهرس

الفصل السادس : القرآن أهدافه

الفصل السابع : القرآن له أبعاد

الفصل الثامن : معالم المنهجية القرآنية

الفصل التاسع : قرآننا والدعوة

الفصل العاشر: القرآن هو البديل:

الفصل الحادي عشر : كيف نستوعب القرآن:

الفصل الثاني عشر: كيف نقرأ القرآن

صدر للمؤلف

١. معالم على طريق الحوار
٢. معالم على طريق الإيمان
٣. القرآن منهج وحضارة (بين يديك)



شركة المصطفى
للتوزيع والخدمات الثقافية
ص - ب 3022 المنامة - دولة البحرين هاتف 554115 - فاكس 554116